كتابي

براءة الطفولة



لوحة للرسام الانجليزى سير "ج. ميليه"

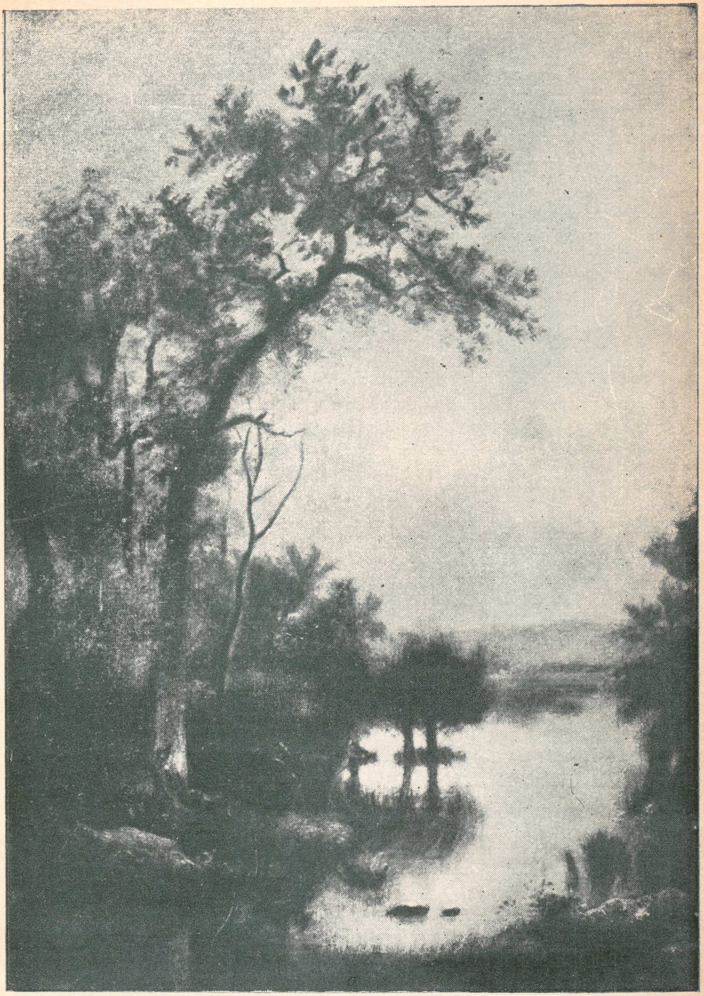
حلمى مراد

١٠ قروش



عينان ٠٠ ولآلىء : أيهما أشد بريقا ؟

لوحة فوتوغرافية للمصور الألمانى «هوبز فلوتر» بمدينة (ستوتجارت)



الفجر

لوحة للرسام الفرنسى « جول دوبريه »
(١٨١١-١٨٨٩) ، بمتحف اللوفر بباريس

كتابي

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية

يصدر أول كل شهر

صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب الأربعــون (السنة الرابعة) : يوليــو ١٩٥٥

الاشتراكات ومجموعة الاعداد السابقة: اقرأ التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون : ٥٩٥٥٦ و ٦٥٦٠٨

محتويات الكتاب

عزيزى القارىء :

◆ **عندما** تهيأت لأن أكتب اليك هذه السطور التى تعودنا – أنت وأنا – ان نلتقى فيها فى مستهل كل عدد ، لنتبادل حديثا أخويا صريحا – شأنى معك منذ العدد الأول – وصلتنى ، (فى بريد واحد) ، رسالتان متناقضتان ، تكاد احداهما أن ترد على الاخرى – لو اتيح لصاحبيهما أن يلتقيا ! – **فخطر لى أن أجمع بينهما على صفحات كتابى ، كى اشركك معى فى مواجهة مشكلة ، ليست سوى واحدة من عشرات المشكلات التى تواجهنى فى كل شهر ، من فرط حرصى على ارضاء مختلف نزعاتك ، وتقصى شتى ميولك ورغباتك التى تطمع فى أن ترى كتابى يحققها لك على صفحاته ..**

فالسيد الفاضل صاحب الرسالة الاولى ، التى تتضمن الاتهام ، يقول – (وقد آثرت ان أبدأ بها ، نزولا على المبدأ القانونى الذى يقدم مرافعة ممثل الاتهام على مرافعة ممثل الدفاع !) – يقول سيادته :

« .. ان باب « نافذة كتابى تطل على العالم – رأيت وسمعت لك فى أوربا » قد حول الكتاب من باقة أدبية متناسقة ، الى خليط فقد بعض تجانسه .. »

« و . جلال – مصر الجديدة »

.. بينما السيد الفاضل كاتب الرسالة الاخرى يقول ، (فى الموضوع نفسه) :

« سافرت الى الخارج ، عدة رحلات .. وكنت بعد عودتى أود كتابة مذكراتى عن مشاهداتى .. فكنت كلما بدأت ، رأيت اننى لم أحسن التعبير عما شاهدت وسمعت هناك .. حتى بدأت أنت فى الكتابة عن رحلتك ، فوجدت نفسى أضحك وأنا أقرأ ، ذلك لانى وجدت ما كنت اريد أن أكتبه .. وجدت صورة صادقة أمينة حقيقية واقعية لما شاهدت .. ولا أكتمك اننى قرأت لك بعض فصولك عن الرحلة عدة مرات ! وكنت فى كل مرة أشعر بمتعة التصوير الواقعى الرائع لتلك البلاد .. »

دكتور نجيب صديق
٧٨ شارع كامل صدقى بمصر

والمغزى الطريف لهذا الاختلاف – من النقيض الى النقيض – بين الرأيين ، هو انه يعطيك « فكرة » ، أو مجرد « مثال » ، لمدى الصعوبة التى أكابدها فى التوفيق بين مختلف الآراء ، ومحاولة ارضاء أكبر نسبة أستطيع ارضاءها من ميول القراء الاعزاء ، أو اشباع أكبر قدر من نزعاتهم المتضاربة !

ولست أريد أن أشركك معى فى متاعبى ، الا بالقدر الذى يعيننى على أن احقق لك – جهد طاقتى – اقصى ما أملك ان احققه لك من رغبات تتصل بما « تحب » ان تقرأه على صفحات « كتابك » .. ومن هنا رأيت ان اعرض عليك

هــذا النزاع الحالى بين الســيدين الفاضلين صاحبى الخطـابين ، كى تقول فيه كلمتك ، وتخطرنى بها فى اقرب فرصة ٠٠ وأنتهز هذه الفرصة فأطرح عليك هذا السؤال ، أو الاسئلة : ما رأيك فى باب « رأيت وسمعت لك فى أوربا » ؟ هل تفضل ان يواصل « كتابى » تقديم هذا اللون من الثقافة اليك فى كل عدد ، أم ترى فيه خروجا على « التناسق » و « التجانس » مع سائر موضوعات الكتاب الاخرى ؟٠٠ واذا كنت ترى ان يستمر هذا الباب - وهو ، (بينى وبينك) ، يكلفنى من المشـقة فى جمع المعلومات وغربلتها وتنسيقها ثم كتابتها ، اضعاف اضعاف أى موضوع آخر - فهل ترى ان يكون استمراره على نفس الصــورة الحالية ، من حيث الاختصار أو التطويل ، أم ترى فيما قرأته من فصوله حتى الآن تطويلا مملا - أو اختصارا مخلا - تود منى أن أتداركه فى المستقبل ؟

وفى انتظار تلقى رأيك ، أنتهز هذه الفرصة فأكرر هنا معنى كنت أعتقد اننى شرحتــه أكثر من مرة ، لكننى لا أرى بأسا فى أن أرد به هنا عـلى ما ذكره السيد « و ٠ جـلال » فى رسالته السالفة ، بشأن « التناسق » و « التجانس » ٠٠ فلقد أوضحت منـذ وجهت حـديثى الاول اليك ، أن هدفى فى هذا الكتاب هو أن أقدم لك باقة منتقاة - ولكن « غير متجانسة » ! - من الموضــوعات الثقافية « المنــوعة » ، التى تجعلك عـلى صلة بكافة التيارات الفكرية ، القــديمة والحــديثة ٠٠ وأعتقد أننى لم أحد عن هـذا الهدف قيد أنملة ، فى أى عدد من الاعداد الاربعين التى صدرت حتى اليوم ٠٠ ففى العدد الحالى الذى بين يديك مثلا ، تجدنى قد حرصت على أن أكفل لك « سياحة فكرية » على صفحاته ، عبر الزمان والمكان ، منذ أقدم العصور حتى الآن : فمن مشــاهدات فى (فيينــا) الحــديثة ، الى معـلومات من تاريخ الامبراطورية النمسوية العريقة ، الى قصة مصرية تصور مجتمعنا المصرى العصرى ، الى قصة لمارسيل بروست تصور المجتمع الاوربى فى القرن قبل الماضى ٠٠ الى بعث لتاريخ العاهل الفرعونى الذى عاش على صفاف النيل منذ ٣٢ قرنا ! ٠٠ الى قصة حب اصطرعت فيه العــواطف فى أحد أديرة البرتغال فى القرن السابع عشر ٠٠ الى تحليل لشخصية نبى الاسلام الكريم الذى عاش فى شبه الجزيرة العربية منذ نحو ١٤ قرنا ٠٠ الى دراسة اجتماعية لتاريخ الغــزل بين جنسى البشر منذ عصر الاغريق الى اليوم ٠٠ الى قصة من قصص المجتمع الايطالى فى القرن الثامن عشر ٠٠ الى دراسة سيكلوجية لاطفال القــرن العشرين - ورجال القرن الواحـد والعشرين - الى احيـاء لعصر المغـامرات ، الذى عاش فيه كازانوفا ٠٠ الى رواية تاريخ العـالم منـذ بدء الخليقة حتى العصر الحديث ٠٠

وفى هذا القدر الكفاية !

حلمى مراد

كتابى

أعداد نفـــدت

الكتب الستة الاولى ، والادارة مستعدة لشرائها .

أعداد توجد نسخ منها بالادارة

كتابى السابع « **عشيقة نابليون** » ، والثامن « **مذكرات كيوبيد** » ، والتاسع « **صنم تحطم** » ، والعاشر « **حديقة الله** » ، والحادى عشر « **عندما تحقد المرأة** » ، والثانى عشر « **لعبة الحب والموت** » ، والثالث عشر « **توبة خاطئة** » ، والرابع عشر « **أيها الربيع ترفق** » ، والخامس عشر « **الشيطان على الارض** » ، والسادس عشر « **ليدى هاملتون** » ، والسابع عشر « **الارملة المرحة** » ، والثامن عشر « **حياة جورج صاند** » ، والتاسع عشر « **حياة سارة برنار** » ، والعشرون « **رباعيات عمر الخيام** » ، والحادى والعشرون « **حياة بتهوفن** » ، والثانى والعشرون « **حياة موسولينى** » ، والثالث والعشرون « **كوخ العم توم** » ،والرابع والعشرون « **الزوج والعشيق** » ، والخامس والعشرون « **البوهيمية** » ، والسادس والعشرون « **فتاة لها ماض** » ، والسابع والعشرون « **ترويض النمرة!** » ،والثامن والعشرون « **فن الحب** » ، والتاسع والعشرون « **الجريمة والعقاب** » ، والثلاثون « **المنافق** » (**طرطوف**) ، والحادى والثلاثون « **أميرة مصر** » ، والثانى والثلاثون « **الامطار** » ، والثالث والثلاثون « **أفروديت** » ، والرابع والثلاثون « **أقنعة الحب السبعة** » ، والخامس والثلاثون « **سالومى** » ، والسادس والثلاثون ، والسابع والثلاثون ، والثامن والثلاثون ، والتاسع والثلاثون

◆ **وتطلب** من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة (عمارة الجندول)، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالصا أجرة البريد(المسجل) ماعدا الاعداد ١٣،١٦ ، وثمن كل منهما ١٢ قرشا ، والعدد العاشر ، والعدد العشرون ، وثمن كل منهما عشرون قرشا .. وابتداء من العدد ٢٥ ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا

◆ **ملاحظة : ترسل القيمة فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة ، ولا تقبل العملة الاجنبية أو أذون البريد الخارجية . وتحرر الاذون والشيكات باسم صاحب المجلة شخصيا**

صدر منها حتى الآن :

مطبـــوعات كتابى

١ ـ قصة مدينتين	**٢ ـ ذات الثوب الابيض**
٣ ـ الخــالـدون	**٤ ـ الخاطئـــــة**
٥ ـ حياة امرأة (الجزء الاول)	**٦ ـ حياة امرأة (الجزء الثانى)**

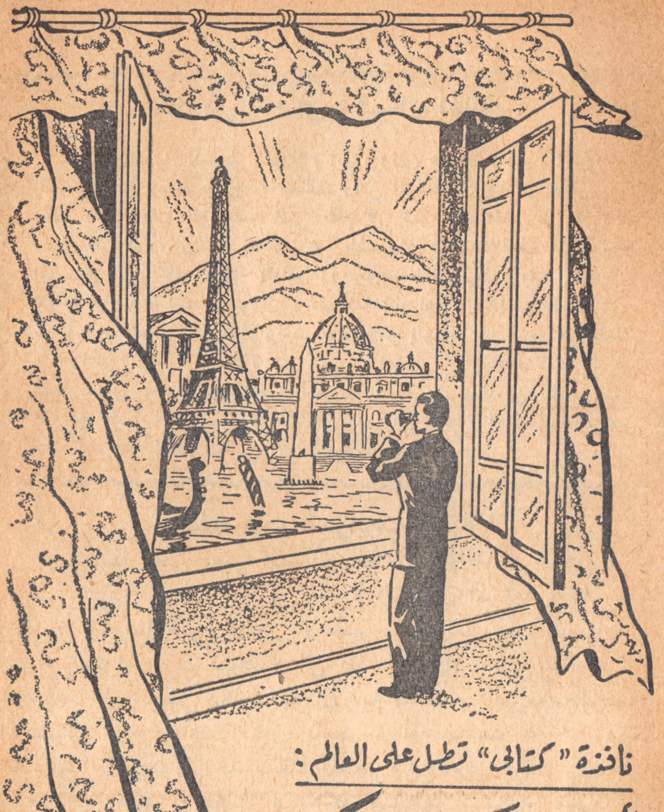
وثمن كل من الاول والرابع ، عشرون قرشا خالصا أجر البريد المسجل (نظرا لوشك نفادهما) ، والثانى ١٢ قرشا ، والثالث ١٠ قروش ، والخامس والسادس ثمانية قروش

« كتابى » يشترى الاعداد الستة الاولى من القراء !

نظرا لالحاح الكثيرين من القراء فى طلب الاعداد الستة الاولى من « كتابى » ، ولتعذر اعادة طبعها فى الوقت الحاضر ، ولما كان لا يبعد أن يكون لدى البعض أكثر من نسخة من الاعداد المذكورة ٠٠ فقد رأت **ادارة « كتابى » أن تعلن عن استعدادها لشراء أى عدد من نسخ الاعداد الستة الاولى ، تمهيدا لتمكين من تنقصه الاعداد المذكورة من اقتنائها بعد ذلك من الادارة ٠ فالرجا الاتصال بالمجلة فى هذا الشأن ، على أن يكون تسليم النسخ اليها حضوريا أو بالبريد المسجل ٠**

الاشتراك فى « كتابى »

◆ **ترسل** جميع الاعداد الى المشتركين : بالبريد المسجل ٠ وقيمة الاشتراك فى مصر والسودان : عن سنة (١٢ عددا) : ١٢٠ قرشا ، وعن نصف سنة (٦ أعداد) ٦٥ قرشا ـ فى الخارج (العراق وسوريا ولبنان والاردن الخ ٠٠) ترسل القيمة بشيك أو بحوالة بريدية نقدية Money Order عن طريق مكاتب البريد وتحتسب القيمة بما يوازى ١٣٠ قرشا (عن سنة) و ٧٠ قرشا (عن نصف سنة) ٠ وفى الحجاز والكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وأمريكا وفرنسا واستراليا قيمة الاشتراك ١٦٠ قرشا (عن سنة) ٠ وفى ألمانيا ٢٦٥ قرشا ٠



نافذة "كتابي" تطل على العالم :

رأيت وسمعت لك في أوربا

للمحرر

تعال معى ٠٠ الى « فيينا » الخالدة !

◆ فى الفصل السابق غادرنا (اينزبروك) عاصمة اقليم « التيرول » النمسوى الى (سالزبورج) ، مسقط رأس الموسيقى الخالد « موزار » ، ومقر المهرجانات الموسيقية التى تقام فى شهر اغسطس من كل عام احياء لذكراه ، والتى يتقاطر على حضورها مئات الالوف من عشاق الموسيقى فى كافة أنحاء العالم !٠٠ وقد طفنا ببعض معالم المدينـة الهامة فزرنا « متحف موزار » ،ثم شاهدنا أوبرا « الناى السحرى » فى مسرح الدمى ـ « الماريونيت » ـ وهو الوحيد من نوعه فى العالم ٠٠ وأخيرا قضينا السهرة فى ملهى « فينكلر » المشهور المنحوت فى قلب الجبل !٠٠ وخرجنا منه لنتسكع قليلا بين عدد من الملاهى ذات البرامج المتباينة ، فنستمع حينا الى موسيقى الغجر الهنغارية ،ونرقص حينا آخر على أنغام الفالس الارستقراطية العريقة ٠٠

القلعة ذات السراديب الخفية !

◆ **وفيما** نحن نعبر الطريق خلال تجوالنا ، نفاجأ بصوت شرطى المرور يهتف بنا كى نلتزم الاصول المرعية ، فلا نجتاز الطريق الا اذا أضىء النور الاخضر ـ شأننا شأن السيارات ، سواء بسواء ! ـ فنجيبه الى طلبه ، واذ ذاك يتبسط معنا فيرشدنا الى أفضل مكان نتناول فيه قدحا من بيرة(سالزبورج) المشهورة ، ويعرف المكان باسم « أوجستينر » ٠٠ وتشاء المصادفة أن يكون أحد سقاة المطعم من الذين عاشوا ردحا من الزمن فى مصر ، يعمل فى احد فنادقها ، فراح يسرد علينا ذكرياته العاطرة عن بلادنا التى لن ينساها ٠٠!

وفرغنا من الالمام بمعالم سالزبورج الليلية ، وجاء فى النهار التالى دور الالمام بمعالمها الاثرية : وفى مقدمة هذه المعالم قلعة « هوهن » ، التى تشرف من قمتها على منظر ساحـر للمدينة ، ويمكن الوصول اليها فى دقائق عن طريق المصعد الطائر الذى يقوم كل ربع ساعة ٠٠ وقد بدىء فى تشييدها

عام ١٠٧٧ ، وأنشئت بها « ممرات تحت الارض » تصل بينها وبين المدينة ، وقد كان حكام الاقليم يلجأون الى هذه السراديب أو الممرات الخفية ، فى أوقات الخطر !٠٠ وفى القلعة «آرغن» كبير ضخم ، به ٣٠٠ انبوبة هوائية ، وتنطلق منه ١٢ نغمة مختلفة فى آن واحد ٠

البرج : يقع فى مواجهة القصر الملكى ، فى الميدان المعروف باسمه ٠٠ وقد شيد عام ١٦٩٥ ، وبه ٣٥ جرسا تدق كل يوم، ماعدا ايام الجمعة !

قصر ميرابيل : وقد شيده حاكم المدينة المصلح « وولف ديتريش » خصيصا من أجل خليلته !٠٠ ثم أعيد تجديده ، بل انشاؤه بأكمله ، فى نهاية القرن الثامن عشر٠ وتلحق بالقصر حديقة غناء منسقة أبدع تنسيق ومزينة بعشرات التماثيل لعظماء النمسا فى شتى فروع العلوم والفنون والآداب ٠٠



الامبراطورة اليزابيث ، زوجة « فرانز جوزيف »

قصر ليوبولد سكرون : وهو قصر جميل يحتفظ بجدته حتى اليوم ، ويقطنه الآن المخرج المشهور « ماكس رينهاردت » ، أحد المشرفين على تنظيم مهرجان موزار فى كل عام ٠

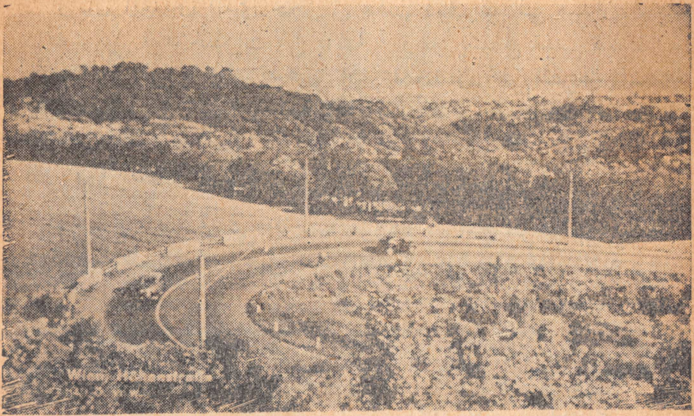
قصر هيلبرون : وكان قصر « اللهو » لحكام سالزبورج القدامى ، وبه مسرح خاص فى الهواء الطلق أقيمت خشبته فى مغارة طبيعية فى حدائقه ٠٠ ومن أجمل ما يرى فى هذه الحدائق نافورات المياه الخلابة التى انشأها اخصائى فنان منذ عام ١٦١٥ ٠٠ ثم تمثال

الامبراطورة « اليزابيث »زوجة امبراطورالنمسا العظيم « فرانز جوزيف » ـ وقد اغتيلت فى جنيف عام ١٨٩٨ ! ـ وفى جزء من الحدائق حديقة حيوان خاصة للغزلان الجبلية والزرافات والماعز ، وتعيش كلها وسط الخضرة والصخور والمياه ، فى اطار طبيعي خلاب ٠٠


الامبراطور « فرانز جوزيف »

وحسبنا هذا من معالم مدينة موزار الخالد ٠٠ ولنسرع لنلحق بقطار منتصف الليل القادم من اينزبروك ، والمتجه الى العاصمة : فيينا ٠

وكان أمامى نحو سبع ساعات من الليل أقضيها فى القطار قبل أن يصل الى العاصمة ـ كما كان فى انتظارى نهار حافل بالتجوال فى المدينة العريقة ـ فأردت أن أحظى بقسط كاف من النوم والراحة يعيننى على مواجهة البرنامج المرتقب ٠ وكان من حسن حظى أن عثرت على سرير خال فى عربة النوم بالقطار ، على انى لم أكد أدخل المقصورة حتى رأيت منظرا اقشعر له بدنى ـ من البرد على الاقل ـ فقد رأيت فى السرير الاسفل بالمقصورة مسافرا من أهل البلاد قد نام ، قرير العين، وهو عارى الصدر تماما ٠٠ أى بلا « بيجاما » ، ولا « فانلة »، ولا غطاء البتة ! ـ حتى ولا ملاءة على الاقل ! ـ فى الوقت الذى كنت أرتدى فيه ثيابى الشتوية ، فقد كان الطقس اشبه بطقس شهر مارس فى بلادنا ٠٠ وقد حسبت ليلتئذ ان بالرجل شذوذا ، حتى صادفت المنظر نفسه أثناء عودتى من (فيينا) بعد أيام ، فأدركت ان هذه عادة القوم هناك ، وانهم جميعا يتمتعون ببنية « فولاذية » !



طريق السيارات المؤدى الى « غابات فيينا » المشهورة

المدينة تعرف من « محطتها » !

◆ **وأول** مايبهر القادم الى فيينا بمجرد وصوله ، محطتها الجديدة الرائعة ، التى تكاد تكون فى درجة محطة روما .. وهى أشبه « بسلاملك » فاخر من طابقين ، كل مافيه بللور ورخام وألومنيوم ، **وقد تراصت فيه الحوانيت البراقة الانيقة لبيع الازهار ، والفاكهة ، والكتب ، والصور ، والمشروبات ، والشطائر** .. وبمحاذاة الجدران فى كل اتجاه عشرات من النوافذ الانيقة المتشابهة ، جلس خلف بللورها البراق موظفو المحطة والاستعلامات بجميع أقسامها ، بصورة تشرح الصدر حقا وتوحى بالفن والجمال !.. حتى الحمالين كانوا يرتدون سترات و « كاسكت » موحدة المظهر ـ يونيفورم ـ تشبه أزياء مندوبى الفنادق الذين يستقبلون السائحين !

وكان الفندق الذى حجز لى مكان فيه يقع فى ميدان المحطة ذاته ، على قيد خطوات من بابها • وهو يشغل مبنى ضخما من خمسة طوابق – **وقد تدهش اذا علمت أن أجر الغرفة المستقلة به ، المطلة على الميدان ، مضافا اليه مقابل الوجبات الثلاث من الطعام ، يوازى نحو ٩٥ قرشا مصريا فقط فى اليوم •• أى أقل مما يدفعه المصطاف فى أى مصيف مصرى !**

وجميع الفنادق فى النمسا مزودة ببرامج الرحلات المنظمة ، خصيصا للسائحين•• بل انك تحصل على تذكرتك، لاية رحلة، من الفندق نفسه •• دون ادنى مشقة • وهكذا حصلت بمجرد وصولى على تذكرة الجولة الاولى بالمدينة ، وبعد أن استرحت ساعة وأبدلت ثيابى خرجت قبيل الساعة العاشرة صباحا الى حيث ركبت من الميدان سيارة اتوبيس اقلتنى الى ميدان الاوبرا ، حيث موقف سيارات الاوتوكار الفاخرة الخاصة برحلات السائحين • وفى دقائق امتلأت السيارة الكبيرة بحاملى الثلاثين تذكرة التى حجزت بمعرفة مختلف الفنادق ، فى نظام مثالى ، وسرعة ، ودقة ••



الامبراطورة « ماريا تيريزا »

وانطلقت السيارة بنا الى القصر الامبراطورى « شونبرون » ••

القصر ذو ال ١٤٤١ حجرة !

◆ **وقصر** « شونبرون » من أجمل قصور ملوك واباطرة أوربا • وقد بدىء فى تشييده فى عام ١٦٩٤ ، بأمر من الامبراطور ليوبولد الأول ، وانتهى العمل فيه بعد ٩

سنوات . وفى سنة ١٧٠٧ عقد فيه زواج ملك اسبانيا « شارل السادس » ، ثم ترك واهمل شأنه حتى جاءت امبرأطورة النمسا العظيمة « ماريا تيريزا » - التى يكاد النمسويون يقدسون ذكراها ، وهى والدة ملكة فرنسا «مارى انطوانيت» - فجددت القصر وأضافت اليه ، حتى بلغ عدد حجراته ١٤٤١ حجرة وقاعة ، (صدق أو لا تصدق !) ، ثم اتخذته مقرها الدائم طيلة مدة حكمها بعد ذلك - من سنة ١٧٤٩ الى سنة ١٧٨٠ - جاعلة له نفس المكانة التى كانت لقصر « فرساى » بباريس ..

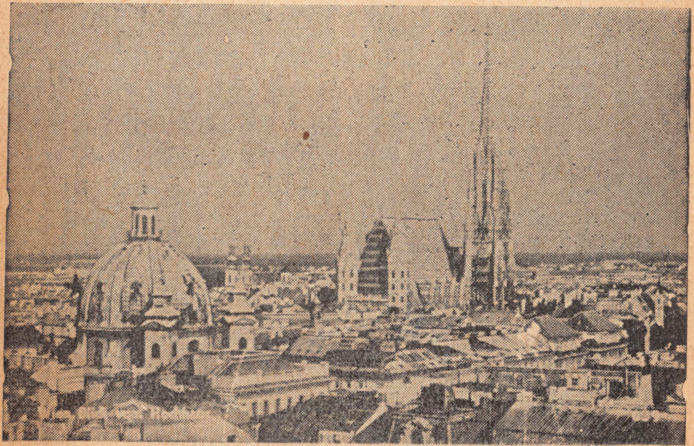
وحين غزا نابليون النمسا ، اتخذ القصر مقرا لقيادته ، مرتين : فى سنة ١٨٠٥ ، و ١٨٠٩ . وبعد ان نفى ودالت دولته انتقل اليه ابنه « النسر الصغير » حيث عاش مع امه الاميرة النمسوية « مارى لويز » الى ان مات بمرض السل فى سنة ١٨٣٢ .. وفى سنة ١٨٣٠ ولد فى القصر الامير « فرانز جوزيف » ، الذى حكم النمسا بعد ذلك نحو سبعين عاما (من ١٨٤٨ - ١٩١٦) ، وقد مات فى القصر ذاته فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩١٦ . وفى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ - يوم توقيع الهدنة ، بعد الحرب العالمية الاولى - وقع خليفته الامبراطور « كارل » وثيقة التنازل عن العرش ، فى « القاعة الزرقاء » بالقصر .. فأسدل الستار بذلك على مجد اسرة «هابسبورج»



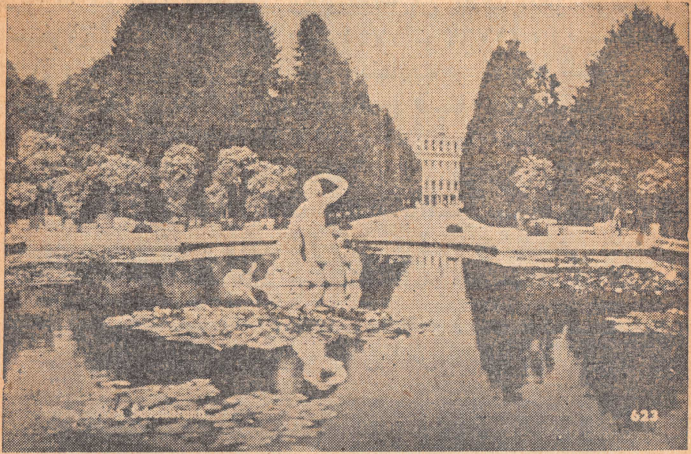
« النسر الصغير » ، ابن نابليون

التى حكمت النمسا نحو ستمائة وخمسين عاما (من ١٢٧٣ الى ١٩١٨) !

وأخيرا ، فى سنة ١٩٤٥ - قبل نهاية الحرب العالمية الثانية - ألقت الطائرات الامريكية ٣٠٠ قنبلة على قصر شونبرون ، على ان أكثرها سقط فى الحدائق والافنية فلم يصب القصر ذاته - لحسن الحظ - بغير اضرار طفيفة ، تم اصلاحها بعد انتهاء الحرب · وقد اعدت بلدية (فيينا) جميع التسهيلات لزيارة القصر ، ففضلا عن اتوبيسات السياحة الفاخرة توجد أربعة خطوط للترام تؤدى الى مقربة من القصر، (هى خطوط ٥٢ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠) ، ولا يحتاج الراكب حين يهبط منها الى أكثر من عبور قنطرة القصر المحلاة بتماثيل الاسود و «ابى الهول» ·· ثم يجد نفسه يجتاز بوابة القصر



منظر عام لجانب من مدينة فيينا

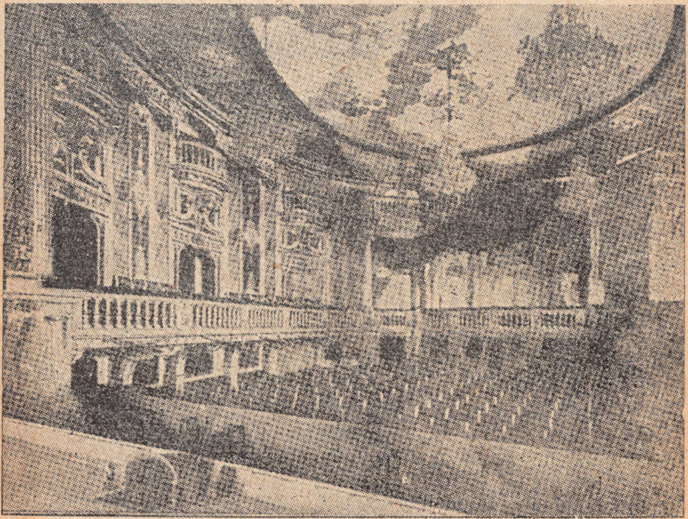


تمثال خلاب يتــوسط البحيرة فى حدائق قصر « شونبرون » الامبراطورى ، بفيينا

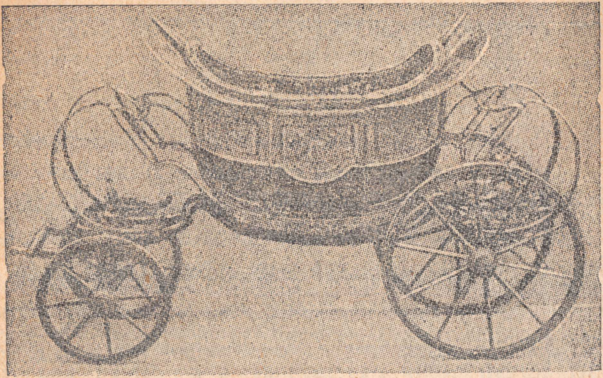
الحديدية الضخمة ، التى تقوم على جانبيها مسلتان يعلو قمة كل منهما تمثال من النحاس المذهب يمثـل النسر الذى يرمز الى امبراطورية نابليون ! ٠٠ ثم يلى البوابة فناء القصر الفسيح أو « ساحة الشرف » التقليدية ، التى كان نابليون يستعرض فيها جيوشه الظافرة ٠ والى اليمين واليسار ست نافورات مزينة بالتماثيل المنحوتة بيد أقدر الفنانين ، تمثل الثلاث اليمنى منها انهار « الدانوب » و « الاين » و « آلاينز » ٠٠ والثلاث اليسرى مقاطعات (غاليسيا) و (لودوميريا) و (ترانسلفانيا) ٠٠ وحول الفناء المذكور يقع بناء القصر المشيد على شكل « ثلاثة اضلاع » من مربع ، أو مبنى اوسط يتفرع عنه جناحان ٠ وفى الركن الشمالى الغربى يقع « مسرح » القصر ـ الذى ترى

صورته مع هذا الكلام ـ **وهو تحفة من تحف الفن الرفيع ، استغرق تشييدها ١٩ عاما** (من ١٧٤٤ ـ ١٧٦٣) ، **ويستخدمها الآن المخرج الشهير « ماكس رينهارت » كمعهد للتمثيل . ويعتبر المسرح المذكور أقدم مسارح فيينا ، وقد شهد عددا لا يحصى من الحفلات الباذخة التى مثل فيها اشهر فنانى ذلك العصر أمام اباطرة النمسا العظام وضيوفهم من ملوك أوربا ، كما كان نابليون شغوفا أثناء اقامته بالقصر بمشاهدة الراقص الشهير « فيجانو » والاستماع الى عزف الموسيقى الايطالى « شيروبينى » ، فى المسرح المشار اليه ..**

فاذا خرجت من مسرح القصر واجتزت البوابة اليمنى ، فأنت فى طريقك الى أجمل معرض للعربات ـ الركايب ـ فى



مسرح قصر « شونبرون »



عربة الطفل ابن نابليون ، فى متحف (الركايب) بقصر شونبرون

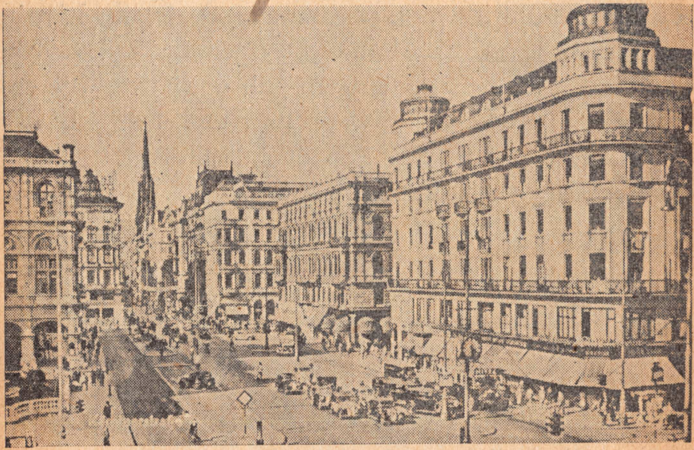
العالم أجمع !٠٠ ويضم المتحف عددا من العربات ذات الاهمية التاريخية ، منها العربة التى كان يستخدمها نابليون فى (ميلانو) ، والعربة التى استقلتها عروسه « مارى لويز » فى رحلتها الى فرنسا ، عام ١٨١٠ ٠٠ ثم مجموعة من العربات والمحفات ، والمقاعد ذات العجلات ، كانت تخص الامبراطورة « ماريا تيريزا » ٠ ومن بين عربات الاطفال ، العربة التى كان يتنزه فيها ابن نابليون فى طفولته ، فى حدائق (التويليرى)

مأساة امبراطور !

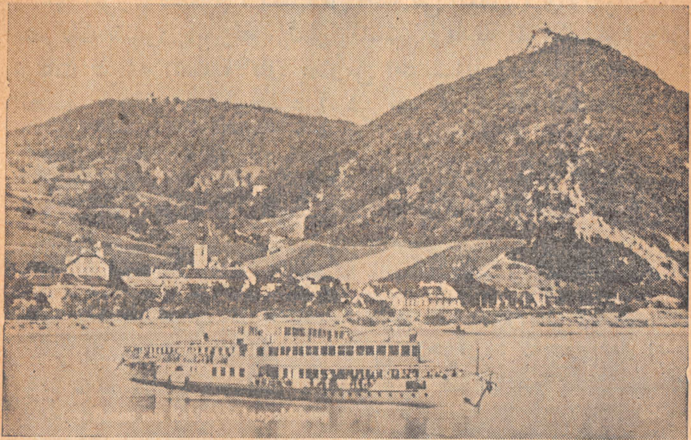
◆ **أما** المبنى الأوسط من القصر ففيه ٤٤ قاعة ، هى المفتوحة الآن للزائرين ، وأجدر تلك القاعات بالزيارة ـ نظرا لأهميتها التاريخية وضخامة الاحداث التى اقترنت ذكراها بها ـ هى التى يتألف منها جناح الامبراطور « فرانز جوزيف » ، ثم جناح زوجته الامبراطورة اليزابيث ٠٠ فتعال نمر بها مر الكرام ـ وسأتجاهل ، مضطرا ، الاشارة الى مئات اللوحات

الفنية التى لا تقدر بمال ، والتى تزين جدران جميع القاعات وسقوفها :

فهذه غرفة مكتب الامبـــراطور « فرانز جوزيف » ، التى عاصرت اخطر الاحداث التى مرت بها النمسا خلال ٦٨ عاما ، وفيها كان يدرس شؤون الدولة ويوقع الوثائق والمراسيم ٠ **وهى تتميز بالبساطة التى لا تتناسب بحال مع مكانةالامبراطور والمجد الذى بلغته البلاد فى عهده ٠ بل ان تلك البساطة ـ الى حد الزهد ـ التى كانت طابع الامبراطور فى كل تصرفاته ، تبدو بصورة صـــارخة فى القاعة التالية وهى غرفة مخدعه ، حيث نرى فراشا متواضعاضيقا ، اشبه بسرير « سفرى » ، من فرط خلوه من أى زخرف أو زينة !٠٠ على ان الفراش المذكور يروى مأساة جانب من الحياة الخاصة للامبـــراطور المذكور :**



شارع « كارنتنير » بعاصمة النمسا ، وهو مقسم الى ثلاثة شـــوارع متوازية ، واربعة ارصفة !



سفينة من سفن السياحة تشق « الدانوب »

فبعد ستة اعوام من ارتقائه العرش ، تزوج من الارشيدوقة « اليزابيث » ، من نبيلات بافاريا ٠ ورغم ان زواجهما كان « زواج حب » ، ورغم انهما رزقا اربعة اطفال – فى الاعوام الاولى من حياتهما الزوجية – فان هذه الحياة المشتركة لم تلبث ان اصطدمت بالغيرة الشعواء والوقيعة المستمرة من جانب حماة الزوجة ، التى راحت تبذر بذور الخلاف والشك بين الزوجين السعيدين ، بغير هوادة ، ودون ما ملل ٠٠ حتى افلحت فى ان تسمم عيشهما وتلجىء الزوجة الى ان تهجر القصر ، بل تهجر فيينا والنمسا بأسرها ، لتقضى بقية حياتها التعسة جائلة بين بلدان أوربا كالشريدة ، آونة فى ايطاليا ، وآنا فى الريفيرا ، أو باريس ، أو اليونان ٠٠ الى ان لقيت مصرعها المفاجىء فى جنيف بسويسرا ٠٠

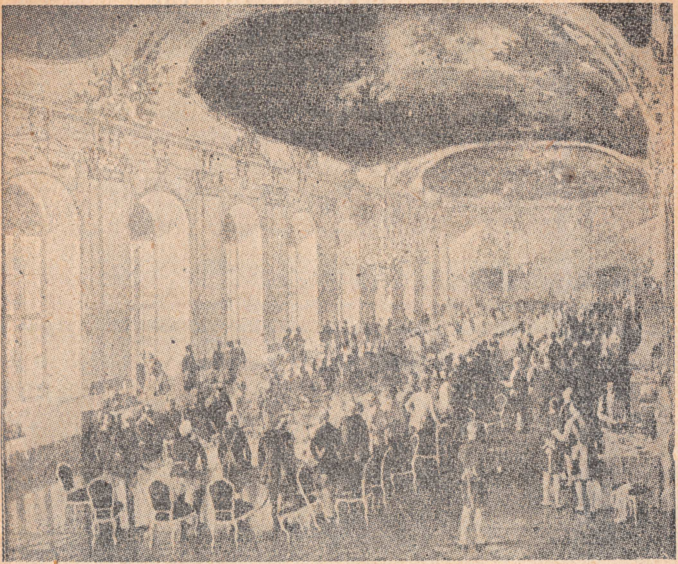
أما الزوج المكلوم ، فقد دفن همه فى العمل ، والانكباب على تصريف شؤون الدولة ، لعلها تنسيه وحدته الموحشة ! وفى اوقات فراغه القليلة كان يمارس احيانا رياضته المفضلة : الصيد . ولكن هل وجد عزاء عن حبه ، فى كافة مظاهر المجد البراقة التى احاطت بعرشه ؟ لقد سعت الملكة فيكتوريا فى قمة عظمتها الى كسب وده ، وصار ابنها الامير ادوارد يتملقه .. وكذلك فعل امبراطور فرنسا « نابليون الثالث » وزوجته « أوجينى » ، وساد السلام والأخوة علاقته بالاسرة المالكة الالمانية بعد سقوط « بسمارك » .. ولكن هيهات ان يدخل ذلك كله السلوان على القلب الحزين !.. بل ان القدر كان يدخر للامبراطور العظيم مزيدا من الاحزان : ففجع بفقد ابنه وولى عهده الامير رودلف ـ الذى وجد صريعا مع عشيقته



الأمير « رودولف » ولى عهد النمسا الذى وجد صريعا فى « مايرلنج »



البارونة « ماريا فيسيرا » ، عشيقته التى ما يزال لغز مصرعها معه غامضا !

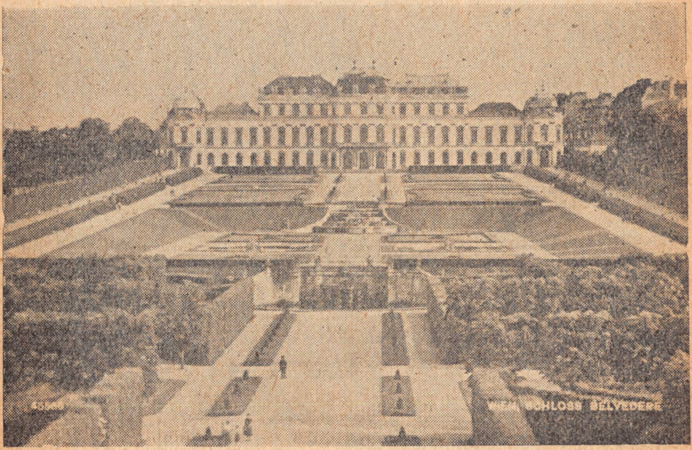


لوحة للرسام « فريتز لالمان » تمثل مأدبة فاخرة أقامها الامبراطور فرانز جوزيف فى القاعة الكبرى بقصر شونبرون

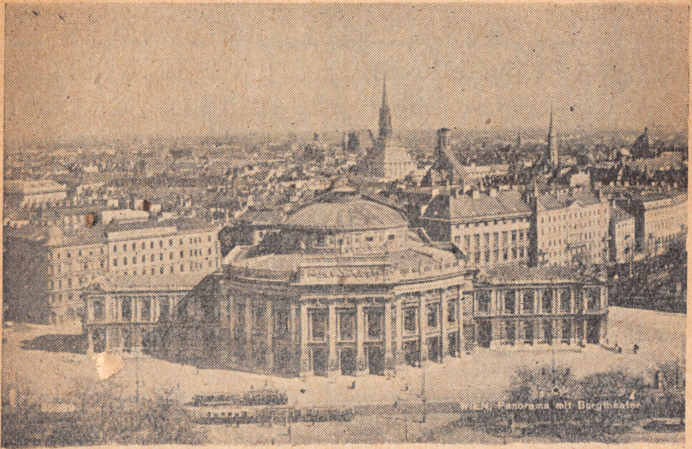
البارونة « ماريا فيسيرا » فى كوخ بضاحية (مايرلنج) القريبة من فيينا ، وما يزال لغز مصرعهما غامضا حتى اليوم ! - ثم جاء حادث مصرع زوجته ، الذى عصر قلبه وادماه ، رغم انها كانت قد اضحت « غريبة » بالنسبة اليه .. ثم لم تكفه هاتان الفجيعتان ، فتلتهما فجيعة ثالثة فى اخريات ايامه ، حين قتل ابن اخيه ووريث عرشه الامير « فرانز فرديناند » مع زوجته بمدينة (سراييفو) بالصرب .. وهى الجريمة التى كان السبب المباشر فى اندلاع نار الحرب العالمية الاولى !

القاعة التى عزف فيها « موزار ! »

• **ولنعد** من هذا الاســـتطراد لنتم طوافنا بقاعات قصر « شونبرون » ٠٠ فنغادر مخدع الامبراطور ذا الفراش الضيق المتواضع ، الى جناح الامبراطورة ـ زوجته ـ وقد حلى بلوحات لعدد من الاطفال ذوى الوسامة والعذوبة ، كأنما اجتلابا لتلك الوسامة فى نسل الزوجين ، على ما تقول الخرافات !٠٠ فاذا فرغنا من جناحى الزوجين ، مررنا بقاعة « مارى انطوانيت » ، التى كانت تقطنها قبل زواجها من لويس السادس عشر ورحيلها الى فرنســـا ٠٠ **ثم قاعة المرايا ، حيث عزف الطفل النابغ « موزار » ـ وهو فى الخامســة من عمره ! ـ أمام الامبراطورة ماريا تيريزا ٠٠ ثم بضع قاعات لاستقبال الزائرين ، تليهـا « القاعة الصينية » ، المحلاة بابدع نقوش الفن الصينى ٠٠ وفى ركن منها باب سرى يمكن ان تنفذ منه الى الداخل مائدة حافلة**



قصر « بلفدير » ٠٠ قصر آخر من قصور اباطرة النمسا



منظر عام للمدينة ، وفى المقدمة المسرح الاهلى - الامبراطورى سابقا - الذى يجرى تجديده الآن بعد أن التهمته نيران الحريق فى سنة ١٩٤٥

بالطعام والشراب ، حين تكون الامبراطورة منهمكة فى اجتماع خاص مع وزرائها لا تحب ان يقطعه كل حين دخول الخدم وتطفلهم !

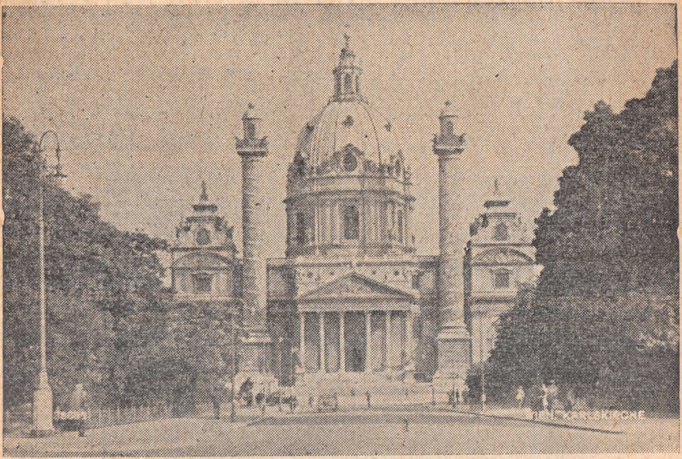
ثم ندخل « القاعة الزرقاء » ، التى وقع فيها الامبراطور كارل - كما اسلفنا - وثيقة تنازله عن العرش لاعضاء حكومة الجمهورية الجديدة .. ومنها ندلف الى قاعة مكتب نابليون (أثناء احتلاله لفيينا) .. ثم مخدعه الذى مات فيه ابنه « النسر الصغير » - وقد نام فيه فيما بعد ملك انجلترا « ادوارد السابع » وقيصر المانيا « غليوم الثانى » أثناء زيارة كل منهما للنمسا - **وتفضى بنا هذه القاعة الى قاعة « المليون » ، (وقد سميت هكذا لأن نفقات نقشها وزينتها بلغت مليون (فلورين) من الفضة ! .. وتغطى جدران هذه القاعة كنوز من التحف الدقيقة**

ـ « المينياتير » ـ الفارسية والهندية ، التى حصلت عليها الامبراطورة « ماريا تيريزا » من (القسطنطينية) ٠٠ والتى تكاد لا تقدر بمال ، نظرا لندرتها فى اوربا ٠ هذا فضلا عما تزخر به القاعة من نقوش خارقة الجمال ، فى السقف ، والمدفأة ، و «الباركيه» ٠٠ الى جانب المرآة الخلابة ، والشمعدانات الثمينة ، والتمثال النصفى للأميرة « مارى انطوانيت » الذى يزين ركن الحجرة ، وهو من الصينى الثمين ، ويمثلها فى سن السادسة عشرة ٠ (ومما يذكر ان جميع محتويات هذه القاعة قد فكت ونقلت الى قبو سحيق اثناء الحرب العالمية الاخيرة ، خشية اصابتها بقنبلة فى غارة جوية !)

فاذا فرغنا من هذه القاعة التى تبهر العين ، انتقلنا الى « قاعة الافطار » ، الخاصة بوالدة الامبراطور « فرانز جوزيف » وأهم



دار الاوبرا الفخمة بعاصمة النمسا ، وقد أعيد تجديدها أخيرا وافتتحت فى الشتاء الماضى ، فصارت تكاد تضارع أوبرا (باريس)



كنيسة كارل ، بعاصمة النمسا

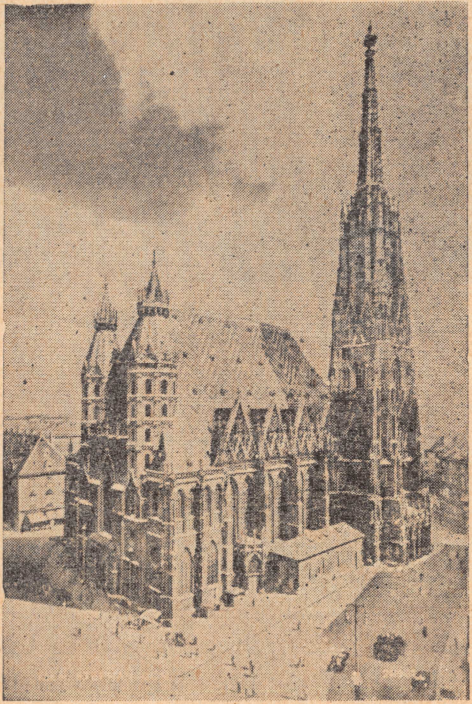
محتوياتها « قناع الموت » الذى صب على وجه ابن نابليون على أثر وفاته ٠٠ ثم عصفوره الصغير المحنط الذى كان شغوفا بتدليله

ويطول بى المقام لو اشرت – مجرد اشارة – الى كل قاعة من قاعات القصر الاخرى ، ناهيك بمحتوياتها ، لذلك اكتفى بعد ما سبق بقاعة اخيرة نختتم بها جولتنا ، هى قاعة «الجوبلان» ، وهى صالون فاخر نسج على كل مقعد من مقاعده الاثنى عشر رسم رائع يرمز الى شهر من شهور السنة !

والآن هيا بنا نغادر القصر الذى صنع بين جدرانه تاريخ النمسا – بل تاريخ « أوربا » ، الى حد كبير – خلال سبعة قرون ٠٠ ولنلم الماما سريعة بأهم معالم فيينا الاخرى ، قبل ان نتغلغل – فى الفصل القادم – الى صميم الحياة المرحة فى

العاصمة العريقة ، ثم نخرج فى رحلات جميلة الى اشـهر ضواحيها الخلابة : كالينبرج ، سمرنج ، جرينتزج ، مايرلنج ، ثم « غابات فيينا » التى خلدها الموسيقى الخالد « شتراوس » فى لحن « الفالس » المشهور بهذا الاسم ٠

كاتدرائيـة القـديس « اسـطفان » : عـلى أثر



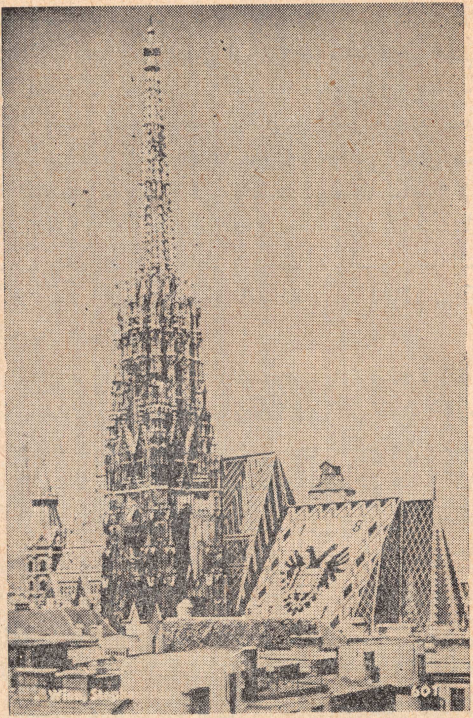
كاتدرائية القديس اسطفان ، أجمل وأشهر كنائس فيينا

هبـوطى (فيينـا) ، قال لى أحـد الأدلاء من أهلها : « ان السائح الذى يبغى ان ينفذ مباشرة الى قلب فيينا ، ويشـعر بخفقات قلبها النابض ، ينبغى ان يبدأ بزيارة الكاتدرائية العظيمة التى عاصرت تاريخ المدينة منذ نحو ثمانية قرون . والكاتدرائية التى عناها بقوله ، والتى ترى صـورتين لها فى هذا الفصل ، بدىء فى تشـييدها عام ١١٣٧ ، ثم احترقت عام ١٢٥٨ .. فأعـاد بناءها ملك بوهيميا المدعـو « أوتوكار » ـ وهو الذى احاط (فيينا) بأسوارها التى يطلق على موقعها الآن « الحلقة » ـ أو الدبلة ، أو الخاتم ـ كناية عن احاطتها بالمدينة كالدائرة !

ويبلغ ارتفاع برج الكنيسة المشهور ، الشبيه «بالدانتللا» ، ٤٤٨ مترا . وقد تم تشييده عام ١٤٣٨ ثم جدد بناؤه عـام ١٨٥٩ . وهو يضم الجرس الضخم الذى صنع من سبيكة ١٨٠ مدفعا خلفها الاتراك وراءهم اثناء انسحابهم فى سنة ١٦٨٣ .. وفى الكاتدرائية المذكورة ٣٨ مذبحا من المرمر ، وعدد كبيـر من النوافذ ذات الزجاج الملون البديع النقش .. الى جانب قبور بعض ملوك النمسا وامرائها القدامى ..

قصر « بلفدير » : (ويشغله الآن متحف فنون القرن التاسع عشر) ، وقد شيد فى المدة بين سنتى (١٦٩٣ ـ ١٧٢٤) ، ليكون مقرا صيفيا لأمير سافوى المدعو « يوجين » ، ثم صـار فيما بعد مقرا لولى العهد الذى قتل فى الصرب قبيل الحـرب العالمية الاولى . ويمكن دخول حدائق القصر من نهاية شارع « يوجين » ، ومنها يرى منظر رائع للمدينة والتلال الواقعة فى ضواحيها ..

دار البلدية : وهى تحفة معمارية شيدت على الطراز القوطى (من عام ١٨٧٥ الى ١٨٨٣) ، وبها قاعات رائعة للاستقبال والحفلات ،



برج كاتدرائية القديس اسطفان ، وتتجلى فى هندسته روعة الفن ، حتى ليبدو شبيها بالدانتللا !

فضلا عن الافنية الفسيحة الواقعة بين أجنحة الدار ، والتى تقام فيها حفلات موسيقى سيمفونية كل اسبوع

وفى العدد القادم نواصل زيارة بقية معالم (فيينا) وضواحيها الخلابة .

EVA PERON ايفا بيرون

هل كانت شيطانة ٠٠ أم قديسة ؟

◆ احتلت انباء الثورة التى قامت فى (الارجنتين) مكان الصدارة فى الصحف خلال عدد من ايام الشهر المنصرم ٠٠ وعلق الكثيرون من المراقبين السياسيين الدوليين على هذه الاحداث بأن المقعد قد اهتز تحت «بيرون» ديكتاتور الارجنتين ، بعد ان ظل متربعا عليه تسع سنوات ٠٠ وذهب البعض الى ان وفاة «ايفا» ــ زوجة الديكتاتور ــ هى التى ذهبت بتوازن المقعد ٠٠ فمن هى «ايفا» هذه التى كانت سر استقرار سلطان زعيم دولة ، والتى زار قبرها منذ ماتت ــ منذ نحو ثلاث سنوات ــ سبعمائة الف شخص !٠٠ وبلغ عدد من اغمى عليهم أو أصيبوا بجراح يوم جنازتها ٣٩٠٠ شخص، قضى ١٦ منهم نحبهم ؟

ان الفصل الذى أقدم لك فيما يلى ترجمة كاملة له ، وقد أورده كاتبه « دونالد روبنسون » ضمن فصول كتابه « أعظم شخصيات عام ١٩٥٣» ، يروى الكثير من المعلومات عنها ، وان شاب لهجته تحامل ظاهر ، يتناقض مع ما اظهره شعبها من حزن نادر المثال عليها منذ وفاتها ، ومع ما روته البرقيات من انباء ثورة الجماهير يوم تشييع جنازتها على شابين اتهما بتحدى عواطف الرأى العام، لان احدهما ضحك فى الشارع بصوت مسموع ، والآخر لم يرتد رباط رقبة أسود !

مواهب ٠٠ بلا مبادىء !

◆ لم تكن البراعة فى استثارة الغوغاء ، سوى واحدة من المواهب الملتوية، الماكرة، التى جعلت من « ايفا دوارت بيرون » أعظم نساء أمريكا الجنوبية وأشدهن دهاء !٠٠ ومن المواهب الاخرى التى رزقتها : عقل جبار ، كان يحسب ويدبر فى دقة ــ ودون ما اشفاق او رحمة ــ وارادة حديدية ، وعزيمة لم تكن تهن او تلين حتى تحرز ما ارادت ، فى الوقت الذى كانت تريده فيه !٠٠ وفعلا ، لم ترع «ايفا» مبادىء خلقية ، او ادبية ، او مادية فى سبيل احراز غاياتها ٠٠ فكانت لها السيطرة التامة على حياة ، وحريات ، ومقادير ١٧ مليون نسمة ٠٠ هم مجموع سكان (الارجنتين) !

ابنة غير شرعية !

◆ وماضى «ايفا» محوط بالغموض ، رسميا ٠٠ فقد كان ــ ولا يزال ــ

محرما على موظفى الحكومة ان يتحدثوا عنه ‥ ومع ذلك فقد تسربت تفصيلاته، وعرف العالم انها ولدت فى مدينة (لوس تولدوس) بالارجنتين فى ٧ مايو سنة ١٩١٩ ـ وان ظلت تزعم اثناء حياتها انها من مواليد سنة ١٩٢٢ ـ وكانت امها ابنة حوذى ‥ اما ابوها فكان يملك مساحة صغيرة من الارض ، وكانت له زوجة شرعية هجرها حين انجبت له عشيقته هذه الابنة غير الشرعية !

ومنيت «ايفا» بطفولة تعسة ، لا للفقر الذى كان يحوطها فحسب ، وانما لانها كانت أيضا منبوذة من لداتها واندادها من الاطفال ، بسبب نسبها الشائن‥ حتى اذا بلغت السادسة عشرة من عمرها ، هجرت المدرسة وسافرت الى « بونس ايرس » ، كى تسعى لاعتلاء « خشبة المسرح » ‥ وفعلا ، استطاعت «ايفيتا» ان تصبح ممثلة ، وقيل بل مطربة ‥ ومع انها لم تكن ذات مواهب فنية خارقة ، الا انها كانت ذات جمال فتان ، وكانت تعرف كيف «تتصيد» الاصدقاء من ذوى المراكز الهامة !‥ وكان من هؤلاء الاصدقاء ، «كولونيل» ارمل طويل القامة ، مليح الطلعة ، يكبرها بأربع وعشرين سنة ، هو «بيرون»!‥ وكان يومئذ بطل السيف فى الجيش الارجنتينى

يعتنق الفاشية ‥ ويقلب نظام الحكم !

◆ وقد قدر له بعد ذلك ان يكون ملحقا عسكريا بسفارة بلاده فى ايطاليا ـ قبل الحرب العالمية الثانية ـ فأصيب خلال اقامته هناك بعدوى الفاشية ٠ومن ثم لم يكد يعود الى بلاده حتى جمع حوله جماعة من ضباط الجيش الميالين للنازية ، وفى سنة ١٩٤٣ قام بانقلابه السياسى واقام حكومة جديدة ، قنع هو فى البداية بان يكون وكيلا لوزارة الحربية فيها ، ثم لم يلبث ان جعل نفسه وزيرا للحربية ونائبا لرئيس الجمهورية !‥ وسرعان ما انتقلت صديقته «ايفيتا» ـ ولم يكونا قد تزوجا بعد ـ الى أحد طابقى القصر الانيق الذى كان «بيرون» يشغل طابقه الآخر !

وعمد «بيرون» لتعزيز موقفه الى بث انصاره فى نقابات العمال ليسيطروا عليها ، كما قام بحركة اصلاحية كبيرة لتحسين أحوال العمال ٠ وكانت «ايفيتا» اعظم عون له فى هذا الميدان ، اذ الفت اتحادا لفنانى الاذاعة ، واخذت تلقى الخطب فى كل اجتماع للعمال استطاعت ان تنفذ اليه ، وسرعان ما غدت اشهر وأحب لدى العمال من «بيرون» !‥ وقد أثبتت الايام مدى اهمية ونفع هذه المكانة: ففى خريف سنة ١٩٤٥ امر الكولونيل «بيرون» باعتقال ١٠٠٠ من خصومه ومعارضيه ، فثار الرأى العام ، وبلغ من استنكاره ان اضطر «اديلميروفاريل» ـ رئيس الجمهورية ـ الى الامر بالقاء القبض على الكولونيل نفسه !

وعمدت «ايفيتا» الى حشد ٥٠٫٠٠٠ من العمال وأعضاء النقابات ، استمتهم

«الذين بلا قمصان» - تمييزا لهم عن الجماعات التى حشدها موسولينى وهتلر وفرانكو واطلقوا عليها اسماء قمصان ملونة - حتى اذا كان اليوم السابع عشر من اكتوبر من ذلك العام ، دفعت بهم الى قصر رئيس الجمهورية ، ليطالبوا باطلاق سراح «بيرون» ..

ترفعه الى منصب رئيس الجمهورية !

◆ وأفرج عن «بيرون» .. وبعد أربعة أيام ، عقد قرانه على «ايفيتا» .. فلما كان العام التالى ، فاز الزوج - بمعونة زوجته - بخمسة وخمسين فى المائة من الاصوات فى الانتخابات العامة ، وانتخب رئيسا للجمهورية !.. فعمد الى اقامة حكومة نازية فاشية ، وحمل البرلمان الارجنتينى على ان يعهد اليه بالسلطة الكاملة ، بما فى ذلك حق اعتقال وسجن اى فرد لا يبدى «احتراما» للسلطات الحاكمة .. اى له ولزوجته !.. وبهذا الحق ، كمم فاه كل صحفى جرؤ على انتقاده او انتقاد «ايفيتا» ، والغى اكثر من ١٠٠ صحيفة ومجلة ! وفرض اقسى القيود على جميع نواحى الحياة فى الارجنتين ، ولم يسمح لغير حزب سياسى واحد - هو حزبه - بحرية النشاط ..

وكانت وراء كل اعماله وتصرفاته - وامامها احيانا - «ايفيتا» !.. اذ كانت قد تولت بنفسها وزارة العمل ، واستغلتها فى استبقاء سيطرتها على «الذين بلا قمصان» .. وكان زعماء العمال الذين يعارضون سلطانها ، او يكافحون لتحرير النقابات من نفوذها ، لا يلبثون ان يختفوا !

كذلك انفردت «ايفا» بالاعمال الاجتماعية والمبرات ، اذ انشأت «مؤسسة ايفا بيرون للمعونة الاجتماعية» ، التى قامت بمشروعات للمساكن الشعبية ، ولانشاء مصحات ومستشفيات ، وملاجىء للعجزة واخرى للايتام ، ومراكز لرعاية الطفولة ، ومتنزهات ، ومتاجر جامعة رخيصة ، يجد المرء بين جنباتها كافة السلع بأزهد الاثمان .. وكانت خطة «ايفا» لتمويل هذه المؤسسة غاية فى البساطة ، فقد فرضت على جميع الموظفين ، واعضاء النقابات ، ورجال الاعمال ، ان يساهموا فى تمويلها .. وحين رفضت احدى شركات الادوية الكبرى ان تكتتب لها ، لم تتوان «ايفا» عن عقابها ، بان قضت عليها بالافلاس !.. وبهذه السياسة كان دخل المؤسسة السنوى يزيد على ٣٦ مليونا من الجنيهات المصرية تقريبا .. ولكن احدا لم يفكر فى ان يطالب «ايفا» بحساب عن هذا الدخل الجسيم ، بل لم يكن أحد ليجرؤ !.. وقد لا تكون هناك أية صلة بين هذا وبين ما بلغته «ايفا» قبل موتها من ثراء ، اذ غدت من كبار الملاك ، وصارت الناشرة لست صحف يومية كانت تصدر فى «بونس ايرس» ، والمديرة لاحدى محطات الاذاعة ، ورئيسة مجلسى ادارة شركتين صناعيتين .

العدو الوحيد .. الذى وقف فى طريقها !

◆ على أن الاحوال الاقتصادية لم تلبث ان ساءت فى الارجنتين ، وبدأ تذمر الشعب يرتفع فى صوت مسموع ، فى سنة ١٩٥٠ ، وان اعيد انتخاب «بيرون» رئيسا للجمهورية ـ بأغلبية ساحقة ـ فى سنة ١٩٥١ .. ولقد شاءت «ايفا» ان ترشح نفسها اذ ذاك لمنصب «نائب الرئيس» ، ولكن المعارضة فى الجيش كانت قد استيقظت وكشرت عن انيابها ، فاضطرت الحسناء الطموح الى الانسحاب .. وتنبأ بعض المراقبين السياسيين البعيدى النظر ، بان رئاسة «بيرون» لن تكون طويلة الاجل !..

والطريف حقا هو ان هذه المعارضة بدأت تظهر منذ أخذ المرض يغالب «ايفيتا» ، ثم لم تلبث ان اضطرت الى الاستسلام لمبضع الجراح فى عملية جراحية خطيرة فى سنة ١٩٥١ .. ولم يطل بها العمر بعد هذه العملية ، فقد قضى عليها «السرطان» فى العام التالى .. فكان العدو الوحيد الذى استطاع ان يقف فى طريقها !

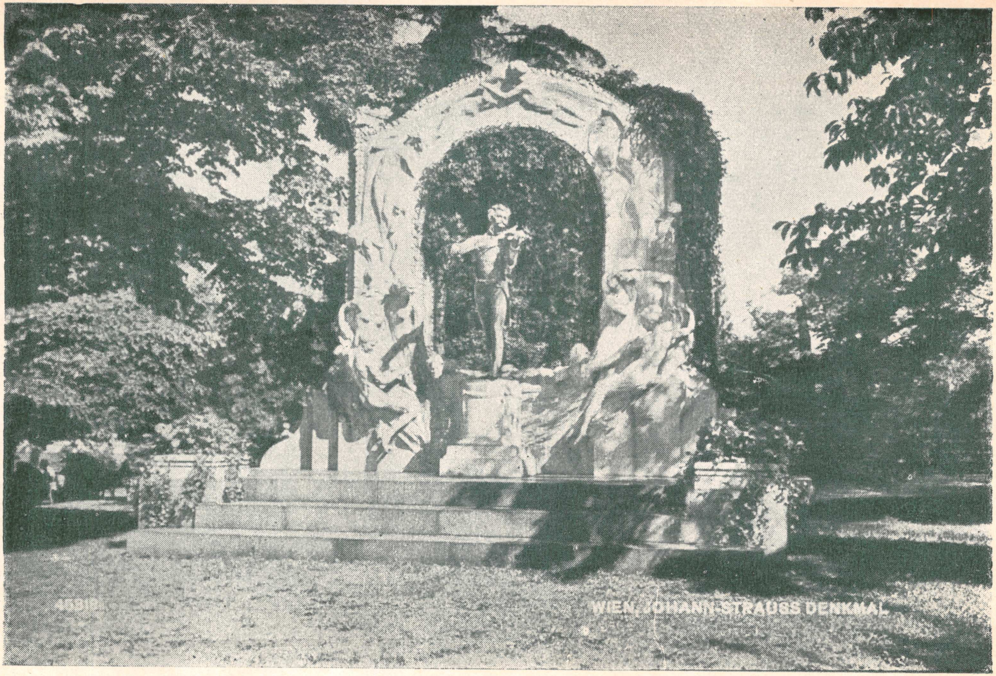
ومن الغريب ، ان نفوذها ظل يسود الارجنتين فترة طويلة بعد موتها .. اذ كانت قد سيطرت على النقابات سيطرة تطلبت اليقظة من مفعولها المخدر زمنا.. كما كانت قد احاطت زوجها برجال يتفانون فى الولاء لها ـ ولذكراها من بعدها ـ وبثت سلطانها فى كل شىء .. حتى لقد ذكرت مجلة «تايم» قبل موتها بعام ، انها كانت تصدر اوامر يومية لتوجيه الوزراء وحكام الاقاليم ورجال البرلمان !.. وكانت تنظم شئون الحزب السياسى المسيطر على مقادير البلاد ، وتدير الحزب النسائى الذى انشأته ، وتوجه الاتحاد العام للعمال .. الخ .

ولكنها فى غمرة هذه المهام الخطيرة ، لم تنس انوثتها وجمالها .. بل كانت تنفق اكثر من ١٥ الف جنيه على الازياء ومستحضرات الجمال الباريسية ، وكانت تستورد كميات كبيرة من العطور الفرنسية ، وتمتلك أكبر مجموعة من الحلى والمجوهرات قدر لامرأة ـ بعد كليوباترا ـ أن تمتلكها !

ومع ذلك فان حياتها ـ وكذا حياة زوجها ـ كانت حياة شاقة ، اذ كانا يستيقظان فى ساعة مبكرة ، فيعكف «بيرون» على اعماله الرسمية .. وتنهمك «ايفا» فى مهامها غير الرسمية : من القاء الخطب ، والخدمات الاجتماعية ، واغراق الفقراء فى خيراتها ـ لتضمن تعلقهم بها وبزوجها ـ وسماع شكايات الاوفياء من الانصار .. وكانت لا تفتأ تدعو الشعب الى تمجيد زوجها وحبه ، حتى لقد وصفته فى خطبة القتها فى سنة ١٩٥١ بانه : « شمسنا وهواؤنا وماؤنا وحياتنا» !.. ومع ذلك ، فما كانت لتتورع ـ لو طال بها الاجل ـ عن ان تطيح به لتمسك بيديها أزمة الحكم !.. كانت تعزز مركزه تدعيما لمركزها ، فلما ماتت ، ظل اثر كفاحها زمنا ، ثم بدأ ينقشع .. وكانت الناحية الوحيدة التى أهملتها «ايفا» هى مصدر اليقظة الاولى : الناحية الروحية والدينية !



دار البرلمان ، ودار البلدية : تحفتان من تحف فن المعمار ، يطلان على أحد ميادين (فيينا) الخلابة



تمثال الموسيقى النمسوى « يوهان شتراوس » ، وقد شيد حوله هذا الصرح الفاخر فى احدى الحدائق العامة بعاصمة النمسا



قصة مصرية   بقلم: نجيب محفوظ

ثمن زوجة!

- ١ -

• **جلس** ينظر الى صورته فى المرآة الكبيرة ويتابع بعينيه يد الحلاق وهى تقص شعره بخفة ومهارة ، وكانت تبدو عليه آى الهدوء والغبطة كما ينبغى لشاب مثله فى أسبوعه الثالث من شهر العسل

ولا عجب فشهر العسل فى حياة الأزواج كالشباب الناضر فى الآجال المعمرة ، وقد حبته الطبيعة بألذ المتع ودفعته مهرا لحياة الزوجية .. وكان حضرة الفاضل حمدى افندى المهندس قد تزوج من ابنة أحد زملائه وأساتذته المهندسين ، وهى فتاة جميلة مهذبة سمع عنها ورأى فيها ما علقه بها ورغبه فيها .. وهو الآن يستمتع بلذة اللذاذات التى تجزى بها الطبيعة الصادعين بأمرها الداخلين فى طاعتها ..

ولاحظ المهندس – فى جلسته الهادئة المغتبطة – ان « الاوسطى » لم يكن كعادته فى ذلك اليوم ، رآه واجما والعهد به ضحوكا حبورا ! .. ووجده صامتا والعادة أن يكون ثرثارا لا يسكن له لسان .. فعجب لشأنه ، ولكن لم تواته الشجاعة على سؤاله عن حاله ، ولاذ بالفرصة الجميلة التى كفته مشقة ثرثرته وشقشقة لسانه ، وتغاضى عن شذوذه حتى انتهى من عمله ، فقام واقفا ولم ير حرجا فى ابداء ملاحظاته .. فسأله قائلا وهو يعقد رباط رقبته :

– مالك صامتا واجما كأنك لا تجد ما تقوله ؟

وبدا على الرجل الارتياح لمفاتحة المهندس له بذلك السؤال . وكان يرغب فى الكلام حقا ، وتلح عليه الرغبة الحاحا شديدا ، ولكنه لا يدرى كيف يلج الموضوع ، ورأى « زبونه » كاد ينتهى من ارتداء ملابسه فأشفق من ضياع الفرصة وقال :



ـ الحق يا سيدى ان لدى كلمة أريد أن أقولها ولكن ..

وتوقف عن الحديث .. فازداد عجب الشاب وسأله باهتمام :

ـ ولكن ماذا ؟

ـ ان بعض الظن اثم ، وكثيرا ما يخطىء الانسان فى تقديره ، والحق أنى أدمت التفكير طويلا وقلبت المسألة على جميع وجوهها فرأيت أن الواجب يقضى على بمصارحتك بظنونى مهما كانت الاحتمالات والعواقب !

وكان الشاب قد انتهى من عقد رباط رقبته وارتداء جاكتته وطربوشه ، فدنا من الحلاق وحدجه بنظرة اهتمام وانشغال وقال :

ـ ان كنت ترى حقا أن الواجب يقضى عليك بمصارحتى فما معنى التردد والتلعثم ؟

فتنهد الرجل وقال :

ـ حسن يا سيدى .. اعلم انى لاحظت أمورا ..

ـ ... ؟؟

ـ من منذ اسبوعين أرى شابا يتردد على العمارة التى تسكن فيها كل صباح بعد الساعة الثامنة مباشرة !

فزوى الرجل ما بين حاجبيه وقال باستهانة :

ـ نعم ... ؟

ـ لقد لفت نظرى بهيأته ومواظبته فشغلت فراغ الصباح

بمراقبته ولاحظت أنه يحضر من شارع عاصم حوالى الساعة السابعــة ويأخذ مكانه فى مقهى النجمة حتى اذا غادرت البيت وذهبت الى الوزارة يدفع ثمن قهوته ويترك المقهى الى العمارة رأسا ..

وكان المهندس ـ على شبابه ـ رزينا ثابتا بمنجى أمين من الرعونة والطيش ، فعض على شفته السفلى كعادته كلما ارتبك أو أخذ .. وكأنما أراد أن يغالب القلق الزاحف عليه فسأل بلهجة الغاضب :

ـ ما الذى تعنى ؟

فاصفر وجه الحـلاق وندم على خوض هذا الحديث الأليم ولكنه لم ير بدا من الاستمرار فقال :

ـ انى أرجو الله أن أكون مخطئا يا ســيدى ، بل انى لا أتمنى على الله من شىء كأن يكشف عن وجه الخطأ فى جميع ظنونى .. ولقد ترددت طويلا قبل أن أبثك هذا الحديث ، ولـكنى رأيت أن المصارحة مع ما تنذر به أفضل عندى من التســتر على العيب مع السلامة .. وقد كان مما أيقظ الشك فى نفسى أنى رأيته مرات يلاحظك خلسة ـ وأنت سـائر فى طريقك ـ ويرمقك بنظرات لم يرتح اليها قلبى ، حتى اذا غيبك منحنى الطريق قام بسرعة وانسل الى داخل العمارة ..

ـ ألم تره خارجا منها .. ؟

ـ رأيته مرات وقد لبث فى الداخل ساعتين أو يزيد ..

ـ ما شكله ؟

ـ هو شــاب فى مقتبل العمر ، حسن الهندام ، مخنث الهيئة ، لولا تسكعه فى الصباح لقلت انه طالب ..

ورأى الحلاق المهندس واجما صامتا ، تصرح أساريره بما يقهر نفسه من الاضطراب والقلق ، فقال بتألم :

ـ لا تأخذ بظنى يا سيدى واسلك سبيل الحكمة ، فتحقق

الأمر بنفسك ، والحق أنى غير آسف على قول ما قلت ولكنى ألعن الظروف ..

فسأله المهندس وكأنه لم يسمع قوله :

ـ هل حضر هذا الصباح كعادته ؟

ـ نعم يا سيدى

ـ ألا ينقطع عن الحضور أحيانا ؟

ـ يوم الجمعة !

فعض الشاب مرة أخرى على شفتيه ولم يزد على أن قال وهو يغادر « الصالون » :

ـ انى أشكر لك مروءتك وأرجو أن تفتح عينيك حتى أعود اليك صباح الغد

وكان البيت قريبا على قيد خطوات ، ولكنه لم يشخص اليه ـ مع أن الوقت كان ظهرا ـ وأحس فى نفسه برغبة طاغية فى المشى ، فهام على وجهه بغير هدف معين !

- ٢ -

• **كان** حمدى شابا فى الثلاثين من عمره ، يلفت الأنظار لضآلة حجمه ورقة أعضائه وشحوب لونه ، ولكن كانت تلتمع فى عينيه نظرة تدل على حدة الذكاء ، وكانت ذقنه تلتوى التواءة يعرف بها ذوو الارادات الحديدية ، وكان أخص ما يعرف به الهدوء والرزانة والبرود ، فلا يذكر أحد من معارفه أنه رآه مرة منفعلا أو متهيجا من الحزن أو الفرح .. ولكن لم يكن طبعه هذا ضعفا أو جبنا ، فانه يغضب اذا انبغى له الغضب ، ولكن له طريقته فى الغضب ، فلا هياج ولا سب ولا شجار .. وانما عقاب صارم أو انتقام مهول ، هكذا يتقدم فى حياته «كوابور الزلط» بطيئا رضيا ، ولكنه لا يقاوم ولا يبقى ولا يذر !.

وقد قال لنفسه وهو يسير على غير هدى : **يلمح الرجل الى خيانة زوجية ! خيانة زوجية فى شهر العسل !! لا شك انها أول خيانة من نوعها ، هى كالاجهاض سواء بسواء الذى يهلك الجنين قبل أن يكتمل . كيف يستطيع أن يصدق هذا ؟! بل كيف يمكن وقوعه ؟! كيف استطاع ذلك الشاب أن يشق طريقا الى بيت عرسه ؟ أم هل كان يعرف زوجه من قبل أن يعرفها هو ؟؟ مهما يكن الواقع فهو أمر بعيد عن التصديق** .. وذكر حياته الزوجية القصيرة فذكر كل سعادة وصفاء ، ومتعا لا تحصى ولا توصف ، فلم يشك فى أنه سيكشف فى غده خطأ مضحكا لن ينفك يضحك كلما ذكره ما امتد به من العمر ..

ومع هذا .. !

ومع هذا فهو لا يستطيع أن يخدع نفسه عن العاطفة الذميمة التى تقاتل فى قلبه .. عاطفة الشك المعذبة ، وهاهى ذى تتشبث ببعض الذكريات التى مر بها مر الكرام فتعرضها من جديد على مخيلته فى أطار أسود مخيف ، فلا يملك الا أن يتأملها متحيرا متفكرا : فهو يذكر كيف كانت زوجته تلقاه على أيام خطوبتهما بجمود ووجوم ، كأنها تلقى جدا لا خطيبا ! .. وكيف انها لم تحاول قط أن تفاتحه بحديث أو تشترك فى أحاديثه بحماس ، وكيف أنها كانت تقنع بالاجابات الضرورية فتلفظها فى اختصار ساسة الانجليز .. !

لقد حمل ذلك كله على محمل حسن وقال فخورا انه حياء جميل ! ويجوز أن يكون قوله حقا ، ولكن يجوز أيضا أن يكون وهما وأن يكون الباعث شيئاغيرالحياء ، من يعلم ؟ ربما كان نفورا وكراهية ، وكان ينبغى له أن يدقق ويحقق !

ويذكر أيضا أن الحال لم يتغير بعد الزواج ! فما زالت عروسه محافظة على رزانتها أو برودها ــ ولم يجر ذكر هذه

الكلمة على لسانه من قبل ـ وكم تمنى لو كانت عروسه لعوبا طروبا ، أما الآن فمن يدريه أنها ليست كذلك وأنها لا تصطنع البرود الا فى حضرته ٠٠ ؟! وا أسفاه أى شقاء وأى تعاسة !

ولم يكن حمدى خبيرا بالنساء ولا ذا حظوة لديهن ، واضطر فى عزوبته الى الاستقامة والزهد ، وقضى تلك الأيام محزونا معدوم الثقة بنفسه ، وقد ظن أن الزواج دواؤه ونجاته فاستغاث به واطمأن اليه وحمد الله على نعمته ٠٠ ولكن ها هو ذا يوشك أن يخيب فى زواجه فيفقد الأمل الوحيد فى السعادة والحياة المطمئنة ٠ وها هى ذى الزوجة تكاد تتكاشف عن امرأة ككل النساء اللاتى لم يفز منهن بحظوة ٠٠ فأى شقاء وأى تعاسة !

على أنه لم يستسلم للتشاؤم كل الاستسلام ، ولم ينغمس فى اليأس كل الانغماس ، وتعلق بالأمل الباقى له وهو أن يكون الأمر غير ما قدر والظن غير ما أساء ٠٠ وتمنى لو يستطيع أن يبدد هذه السحب القائمة الغاشية على قلبه ، وأن يسترد بعض ما كان له من الصفاء والغبطة ٠٠

على هذا النحو كانت تؤاتيه القدرة على تحليل أحزانه وأفراحه ، ولكنه كان اذا انتهى الى عزم عرف كيف ينفذه بحذافيره ، لا يرده عن غرضه راد !

وكان قد قطع شوطا كبيرا وبدأ يشعر بالتعب، فعاد أدراجه الى مسكنه محمى الرأس ملتهب العواطف ، ودخل الى شقته وهو يتكلف الابتسام والهدوء ٠٠ فرأى عروسه جالسة الى المائدة والغداء جاهز ، والأطباق مصفوفة ، وسمعها تقول له عاتبة :

ـ اهكذا تأخرت عن موعدك ؟

فنظر فى وجهها نظرة سريعة لانه خشى أن تقرأ فى عينيه ما يدعوها الى التساؤل ، وجلس الى جانبها وقبلها أيضا كما

ينتظر من شاب مثله فى شهر العسل ٠٠ ثم قال معتذرا :

– مررت فى طريقى بالحلاق وكان الصالون مزدحما ٠٠

– ٣ –

◆ **وفى** صباح اليوم التالى خرج فى موعده المعتادوسارفىطريقه المعهود ٠ ولدى مروره بمقهى النجمة قاوم رغبة شديدة نازعته الى تصفح وجوه الجالسين بها ، وخيل اليه أن عينين براقتين ترقبانه بحذر وسخرية ٠٠ فغلى الدم فى رأسه وخضب وجهه الشاحب باحمرار الخجل والعار ! ولم يذهب الى وزارته ولكن دار دورة فى الشوارع القريبة وكان يخرج ساعته من آن لآن وينظر اليها جزعا مضطربا ، فلما دارت فى منتصف التاسعة عاد أدراجه حذرا متيقظا حتى انتهى الى صالون الحلاق وأقبل داخلا ، وكان خاليا الا من صاحبه الذى حياه تحية الصباح وابتدره قائلا :

– جاء كعادته وغاب داخل العمارة من ربع ساعة !

وجمد الشاب فى مكانه هنيهة لأنه أحس بأنه يقبل على دقيقة فاصلة فى حياته ستقرر حتما مصير سعادته وكرامته، فخان الهدوء أعصابه رغم صلابته وقوته ، وشعر باضمحلال مخيف ٠٠ وسمع الحلاق يقول له : « أتريد أن أصحبك ؟ » ٠٠ فآلمته عبارة الرجل وقال بحدة : «كلا» ! ثم غادر المكان بسرعة وقد محا الغضب دبيب الاضطراب الزاحف على نفسه ٠

ودخل الى العمارة وصعد السلم بخطوات ثقيلة ، وجعل يرمق باب الشقة الذى يدنو منه بعينين جامدتين وقد شل عقله عن التفكير ما يتجاذبه من الأفكار والخواطر التى تطفو على سطحه بسرعة وتغيب بأسرع مما ظهرت ، غير تاركة من أثر سوى الذهول فى النفس والحرارة فى الدماغ ٠٠ ووجد نفسه واقفا بازاء الباب ، وكان يلهث كمن جرى شوطا كبيرا ، وقلبه

يخفق بعنف ويدفع الدم الى رأسه فيدوى فى أذنيه ، وكأنه خشى على ارادته من التردد فدس يده فى جيبه وأخرج المفتاح وأولجه فى الباب وأداره بخفة وحذر ودفعه على مهل وأدخل رأسه ليلقى نظرة على الصالة ثم دخل وهو يكتم أنفاسه ورد الباب بلا اغلاق كيلا يحدث صوتا !

وكانت الصالة خالية وجميع أبواب الحجرات مغلقة ٠٠ ترى أين الخادمة الصغيرة ؟ ٠٠ وانصرف نظره بطبيعة الحال الى حجرة النوم ، وخلع حذاءه ودنا منها على أطراف أصابعه حتى صار بازاء بابها المغلق ، وانحنى قليلا ووضع أذنه على ثقب الباب وأرهف سمعه فخيل اليه أنه سمع غمغمة خافتة وأصواتا أخرى ٠٠ فذهب الشك ، بعذابه وآماله ، وسفرت أمامه الحقيقة الأليمة المخزية وقد انطفأ نور بصره ثوانى من شدة الغضب ٠٠ ولم يعد يحتمل الجمود فتراجع خطوتين وثنى ساقه وشد عليها بقوة جنونية ثم أطلقها بعنف فى الباب فارتج ارتجاجا شديدا وانفتح بحالة تشنجية ، وخطا خطوتين فاجتاز عتبة الحجرة ٠٠ **ودوت فى الحجرة صرخة مجنونة وقفز من فراش العرس جسمان عاريان : الزوجة وذاك الشاب ! ٠٠ وكانت المرأة فى حالة جنونية من الرعب ، فجسدها يرتجف ووجهها يصفر وعيناها تتسعان ، وقد سحبت اللحاف على جسمها بحركة عكسية ولبثت تنظر الى زوجها كأنما تنظر الى شيطان رهيب !**



أما الشاب فهم بالجرى الى ثيابه الموضوعة على «الشيزلنج» ولكن قدميه تسمرتا فى الأرض فجمد فى مكانه وجعل ينظر الى الزوج نظرة ذعر ويأس مميتين ومد يده اليه يتوسل وقال بصوت مرتجف كأصوات الأطفال المنتحبين : « فى عرضك ! »

ومن العجيب حقا أن الزوج لم يغشه الجنون ولم يندفع الى الانتقام كما يحدث عادة ، بل هبط عليه جمود غريب وتلبسه هدوء غامض شبيه بنكسة الخمر التى ترد المنتشى الهائج الى أقل العزم ، فلبث واقفا مكانه وجعل يقلب عينيه بين العاشقين فى هدوء قاس كأنه يشاهد منظرا بعيدا عن مشاركة وجدانه ومشاعره ..

ورأى يد زوجه وهى تسحب اللحاف على جسمها ، فسألها ببرود قاتل :

ـ أتخجلين من الظهور أمامى عارية ؟

وتحول الى الشاب ، فصاح به هذا بصوته المرتعش المحموم :

ـ الرحمة .. دعنى أرتدى ثيابى وافعل بى ما تشاء

فقال له ساخرا :

ـ هل يروقك أن تموت فى ثيابك ؟

فصاح الشاب مولولا : « الرحمة .. أنا فى عرضك »

فقال له بلهجة رقيقة :

ـ ارتد ثيابك أيها الشاب ولا تخش أذى !!

فلم يطمئن العاشق الى قوله وتوسل اليه بصوته الباكى المرتعب : « ارحمنى .. »

فقال له يطمئنه ويشجعه :

ـ ارتد ثيابك أيها الشاب ولا تخش أذى .. تقدم ، انى أعى ما أقول !

ولكنه لم يتحرك من مكانه واشتدت الرجفة بجسمه حتى خاله سيصعق صعقا ، فسار بنفسه الى الشيزلنج وأتى له

بثيابه وتحدث اليه قائلا بسخرية : « **تحب أن أساعدك على ارتدائها ؟** »

أسرع فى لهفة يحشر جسمه حشرا فى ثيابه ، فانتهى فى ثوان ٠٠ وكان شكله زريا مضحكا : فشعر رأسه المدهون بالفازلين يبرز مبعثرا من حافة طربوشه ، وأزرار بنطلونه مفككة ، والقميص يتدلى منها ٠٠ والحذاء لم ينعقد رباطه ٠٠ ولكنه كان فى غيبوبة ذاهلة فنظر الى الزوج نظرة تسليم ويأس وقال له : « أنا تحت أمرك ! »

وهز الرجل كتفيه باستهانة وقال :

ـ وماذا أصنع بك ؟ لا فائدة لى فيك ٠٠ استأذن الهانم ، واذا أذنت لك انصرف مصحوبا بالسلامة !

فألقى اليه الشاب بنظرة كأنه يقول : « لم التعذيب ؟ ٠٠ أقتلنى ان شئت ولكن بسرعة ! » ٠٠ وقد فهم معناها فهز كتفيه مرة أخرى بهزء وقال :

ـ ألا تريد أن تذهب ؟ ألم تسمع بعد ؟ أما تزال لك رغبة فيها ؟

فاشتد الارتباك بالشاب ، ورأى الزوج يوسع له الطريق فتحرك بخطوات بطيئة وهو لا يصدق ما يسمع وما يرى ٠ ولما صار بازائه أحس بيده توضع على كتفه ، فانتفض رعبا وتوقع شرا ٠٠ ولكن الرجل بادره قائلا :

ـ لا تخف ٠٠ ستذهب كما تشاء ، ولكن أين ال ٠٠ ؟ »

قال هذا وبسط اليه كفه ٠٠ فنظر اليه العاشق مرتبكا متسائلا ، فاستطرد :

ـ الثمن !

فظل الشاب ينظر اليه صامتا حائرا ، فقال الزوج بلهجة جدية :

ـ مالك ؟ ألم تحظ بوصال هذه المرأة ؟ فلم لاتدفع الثمن؟ هل تظن أن الوصال هنا بلا ثمن ؟

ـ سيدى ٠٠

ـ يالك من عاشق بخيل ! ألا تريد أن تجود بشىء ؟ بكم تثمن هذه المرأة ؟ هه ؟ أنها تستأهل ريالا فما رأيك ؟

ولما يئس من الشاب فتش جيوبه بنفسه حتى عثر على حافظة نقوده واستخرج منها ريالا ثم ردها اليه وهو يقول : « تفضل الآن فاذهب الى حيث تشاء ٠٠ »

وانفلت الشاب خارجا لا يصدق بالنجاة ، والتفت الزوج الى زوجه فقال لها : « **ارتدى ثيابك ياسيدتى واطردى عنك الرعب ، فلا خوف عليك ولا أنت تحزنين !** »

كيف استطاع أن يسيطر على عواطفه ؟ كيف أمكن أن تطيعه أعصابه تلك الطاعة العمياء ؟ هذا سر من أسرارالطبيعة يعجز عن ايضاحه البيان ، وعلى كل حال فقد انقضى ذلك اليوم كما ينقضى الكابوس الاليم ولم يشر اليه ـ بعدانقضائه ـ بتلميح أو تصريح ، ولا بخير أو شر ، ولا أجرى بسببه تحقيقا ولا أثار عنه سؤالا ! وطالعها بوجه هادىء طبيعى كأنه شخص آخر غير الزوج المطعون ٠٠ ولم ينقطع عن عمل أو يغير من عادة ، ولا كف عن أحاديثه أو فتر عن مداعباته ! ٠٠ وكان يذهب ويعود ، ويعمل ويستريح ، ويأكل ويشرب، وينام ويقوم وكأنه زوج سعيد يعاشر زوجته الحبيبة أو رب بيت مطمئن يسهر على بيته وأسرته دون أن ينغص حياته منغص أو يكدر صفوها مكدر !

وكانت المرأة فى أول عهدها بالفضيحة كالمجنونة من شدة مايعذب نفسها من الخوف والرعب والعذاب ٠٠ وقد توسلت اليه ضارعة وهى تبكى أن يطلقها ويستر عليها ! ولكنه قال لها وكأنما فقد ذاكرته : « أطلقك ! ٠٠ لم ؟ أمجنونة أنت يا عزيزتي ؟ » وأسقط في يدها ولبثت حائرة مذعورة معذبة تخشاه وتتوجس منه خيفة ويغلق عليها أمره ، فلا هو يطلقها

ولا هو ينتقم منها ٠٠ والاعجب من هذا جميعه سلوكه نحو عاشقها فى ذلك اليوم الاسود !

- ٤ -

• **ومضت** الايام طويلة ثقيلة فلم تحقق مخاوفها ولم تصدق هواجسها ٠٠ وأخذت تخف عنها وطأة الخوف وتتناسى همومها فيما تقوم به من الواجبات البيتية ، ووجدت نفسها تتفانى فى خدمته والسهر على بيته وتوفير الراحة له بحماسة الخاطىء الذى يعالج جرح ضميره بالتكفير والتعذيب ٠٠ على أنها لم تطمئن الى دعته كل الاطمئنان ، وكانت تسائل نفسها حيرى : ترى هل نسى وغفر ؟ أم هو يتناسى ويتعزى؟ أو فما الذى تنطوى عليه حياته المبهمة وابتسامته الغامضة من النيات ٠٠ ؟

ولبثا على حالهما والايام تحث السير ، وكل منهما يتظاهر بالالفة والاطمئنان ويجتر أفكاره فيما بينه وبين نفسه ٠٠ حتى كان يوم دعا فيه الزوج جميع أهله وأهل زوجه الى مأدبة غداء ، وبذل لاعدادها فوق ماتحتمل قدرته حبا وكرامة ٠ وأم بيته فى ذلك اليوم جميع أفراد الاسرتين ، نساء ورجالا ، فتيات وفتيانا ، وعلى رأسهم حماه وحماته ٠٠ فضاق البيت بالمدعوين وضج جوه بأحاديثهم وضحكاتهم ٠ وازداد سعادة بما شملهم من ود عائلى جميل ٠٠ وتشعب الحديث مناحى مختلفة فطرق مواضيع السمنة والنحافة ، والزواج والعزوبة ، وبنات الامس وبنات اليوم ٠٠ ومس السياسة حينا ، والدرجات والعلاوات فالاطفال أحيانا كثيرة ٠٠ وشارك المهندس فى الاحاديث بشهية عظيمة ، وكان بادى المسرة والبهجة عظيم الاقبال على مجاملة ضيوفه والترحيب بهم ٠٠

وقد توقف عن الكلام بغتة كأنما تذكر أمرا مهما ثم دس يده فى جيبه فأخرج ريالا ، جعل يقلبه فى يده ثم أعطاه الى حميه وهو يقول :

ـ أنظر الى هذا الريال يا عماه ٠٠ أتراه مزيفا ؟

فأخذه الرجل وجعل يقلبه بين يديه وقد اتجهت اليه الانظار من كل صوب ، ثم قال :

ـ كلا يابنى انه صحيح لا شك فيه ٠٠ هل رفضه أحد ؟

واختلس الزوج نظرة الى زوجه ، فرأى وجهها مصفرا يحاكى وجوه الموتى ٠٠ فابتسم ابتسامة غامضة وقال :

ـ لم يرفضه أحد ياسيدى ولكنى أردت أن أطمئن عليه لأنه محور قصة عجيبة قد يروقكم جميعا سماعها !

فازداد اهتمام الحاضرين ، ودل تطلعهم اليه على شوقهم الى سماع قصته ، فطلب الى حميه أن يعطى الريال الى زوجه ثم قال :

ـ ان شوشو تعرف قصة هذا الريال خيرا منى،وسأتنازل لها عن حق روايتها ٠٠٠ هيا ياشوشو قصى عليهم القصة العجيبة وهى حقيقة تفتح شهيتهم للطعام !

وانصرفت الوجوه الى الزوجة وقد تضاعف اهتمام الجميع وتوقعوا جميعا قصة شيقة ٠٠ أما شوشو فقد كانت فى حالة يرثى لها من الذعر والارتباك ، وقد جمعت قوتها المشتتة وقامت واقفة وشقت طريقا بين الجالسين الى باب الحجرة ، فاحتجوا على قيامها وحاول بعضهم منعها ٠٠ ولكنها قاومت الايدى وهى تقول بصوت خافت مضطرب : « **انتظروادقيقة ٠٠ سأعود فى الحال !**»

وولت خارجة وعينا زوجها تتبعانها بنظرة قاسية ٠٠

- ٥ -

◆ **يستطيع** القارىء أن يستنبط الخاتمة المروعة ، فانه لاشك يقرأ كثيرا فى الصحف عن اللاتى يرمين بأنفسهن من النوافذ العالية فيسقطن مهشمات مشوهات ٠٠ ولعله ، اذ يقرأ هذه الاخبار المقتضبة ، يتساءل عن أسبابها الخفية ، ويذهب به الحدس كل مذهب ، فهذا سر واحدة من أولئك المنتحرات ٠٠ وانه ليؤسفنى أن تنتهى القصة الى هذه النهاية المخزية ، ولكن ماحيلتى وقد بدأت بتلك البداية الاسيفة ؟ والحق لا تقع على تبعة بدايتها ولا نهايتها ، فهكذا يرويها بطلها المحزون الذى غدا لايفارق الحانة ليل نهار ، وكم تمنيت لو كان هو كاتبها كما كان راويها ، لأنى وأسفاه لا أستطيع ـ مهما أحاول ـ أن أبلغ بعض مايبلغ من صدق الرواية وقوة التعبير ٠



أقنعة الحب السبعة

تلخيص وتعليق : اندريه موروا

أوهام الحب

للكاتب الفرنسي مارسيل بروست

قناع الأوهام !

.. واليوم أقدم لك القناع الاخير من أقنعة الحب السبعة ، الذى تمثله قصص « مارسيل بروست » .. بعد ان قرأت معى على التوالى فى الاعداد الستة الماضية قصص : « مدام دى كليف » لمدام دى لافاييت .. و « جوليا » لجان جاك روسو .. و « العلاقات الخطرة » للجنرال دى لاكلو .. و « الاحمر والاسود » لستندال .. و « زنبقة الوادى » لبلزاك .. و «مدام بوفارى » لجوستاف فلوبير ..

الحب .. « مرض » !

◆ فى قصة « مدام بوفارى » رأينا كيف نحا «فلوبير» نحو المذهب الواقعى البحت ، ونأى بكتاباته عن المذهب الخيالى « الرومانتيكى » ، مما أثار عليه ثائرة النساء ، اللوآتى رفضن قبول المذهب الواقعى كحل دائم للمشكلات العاطفية .. فكانت تلك الثورة سببا فى اتجاه خلفاء فلوبير من القصصيين الى مزج الواقع بالحلم ، والحقيقة بالخيال ، كما فعل موباسان ، وبول بورجيه ، وأناتول فرانس .. الذين رسموا فى قصصهم صوراً عديدة للزنا بين أفراد الطبقة الراقية ، ولكن بعد أن قنعوه بالاسلوب اللبق والحصافة اللغوية !.. لكن أحدا منهم لم يبلغ مرتبة « ستندال » فى عمق التحليل وبراعة التصوير ـ وان كان موباسان قد فاق زميليه فى النزعة الانسانية وارهاف الحس ..

ثم ظهر ـ فى أواخر القرن التاسع عشر ـ الفيلسوف « برجسون » مبشرا بفلسفته الجديدة ، داعيا الفنانين الى التعمق وراء الالفاظ ، والى اكتشاف العواطف الحية التى يخفيها قناع الاسلوب واللغة .. فاستجاب كثير من الرسامين لدعوته، محاولين اختراق القشور الخارجية الى الطبيعة الحية .. كما

استجاب له من كتاب القصة قاص عبقرى ٠٠ هو « مارسيل بروست » !

وبروست يختلف عن سابقيه فى انه لا يضفى على مخلوقاته هالة من الكمال والجمال والذكاء تجعلهن جديرات بالحب ، من جانب أى رجل يقع بصره عليهن ٠٠ وانما هو يوقع الرجال فى حب نساء محرومات من المميزات التى تجملهن فى عين من يراهن !٠٠ فهو يصور فى قصصه الحب « غير » المنطقى ، أو الحب الذى لاتبرره ظروفه ٠٠ ذلك لانه يعتبر الحب « مرضا » طارئا أليما يصيب الانسان ٠٠ وكما تستطيع جرثومة صغيرة غير منظورة أن تسبب لنا حمى مرتفعة ، كذلك تستطيع امرأة تافهة عديمة المزايا والمؤهلات أن تجعلنا تعساء !

وقد صور بروست أطوار « مرض الحب » ، وأعراضه ، وعلاجه ، بدقة وبراعة منقطعتى النظير ٠٠ كما سنرى فى قصتيه اللتين نعرضهما فيما يلى :

غرام « سوان »

● **أما** القصة الاولى « غرام سوآن » فبطلها رجل مثقف مترف مرهف الاحساس يدعى « سوان » ، يقضى أكثر وقتـه مع الطبقات الارستقراطية ٠٠ ويحظى بأجمل نسائها كخليلات ٠٠ لكنه يلتقى ذات يوم فى المسرح ، بمحض المصادفة ، بامرأة تدعى « أوديت دى كريسى » ٠٠ وحين يقدمها له أحد أصدقائه ، يجدها «سوان» ذات جمال من النوع الذى لا يثير فيه أية رغبة أو اهتمام ، بل انها على العكس توحى اليه بشعور من النفور الجسمانى ! ٠٠ **ذلك ان لكل رجل «لون» من النساء يعجبه ويثير غرائزه ، وهذا اللون تتكون أوصافه ومميزاته فى ذهن الرجل ومشاعره من مؤثرات غامضة مبكرة ، أثناء طفولته أو صباه ٠٠** وقد كانت « أوديت » على عكس مايشتهى سوان ، وخاصة من



حيث كونها سـوقية متبذلة ، ينقصها التهذيب !

وبعد لقائهما بأيام ، تكتب أوديت الى سوان طالبة منه أن يأذن لها بزيارته لرؤية مجموعة تحفه الفنية !

ويأذن لهـا ٠٠ فتزوره فى منزله ٠ وفى كل مرة يراها يحس بالاكتئاب والاسف لأن هـذا الجمال الرائع ليس من النوع الذى يروقه ! وفى كل مرة تخرج من بيته يبتسم لنفسه وهو يذكر قولها له أن الايام سوف تمر بها بطيئة متثاقلة حتى يحين الموعد الذى يسمح لها بزيارته فيه مرة أخرى !٠٠ ثم يذكر لهجة القلق واللهفة والخجل التى ترجوه بها « إن لا يجعل فترة انتظارها تطول » ، وهى ترمقه بنظرة توسل وتهيب ٠٠ تروقه !

وفى تلك المقابلات الاولى تبذل أوديت محاولات كبيرة كى تجذب سوان اليها ، وكى تقدمه الى البيئة التى تعيش فيهـا والحلقة التى تتردد عليها ، وهى صالون « مدام فردوران »٠٠ وأثناء ذلك يبدأ سوان ـ بغير أن يشعر ـ يبلور شخصية أوديت فى ذهنه ، ويضفى عليها من خياله سحرا لا تملكه ٠٠ بعد أن أثر فيه اهتمامها به ، ولهفتها عليه !٠٠ وذات يوم يلحظ ـ وهو الفنان الشغوف بمعرفة الوجوه الحقيقية التى ينقل عنها أساطين الرسم لوحاتهم الرائعة ـ مبلغ التشابه الصارخ بين وجه أوديت وبين صورة مشهورة للفنان العظيم بوتيتشيللى ٠٠ ومنذ تلك اللحظة يضفى هذا الشبه على أوديت جمالا يزيدها قيمة فى عينيه !٠٠ وقد رأينا فى نظرية « ستندال » عن التبلور

الذى يولد الحب كيف تختلف الظروف التى تسبب هذا التبلور عند كل عاشق باختلاف هوايته المفضلة : « **فالرجل الرياضى تجذبه براعة المرأة فى ركوب الخيل مثلا ، أو لعب الجولف أو التنس ٠٠ والموسيقى تجذبه براعتها فى الغناء ٠٠ والسياسى تعجبه المرأة التى تشاركه ميوله السياسية ، وهكذا !** ٠٠ ولما كان سوان من عشاق فن الرسم فقد جذبه نحو أوديت أعجاب الرسام الشهير بشبيهتها القديمة التى أوحت له بلوحتـــه الفنية ٠٠ ومن ثم فهو يوبخ نفسه على اساءته تقدير جمال مخلوقة سحرت شبيهتها «بو تيتشيللى» العظيم ٠٠ ويقول لنفسه ان هذه اللهفة التى تبديها أوديت نحوه ليست بالامر التافه ، بل انها لفضل كبير منها يعز مثيله ، فهى ترضى فيه أسمى نزعاته : حبه للفن ٠٠

* * *

◆ « **وأمد** هذا الاكتشاف « سوان » بشعور جديد : مكنه من أن يرفع أوديت فى عالمه الخيالى الى مرتبة لم تكن قد بلغتها قط من قبل ، وهى مرتبة أراقت عليها فيضا من النبل الذى كانت محرومة منه بحكم بيئتها السوقية ٠٠ وبعد أن كانت هيئة هذه المرأة من حيث الوجه ، والجسم ، وشتى مقاييس الجمال ، تضعف من اعجابه بها ٠٠ تبددت شكوكه فى جمالها وتوطد اعجابه بها ، ثم حبه لها ، بمجرد ان علم باختيار الرسام الشهير لمثيلتها كنموذج للجمال المعصوم ! ٠٠ وبعد أن كان يعتبر قبلاتها بل والظفر بجسدها المباح غاية وضيعة لا تستحق الاشتياق ٠٠ صار ذلك هدفا ممتعا « فوق العادة » ، لانه بمثابة تتويج لتعبده لتحفة فنية رائعة من تحف المتاحف ! » ٠٠ الخ

٠٠ أما وقد تم « التبلور » على هذا النحو بفضل « الجاذبية الفنية » ، فان سوان يذهب لزيارة مدام دى كريسى كل ليلة ٠٠ **ولما كان قد وقع فى هواها وتدله حتى أذنيه ، فانه لا يرى جمالا أو سحرا الا فى الاشياء التى تريق هى عليها من جمالهـــا وسحرها ! ٠٠ لكن حبه ـ وهو الانانى المنهمك فى شهواته**

ـ لا يقوى وتتعمق جذوره فى قلبه الا بفعل الشك !٠٠ فهو لايرى أوديت الا ليلا ٠٠ ولا يعلم شيئا عما تنفق فيه النهار كله ٠٠ واذن فما زال شطر كبير من حياتها مجهولا لديه تماما !

وهكذا ، وكى يتجنب الشكوك ، يحاول أن يزداد آلتصاقا بأوديت ٠٠ ولما كان السبيل الوحيد الى رؤيتها فى كل وقت هو الاندماج فى نفس الجماعة التى تختلط هى بها ، فانه ينسى حصافته فى اختيار رفاقه ويصبح رائدا متواضعا مزمنا من رواد صالون « مدام فردوران » السوقى ٠٠ الذى كان يأنف من سماع اسمه من قبل !٠٠ وكما يحدث دائما حين يتورط الرجال فى الحب ، تتبدل مشاعر سوان فيجد متعة فى الاختلاط بتلك الجماعة ، لانه حين يكون بينهم يستطيع أن يستمتع برؤية أوديت ، ويتملى بوجودها ، وحديثها ٠٠ وهكذا يصاب ذكاؤه وذوقه المرهف بشىء يشبه الشلل ، فيتوقفان عن العمل !٠٠ واذا هو يقول لنفسه : « يالها من جماعة جذابة ظريفة ٠٠ حقا ان هذه هى الطريقة الوحيدة التى بها يستمتع الانسان بحياته !٠٠ بل ما أعظم تفوق هؤلاء الناس على المجتمع فى ذكائهم ، وفى فنهم ٠٠ وما أشد آخلاص مدام فردوران فى حبها للرسم والموسيقى ، رغم مبالغاتها الصغيرة المضحكة ! ٠٠ وأى شغف بالاعمال الفنية يلمسه المرء هناك ، وأية رغبة فى ادخال أسباب المتعة والسرور على نفوس الفنانين ! ٠٠ وفوق كل هذا فانك تحس هناك انك حر تماما ، تستطيع أن تفعل ماتشاء بغير حرج ، بغير قيد ! »

٠٠ وما هذه « الفضائل » التى يخيل للعاشق الولهان انه يكتشفها فى صالون مدام فردوران ، سوى انعكاس للمتعة التى يشعره بها حبه لأوديت !٠٠ وهنا يفتن « بروست » فى تصوير غباء وحماقات رواد صالون مدام فردوران ، لانه كلما أظهر سخافاتهم ، قدم الدليل على الشلل الذى أصاب ذكاء سوان حين أصابه مرض الحب !٠٠ ونحن نتبين هنا أول أعراض الداء ،

التى يمكن أن نستخرج منها قاعدة عامة لا تخيب : هى أن الرجل حين يبدأ يقول عن امرأة ذات مؤهلات متوسطة أو وضيعة انها « فائقة الذكاء » ، أو « حاذقة فى الفن » ، فمعنى ذلك أنه يحس بالاعراض الاولى لمرض الحب !

★ ★ ★

◆ **ولنعد** الى أوديت ٠٠ آلتى ، وقد اطمــــأنت الآن الى استحواذها على قلب سوان ، كفت من جانبها عن بلورة شخصيته فى خيالها ٠٠ وشيئا فشيئا ، يكتشف سوان انها فى غيبتها عن ناظره تعيش حياة غامضة ، تعمد خلالها ولا شك الى ٠٠ خيانته !٠٠ ويتحول الشك فى قلبه الى غيرة ٠٠ أو بعبارة أخرى الى فضول شديد للوقوف على أدق وأتفـه حركات المحبوبة وسكناتها !٠٠ فالحب ليس اشتياقا الى امتلاك الجسد بقدر ماهو شغف بامتلاك الروح والعاطفة والعقل ٠٠ ومن هنا يعمد المحب الى محاولة التعرف على نفسية محبوبته ، ويود لو رآها منشورة بأكملها أمام ناظريه ٠٠!

ولقد كانت حركات النساء وسكناتهن تبدو فى نظر سوان، الى ما قبل تلك اللحظة ، أتفه من أن تستحق الاهتمام ٠٠ وكان يعتبر ثرثرة النساء عن النساء عديمة القيمة أو الوزن !٠٠ لكنه لم يكد يدخل فى مرحلة الحب الشاذة ـ مرحلة الغيرة ـ حتى استيقظ فضوله الى الوقوف على أتفه حركات أوديت وسكناتها ٠٠ ولا يمضى وقت طويل حتى يكتشف الدليل على أنها تكذب عليه ، فيقول لها ناصحا : « ألا تدركين كم تفقدين من قوة اغرائك وجاذبيتك حين تكذبين ؟٠٠ حقا انك أقل ذكاء مما كنت أحب ٠٠!»

٠٠ لكن أوديت ـ مثل جميع المخلوقات الشغوفة بالكذب بطبعها ـ تعجز عن التزام الصدق فى أقوالها ٠٠ فضلا عن أنها ، بأكاذيبها وبما تخلقه هذه الاكاذيب فى نفسية سوان من فضول دائم ، تحتفظ بسيطرتها عليه أضعافا مضاعفة أكثر مما

لو كانت صريحة معه وصادقة !٠٠ لكن هذه الملاحظةلاتصدق على جميع الرجال ، وانما هى تصدق على سوان وحده لأن عنده من الفراغ والوقت ما يسمح له بالتفكير اللانهائى فى أسرار أوديت ، وتمييز كذبها من صدقها !

وأخيرا يبلغ سوان مرحلة معاناة أفظع ألوان العذاب المبرح ، بسبب هذه المرأة العادية التافهة !٠٠ ورغم ادراكه أنالناس ينظرون الى غرامه كأمر صبيانى وجنونى ، فانه لا يستطيع الا أن يحس بأن هذا الغرام هو بالنسبة اليه كل شىء ٠٠ وذات ليلة ، وهو فى حفلة موسيقية ،يصغى الىعزف الكمان ٠٠فيخيل اليه أن نغما معينا من أنغامها يعبر عن مشاعره ويفهم حبه مثلما يحسه هو ويفهمه ، أى باعتباره أسمى بكثير من الحياة ذاتها ، الى حد يجعله على استعداد للتضحية بحياته من أجل هذا الحب !

وشيئا فشيئا تقوى عند سوان الادلة على خيانة أوديت له ، ورغم ذلك فانه يظل يربط نفسه الى مركبتها ٠٠ حتى تدركه يوما نوبة من نوبات الصحو والتعقل ، فيقول لنفسه كمن يفيق من كابوس :

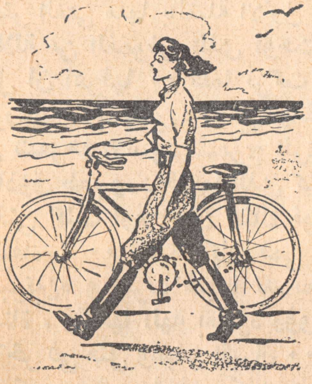
ـ كيف أنفقت سنوات طويلة من عمرى ٠٠ وتمنيت لنفسى الموت ٠٠ وخصصت يحبى الاعظم ٠٠ امرأة لا تعجبنى ، ومن غير طرازى ؟

٠٠ وكأنه يقول : « ان مرض الحب يخلق فى أعماقنا صراعا بين ذكائنا الواعى ، وبين ارادتنا الوضـــيعة ٠٠ ففى لحظات التعقل والصحو النادرة نستطيع أن نرى المحبوب كما يراه غيرنا ، على حقيقته ٠٠ أما فيما عداها ، ونحن سجناء فى ذواتنا وفي عالمنا الداخلى الخاص ، فنحن نعجز عن أن نراهالامتأثرين بالشعور الذى يوحى به الينا ٠٠ هل هو جميل ؟ أم قبيح ؟ ذكى ؟ أم غبى ؟ نبيل ؟ أم وضيع ؟ ٠٠ نحن لم نعد نعلم ٠٠ كل ما نعلم أننا فى حاجة اليه ٠٠ وهنا يكمن مرضنا ! »

وعند ذلك تنتهى قصة غرام سوان ٠٠

« ألبرتين »

◆ **أما** القصة الثانية من قصص مارسيل بروست التى تصور أعراض وأطوار مرض الحب ، فتقع حوادثها فى « بعلبك » ٠٠ وبطلها شاب فى طور النقاهة ، تأخذه جدته الى شاطىء بعلبك ليستجم ، فيرى سربا من الفتيات يتنزهن على « البلاج » ٠ ويلحظ من بينهن فتاة ذات عينين واسعتين ضاحكتين ، ووجنتين كبيرتين ناعمتين ، تلبس رداء أسود من أردية القفز فى لعبة البولو ، وتدفع الى جوارها دراجة ، فيهتز ردفاها مع خطواتها ، وهى تصخب مع زميلاتها وتتصايح ، بألفاظ سوقية ، تدخل فى روع الفتى أنهن جميعا خليلات فريق من محترفى سباق الدراجات ٠٠ وفى اللحظة التى تبلغ فيها السمراء الصاخبة مكانه وتمر الى جواره ، يلمحها ترمقه بنظرة جانبية ضاحكة ٠٠ فيسائل نفسه : هل رأته ؟ واذا كانت قد رأته فماذا يعنيها منه ؟ لا شىء بالطبع !



وحين تجاوزه يسمعها تنطق بعبارة فى معرض الحديث مع احدى زميلاتها عن « الاستمتاع بالحياة » ٠٠ فتصدمه تلك العبارة وتدله على أن الفتاة ليست من الطراز الذى يعجبه ـ كما لم تكن أوديت من الطراز الذى يعجب سوان ! ـ ولكن شيئا فشيئا تختفى شخصية الفتاة الحقيقية من ذهنه ، وتحل مكانها ـ بفعل «التبلور» ـ شخصية خيالية ٠٠ فان الفتى يلحظ تردد

الفتيات على الشاطىء كل حين ٠٠ وغيابهن فى بعض الأيام ، فيحاول برغمه كشف سبب ذلك الغياب ومواعيده ٠٠ وهل يتكرر مرة كل يومين ، أو كل ثلاثة أيام ؟ ٠٠ وهل الباعث عليه انشغال الفتيات فى أمور أخرى ، أم رداءة الطقس ؟ ٠٠ وينتج عن ملاحظته الدائبة لحركاتهن وسكناتهن غير المنتظمة ، ذلك الفضول الذى هو أكثر الاجواء ملاءمة لولادة الحب !

« والى جانب الشك الذى كان يساورنى كل يوم فيما اذا كنت سأراهن خلاله على الشاطىء أم لا ، طرأ تساؤل آخر جدى، أكثر خطورة ، هو : ترى هل سيقع بصرى عليهن بعد اليوم أم لا ؟! ٠٠ ذلك انى لم أكن أعلم شيئا عن مدة بقائهن فى البلدة ، وموعد رحيلهن ، ووجهتهن عند الرحيل : هل هى أمريكا مثلا ، أم باريس ؟ ٠٠ وكان ذلك القلق من جانبى كافيا لأن يزرع فى قلبى أول بذور الحب ٠٠ »

٠٠ وشيئا فشيئا يتصل حبل التعارف بين الفتى وسمرائه الفاتنة ٠٠ وبعد فترة طويلة من اللهفة ، والامل ،والترقب ، يظفر الفتى منها بالقبلة الأولى : « **قبل أن أقبلها كنت أحيطها بغلالة من الغموض الذى أوحت به الى تصرفاتها على الشاطىء قبل أن أعرفها ٠٠ فلما تركت بصرى ينزلق على وجنتيها الورديتين الجميلتين ، اللتين تهدلت على بشرتهما الناعمة خصلات من شعرها الاسود المتموج الرائع ٠٠ قلت لنفسى : « أخيرا سأذوق طعم ورد خديها الذى كنت أجهله ٠٠ » قلت ذلك لنفسى لأننى كنت أومن بأن هناك نوعا من المعرفة لا تدركه غير الشفاه ! ٠٠ وفيما كان فمى يقطع الرحلة القصيرة الى وجنتى «ألبرتين» ويقترب منهما تدريجا ، رأيت بعينى عشرة وجوه للفتاة ، وكأنها الهة بعشرة رؤوس ، كل وجه منها يترك مكانه للآخر فى مثل وميض البرق ٠٠ وملأ خياشيمى عطرها الخفيف المسكر ٠٠ ثم ، فجأة ، كفت عيناى عن أن تريا ، وانطبق أنفى**

على بشرتها فلم يعد يشم . واذ ذاك أدركت أنى أقبل وجنتى « ألبرتين ! »

ويتبين الفتى كلما ازدادت الصلة بينه وبين الفتاة، ان تلك التى طالما تمنى أن يعرفها ، تلك الغريبة التى كانت تذرع الشاطىء ، لا تمت بصلة الى هذه التى بذل جهد الجبابرة حتى ظفر أخيرا بالتعرف اليها .. «ومنذ اليوم الاول الذى قدمونى فيه اليها أدركت أنى أتحدث الى مخلوقة لا تشبه فى شىء تلك التى صنعها خيالى وأنا أرقبها كل يوم على الشاطىء ! .. لكننى برغم ذلك شعرت بنوع من الالتزام الخلقى يحتم على أن أحفظ وعود الهوى التى قطعتها لها فى خيالى قبل أن أعرفها ، وكأنى كنت قد وكلت نائبا عنى كى يخطبها لى ، فصرت ملزما بأن أتزوجها تنفيذا لذلك التفويض والوكالة ! »

★ ★ ★

◆ **وهكذا** يقبل الفتى محبوبته على علاتها ، محاولا أن ينقل اليها الصفات والمشاعر التى خلقها خياله ! .. وتستبد به الغيرة عليها ، فيفرض عليها رقابة صارمة .. **انه لا يطمع فى أن يظفر بجسدها فقط ، بل بروحها أيضا ، لأن امتلاك الجسد ليس فى نظره غير مجرد قرينة على امتلاك الروح ، والقلب — الذى هو الهدف الاكبر لكل عاشق صادق فى هواه —** وهكذا يوصد الفتى على « ألبرتين » الابواب ، ويراقبها كما يراقب السجان سجينه .. ولا يستريح باله الا أثناء نومها : « عندما كنت أراها ممددة على فراشى من رأسها الى قدمها ، فى وضع طبيعى غير متكلف ، كانت تبدو أشبه بغصن طويل من الازهار .. وفى تلك الساعات كانت قدرتى على الاستغراق فى الاحلام — التى لم تكن فى العادة تواتينى الا فى غيبتها — تعاودنى اذ ذاك فى حضورها .. وهكذا كان نعاسها يحقق لى فرص الحب ، التى كان يتعذر تحقيقها سواء فى غيبتها أو حضورها : ففى

غيبتها كنت أفكر فيها وأتخيلها وأنا وحيد ، وهى بعيدة عنى ، وعن متناول يدى ٠ وفى حضورها كنت أتحدث أو أنصت اليها فيتعذر على التفكير ٠٠ أما أثناء نومها فلم يكن على أن أتكلم أو أصغى أو أتخيل ، أو أشعر أنها تنظر الى ٠٠ فكان ينفسح أمامى مجال الاطمئنان ٠٠ انها بمجرد اغماضها عينيها وفقدانها الوعى كانت تفقد جميع شخصياتها التى طالما خيبت أملى منذ عرفتها ، وتصير ملك يمينى ! ٠٠ وروحها التى اعتادت أن تفر منى فى كل لحظة ونحن نتكلم ، سواء بالفكر أو بالنظرة ، كانت أثناء نومها تسكن اليها وتلازمها ٠٠ أو لعلها هى كانت تسترد اليها وتأوى فى جسدها كل حواسها التى تهيم فى الخارج أثناء يقظتها !

٠٠ وهكذا كان يفرخ من روعى وهى نائمة أمام عينى وفى متناول يدى شعور قوى بأننى أملكها تماما وأسيطر عليها ٠٠ بعكس الحال وهى مستيقظة !

« وطالما هى نائمة كنت أستطيع أن أحلم بها ، وأنظر اليها ٠٠ وألمسها وأعانقها !٠٠ فكنت أشعر عندئذ بالحب الذى يستحوذ على القلب أمام شىء فى نقاء مناظر الطبيعة الجميلة ، وروحانيتها ، وغموضها ٠٠ شىء يذكرنى بالليالى المقمرة فى خليج بعلبك الهادىء كالبحيرة ، حيث الاغصان لا تكاد تتحرك ، وحيث يستطيع المرء حين يتمدد على الرمال أن يصغى بلا ملل الى هدير أمواج الجزر ٠٠ »

ولكن اذا كان النوم يعطى العاشق هدنة يستريح فيها من وساوسه ، فانه لا يشفيه منها تماما ٠٠ حتى الموت ذاته لايشفيه ٠٠ فان الصرح الضخم الذى بناه فى أعماقه ، وهو الصورة التى كونها للمحبوبة فى قلبه وخياله ، يعيش أكثر مما تعيش هى ، ويبقى طويلا حتى بعد موتها ! ٠٠ وهكذا تموت ألبرتين ، لكنها تظل حية فى قلب عاشقها : « **لكى يضع موت ألبرتين**

حدا لآلامى كان لا بد للصدمة التى قتلتها فى (تورين) أن تقتلها فى داخلى أنا أيضا ، حيث لم تكن يوما أوفر حياة منها الآن ! ٠٠ ولكى أتعزى عن فقدها لم يكن على أن أنسى «ألبرتين» واحدة ، بل عديدات ٠٠ فاننى لم أكن أوطن نفسى على تحمل الحزن من أجل فقدان واحدة منهن حتى كانت تنتصب أمامى مائة « ألبرتين » غيرها ٠٠ ! »

وهكذا كانت فجيعته تتجدد وتتوالد بلا انقطاع ٠٠ حتى صوت المصعد كان يحيى فى رأسه ذكرى زيارة المخلوقة الوحيدة التى كان يتلهف شوقا الى زيارتها ، والتى لن تأتى مطلقا بعد الآن ، لأنها ماتت :

« ٠٠ وبرغمى ، كان قلبى يقفز بين ضلوعى كلما توقف المصعد أمام الطابق الذى يقع مسكنى فيه ٠٠ فكنت أحدث نفسى ، للحظة فقط ، قائلا : « ماذا لو كان الامر كله مجرد حلم ؟ ٠٠ لعلها هى ٠٠ انها توشك أن تضغط على زر الجرس ٠٠ »

وتظل هذه الهواجس زمنا ٠٠ ولا غرابة ، فان نصيبا كبيرا من الافكار التى تكون ما نسميه بالحب ، انما تراودنا خلال الساعات التى يكون فيها المحبوب ، وهو حى ، غائبا عنا ٠٠ : ومن ثم فنحن نعتاد أن نجعل شخصا غائبا موضوع أحلامنا ٠٠ وهكذا لا يغير الموت من الامر شيئا يذكر ٠

وأخيرا ، بعد زمن ٠٠ يبدد السلوان خيال ألبرتين الجاثم ، فتغيض صورتها تدريجا ٠٠ حتى تختفى ٠٠ فلا يعود يحييها فى أعماق الفتى حيث تهجع الا منعش قوى ، أو عطر نفاذ ! ٠٠ **وهكذا المخلوقات التي نحبها ، لا تموت حقا يوم يطويها الردى ٠٠ وانما تموت يوم ننساها !**

تم الكتاب

حدث ذات يوم



من قصص التاريخ ومآسيه

عزيزى القارىء :

فى هذا الباب ، قرأت معى فى الاعداد السابقة ، القصص الآتية على التوالى:

فضيحة « كارولين » ملكة انجلترا
عشيقة نابليون (مارى فالفسكا)
امرأة وملك (مدام دى مانتون)
« تيبريوس » قيصر روما
الحب أقوى من الموت
لوكريشيا بورجيا
نيرون : الطاغية السفاح
ليدى هاملتون
مارى انطوانيت
مصرع القيصرية فى روسيا
بولين بونابرت : ملكة الغواية
مأساة ملك بافاريا
الحب والجريمة تحت سماء فلورنسا
غرام الاميرة اليزابيث تيودور
ديزيريه : خطيبة نابليون
أوليمبيا : والدة الاسكندر
بيرينيس : ملكة فلسطين
تيودورا : الراقصة الامبراطورة
« سانوهى » او (المصرى)
كريستين : ملكة السويد

واليوم ، أقدم لك فيما يلى قصة حياة رمسيس الثانى وأعماله الخالدة !



حياة رمسيس الثاني

الملك الذي حكم مصر ٦٧ عاما!

ترجمها عن الهيروغليفية : أحمد عبد الحميد يوسف

الملك الذى رفع راية مصر فى المشرقين ..

◆ فى ٢٣ يوليو الحالى تحتفل مصر بازاحة الستار عن تمثال عاهلها القديم وفرعونها العظيم « رمسيس الثانى » — (أو « رع مس سو » كما هى حقيقة اسمه فى اللغة الهيروغليفية قبل أن يطرأ عليه التحريف) — بعد أن نقل التمثال المذكور من مرقده المهين الذى ظل فيه آلاف السنين فى (ميت رهينة) ، الى حيث يطل على العالمين بعد أيام ، شامخا من عليائه فى مدخل العاصمة بميدان باب الحديد !

وبهذه المناسبة ، رأيت أن أقدم لك فيما يلى أوفى سيرة أمكن استقاؤها من التاريخ المصرى القديم لحياة ذلك الملك العظيم — العامة والخاصة — وحروبه ، وانتصاراته ، وأمجاده التى رفع فيها رأس مصر فى الخافقين ، وحقق لها من الفتوحات والتوسع الحربى ما لم يتح لها نظيره على يد أى حاكم سواه فى تاريخها الطويل !

جريمة .. تدبر تحت جنح الظلام !

◆ **عاد** الملك «سيتى» فرعون مصر من حروبه الطويلة فى صحبة ولديه وقد أخضع الخارجين على مصر وثبت دعائم الحكم المصرى فى مستعمراتها ، فلم يعد يشغله من أمور السياسة شىء ، بعد أن انتشر الامن وعم الرخاء ودانت لمصر البلاد من السودان حتى شواطىء الفراتين ! .. ومن ثم طفق « سيتى » ينشىء المعابد الضخمة والمسلات السامقة ، ولم ينس قبل كل شىء « منزل الآخرة » ، فعنى بانشاء قبره حتى أصبح آية من آيات الفن والمعمار .

وكأنما أراد الملك أن تقر عينه ببنيه ، فاذا هو يعد العدة للاحتفال بتولية بكر أبنائه ولاية العهد ، واشراكه فى الحكم ، حتى يدربه وينبته نباتا حسنا ..

وكان ولده الثانى « رع مس سو » (رمسيس) حريصا على الملك راغبا فيه ، يطمع فى أن تتحول ولاية العرش اليه وأن

يظفر بالملك من دون أخيه ! ولم تكن «تويا» ـ أم رع مس سو ـ أقل حرصا من ابنها على انتزاع ولاية العهد من ابن زوجها ! ٠٠ وهكذا ، بينما كانت الاستعدادات قائمة على أشدها والعمال ينقشون ويشيدون ، استعدادا لذلك الاحتفال بتولى الولد الاكبر العهد واشتراكه فى الحكم ، كانت المؤامرة تدبر تحت جنح الظلام فى دقة واحكام ٠٠ واذا بولى العهد هذا يختفى من سجل التاريخ ، واذا « رع مس سو » قد أصبح هو المرشح لولاية العهد دون منازع !

وتتقدم السنون بالملك « سيتى » ، واذا بالشيخوخة تزحف عليه رويدا رويدا ، والضعف والوهن يحلان بجسمه ، واذا به ـ بعد أن فقد بكر أبنائه ـ يعد العدة للاحتفال بابنه الصبى « رع مس سو » وليا للعهد واشراكه فى الحكم ، بصفته « الابن الاكبر والأمير الوراثى وقائد المشاة والفرسان » ٠٠ وصدر المرسوم الملكى بذلك التعيين ، وخرج الملك الشيخ يوم الاحتفال فأطل على الشعب المحتشد أمام القصر ، وخطب فيه يقول : « توجوه ملكا حتى أستطيع رؤية بهائه وأنا حى معه » ٠٠ فكان أن تقدم رجال البلاط وفى أيديهم التاج ، فلما سمعوا قول الملك ألبسوا ابنه التاج ٠ وأصبح الأمير الصبى بذلك وليا للعهد وشريكا فى الحكم ٠ وشاء الملك الشيخ أن يتم فرحته ، فزوجه ٠٠ ووهب له فضلا عن ذلك وصيفات واماء فاتنات وعذارى من القصر ٠٠

حكم مجيد يستمر ٦٧ عاما !

◆ **ولم** تكد تمضى سنوات قليلة حتى توفى الملك سيتى الاول ، فنودى بالامير الصبى «رع مس سو» ملكا على الشمال والجنوب ، وقلد التاج وصولجان السلطان ، فبدأ عهدا من حكم طويل زاهر حافل بالمجد والبطولة دام أكثر من سبعة وستين عاما !

لم يكد الملك الشيخ يلفظ أنفاسه حتى أقفل بابا القصر العظيمان وساده السكون وقد عم الحزن القلوب ، ثم صدرالبلاغ

الرسمى من كبير أمناء القصر بأن « جلالة الملك «من ماعت رع سيتى» قد عاد الى أفقه وصعد الى السماء حيث اختلطت الاعضاء الالهية بمن خلقها وبراها » ٠٠ ثم أسرع البشير الى الملك الجديد حيث كان فى الدلتا عند حدود مصر الشرقية ٠ وأكبر الظن أن الملك الشاب قد تلقى نبأ وفاة أبيه فى شيء من الحزن ، وأكبر الظن أيضا أن هذا الحزن انما كان يحجب فى أعماقه مشاعر خفية وآمالا كبارا وبشرا لا يكاد يظهر أو لا يراد له أن يظهر الآن !٠٠ وها هى مقاليد السلطة تؤول اليه ولم يجـــاوز السابعة عشرة ، أى وهو فى آخر ليل الصبا وأول فجر الشباب، فتجده حريصا على توطيد ملكه فى (طيبة) وفرض سلطته ونشر هيبته ، وكان له من الصفات ما يسر له ذلك فعنت له الوجوه ودانت له الرقاب ٠٠

حفلة التتويج

◆ **كان** «رع مس سو» شابا كأحسن مايكون الشباب رجولة ووسامة ، طويل القامة ، مفتول العضل ، عريض المنكبين ٠٠ وكان طويل الوجه ، أقنى الانف ، ممتلىء الشفاه ، صلب الذقن، عريض الفكين ، وهى صفات توحى بما كان عليه الملك الجديد من قوة الجسم وحدة العزم وصلابة الرأى وقوة الارادة ـ ومن الميل مع هذا كله الى الشهوات ـ وبالاختصار فقد كان وجهه فى مجموعه جميلا سمحا ٠

وشاء الملك الفتى أن يحتفل بتتويجه فى (منف) عاصمة البلاد الاولى ومهد حضارتها ومركز جيشها ، فاذا هو يخرج فى سفينته فى النيل المقدس ميمما شطر تلك المدينة المقدسة ٠٠ وهناك كانت حفلات التتويج حيث تلقى الملك الشـــاب السلطة من « حورس » اله الدلتا و « دست » اله الصعيد ، وحيث تلقى أسماءه الاربعة الاخرى التى ترمز الى سلطاته ، فأصبح اسمه الرسمى « أوسرماعت رع ستبن رع » و « رع مس سو مرى أمون »

ويقبل الملك على مكان الاحتفال حيث نصبت خيمتان عظيمتان على منصتين عاليتين وفى كل منهما أريكة العرش ٠٠ فاما احدى الخيمتين فتتجه الى الجنوب وأما الاخرى فتتجه الى الشمال ، وقد انعقد على جانبيهما نبات الشمال بنبات الجنوب ـ رمزا لوحدة مصر منذ أقدم العصور ـ وصعد الملك الى الخيمة الأولى فجلس على عرش الجنوب حيث أقبل عليه كاهن يرتدى قناعا كرأس الذئب ـ رمز للاله « ست » ـ فتوجه بتاج الجنوب الابيض وتلا ما شاء أن يتلو من الادعية والاوراد ٠٠ ثم انتقل الملك بعدذلك الى خيمة الشمال فأقبل عليه كاهن آخر يرتدى قناعا كرأس الصقر ـ رمزا للاله « حور » ـ فتوجه بتاج الشمال الاحمر ، وتلا كذلك ما شاء أن يتلو من الادعية والاوراد

٠٠ حتى اذا تمت طقوس التتويج وأصبح الملك بذلك الها يحكم ارث آبائه من الآلهة ، عاد مسرعا الى (طيبة) ليشهد جنازة أبيه بعد أن فرغ من تحنيطها المحنطون ، وليشهد أيضا عيد « أوبت » العظيم الذى يقام بمعابد آمون فى شهر « بابه » من كل عام ٠ وشهدت طيبة موكبا جنازيا مهيبا ، فخرجت عن بكرة أبيها تودع الملك الراحل وداعها الاخير ، وقد سار فى موكب الجنازة القراء من الكهان يتلون الادعية والصلوات ، والباكيات والنائحات وكبار رجال الدولة أجمعين ، ثم أنزل التابوت فى



اثنان من الحرس الملكى لرمسيس الثانى المكون من سودانيين مأجورين

سفينة فى النيل عبرت به الى « الغرب » حيث مدينة الاموات ، وحيث أرقد فى مثواه الاخير ٠ وبالغ الملك الفتى فى اظهار بره بوالده وحبه له ، فأكثر من القرابين والهبات على روحه ، مما أرضى الكهنة وحملهم على الدعاء له وتعضيده ، وصوغ القصائد فى مديحه ٠٠

عيد الاله « آمون »

◆ **ولم** تنقض أيام قليلة على الاحتفال بدفن الملك الراحل حتى حل عيد « آمون » فكان أن شهدت (طيبة) احتفالا فخما ضخما لم تشهده من قبل ـ فقد اتفق عيد آمون مع تولية الملك الشاب ـ فقصد الملك الى معبد الكرنك مقر الاله ، ودخل الى محراب فى قدس الاقداس حيث تقدم بالقرابين أمام زورق « آمون » وزورق زوجته « سوت » وابنهما « خنسو » ، ثم أقبل بعد ذلك ثلاثون كاهنا حملوا زورق آمون فوق أكتافهم فساروا فى طليعة موكب الاله ومن ورائهم الملك ٠٠ ثم تلاه كهنة آخرون يحملون زورقى موت وخنسو ومن ورائهم جمع عظيم من الكهان والاشراف ، ثم الجمهور من عامة الشعب وهم يرتلون ويغنون على دق الطبول ، **حتى اذا وصل الموكب الى شاطىء النيل نزل الى الزوارق المنتظرة هناك ، فتقدم زورق آمون والالهة ثم تبعته زوارق القرابين ، وقد صاحب الملك والملكة الآلهة فى سفنهم الفخمة كأنها المعابد العائمة ، ومن ورائها عدد هائل من السفن والزوارق يزحم سطح النيل ٠٠ على حين يموج الشاطىء بالجماهير المرحة التى تصحب السفن فى رحلتها ، ويجرونها بالحبال ضد التيار** ٠٠ حتى اذا وصل الموكب الى معبد الاقصر اتجه اليه وعلى رأسه الكهنة حاملين زورق آمون ومن ورائه الملك وحاشيته ، ثم زوارق موت وخنسو ، وقد اندست فى الحاشية العسكرية جماعة مرحة من الموسيقيات والراقصات ارتدين ملابس رقيقة وهن يؤدين حركات ورقصات فيها كثير من الجرأة !

وفى المعبد يدخل الملك الى قدس الاقداس حيث يقدم القرابين، على حين ينتظر الكهنة ورجال الحاشية عند الباب ٠ حتى اذا أمضى الاله فى معبد الاقصر ما شاء أن يمضى من الوقت ، عاد الى مقره فى معبد الكرنك بمثل ما لقى فى رحلته الأولى من الاحتفال ٠٠ على حين تسير الحاشية والجند وعلى ضفة النيل فى الطريق الذى رش باللبن ، وهم يسبحون بحمد الملك الذى سرى بآمون على الماء ٠٠

فى حضرة الاله « أوزيريس »

• **وكان** على الملك ــ بعد عيد « أوبت » ــ أن يزور مدينة (أبيدوس) ــ «اندابة» ــ تلك المدينة المقدسة التى دفن فيها الاله الشهيد « أوزيريس » رب الموتى ورئيس محكمة الآخرة ٠٠ وليتفقد مملكته فيشعر شعبه بسلطانه فى ملكه العريض ٠٠

فلما بلغ (أبيدوس) ، قصد الى معبد « أوزيريس » حيث استقبله الكهان فطهروه بالماء مبجلين مباركين ، ثم تقدم الى قدس الاقداس هادئا خاشعا قد أخذ بجلال الاله ، حتى صار فى حضرته فانحنى أمامه ورفع يده مقدما اليه القربان المقدس ــ وهو تمثال العدالة ، أقدس ما يقدمه ملك لاله من قربان ــ ثم طفق يصلى للاله قائلا : « **اننى أتضرع لوجهك كما كان يفعل ابنك «حور» وأفعل ما يفعله ٠٠ وانى لأضاعف الاوقاف لروحك وأرجو أن أكون المجيب عن والدى وهو فى عالم الموتى وأنا طوع أمرك وسلطانك ٠ ولما كنت أعرف أنك تحب العدالة فانى أقدمها لجمالك ، حتى تجعل الارض ملكا لى فى سكينة وأمان ، وحتى تهب لى الخلود والابدية يا راعى الارضين ٠ وانى لمنفذ ما يرتاح له فؤادك دائما** »

٠٠ ثم يرتفع صوت الكاهن مجيبا على لسان أوزيريس : « ان قلبى لمبتهج بما أمرت لى به وانى لفرح بتقديمك العدالة قربانا ٠٠ وستبقى أنت ما بقى «أتوم» ، وخططك محببة الى قلبى وما فعلته كان مقبولا ٠٠ »

ثم يسمع الملك قول ايزيس : « ستطول حياتك كما طالت حياة ابنى حور ٠٠ لأنك بار بنا مثله ! »

٠٠ حتى اذا رضيت نفسه لرضاء الآلهة عنه طفق يتفقد الاحوال فى (أبيدوس) فراعه حال معبد أبيه الذى توفى قبل أن يتمه ، وراعه ما حل به من الاهمال وما نال أوقافه من سوء التصرف والضياع ، وفضلا عن ذلك فقد وجد مقابر ملوك مصر الاقدمين تستحق شيئا من عناية واهتمام ٠٠ فكان أن جمع رجال قصره ومستشاريه ليحدثهم بما يريد ، فقصدوا اليه خائفين خاشعين يقبلون الارض بين يديه ، ومثلوا فى حضرته فخاطبهم بقوله : « **أنظروا ، لقد أمرت بدعوتكم لما جال بخاطرى حين شاهدت الجبانة ومقابر أبيروس لم تنجز أعمالها منذ زمن أصحابها الى اليوم ٠٠ فقلت لنفسى ان المرء اذا أعاد ما تهدم جلب لنفسه سعادة الحظ ، فما أجمل أن يهتم الابن بوالده ، ولسوف يخصني أوزيريس بمثل ما وهب لابنه حور من حياة طويلة ، لبرى بأبى !** » ٠٠ وأجاب رجال الحاشية بمثل ما يجيب به أمثالهم من المديح والاطراء الذى لا حد له ٠ ثم أصدر جلالته الامر بأن توكل الاعمال لمهندس البناء ، وانتخب عمالا من كل طوائف الصناع لاتمام معبد أبيه ونحت تمثال له واصلاح ما تخرب من القبور ٠ ثم ضاعف لأبيه القرابين من خمر وزيت وفاكهة ومن بوادر المحاصيل جميعا ، فكان خليقا أن يسمع ثناء أبيه على لسان الكهان !

مشروعات لاستخراج الذهب من الصحراء !

◆ **ولم** يهمل الملك موارد البلاد واقتصادها ، وكان حريصا على زيادة ايراد البلاد من الذهب حتى يستطيع انجاز ما يدبر من مشروعات الانشاء والتعمير ٠٠ وكان دائم التفكير ـ منذ كان فى (منف) ـ فى استغلال مناجم بلاد كوش (النوبه) ، وفى استغلال منطقة بعينها هناك نائية موغلة فى الصحراء اشتهرت بوفرة ذهبها وعرفت باسم (اكيتا) ، وكان أبوه قد حاول استغلالها فلم يصب فيها نجاحا لفرط بعدها وانعدام الماء فيها حتى لقد هلك عدد كبير من العمال



والمشرفين عليها عطشا !٠٠ فلما انتهى « رع مس سو » من اداء واجباته الدينية عاد الى التفكير الجدى فى المشروع، فدعا رجاله ومجلس بلاطه ـ وفيهم حاكم كوش ـ لبحث مشروع توفير المياه فى تلك المنطقة بحفر الآبار، وكان ذلك فى اليوم الرابع من الشهر الاول من الفصل الثالث فى السنة الثالثة من حكمه ٠٠ **وقد أبدى نائب الملك فى كوش ـ أثناء المناقشة ـ يأسه من المشروع ، اذ قال : « ان الماء هناك منعدم ، حتى لقد مات الرواد عطشا ٠٠ بل ان كل ملك قبلك رغب فى فتح بئر هناك لم يصب نجاحا ٠ وقد حاول الملك « من ماعت رع » (سيتى) ، فأمر بحفر بئر عمقها مائة وعشرون ذراعا ٠٠ فلم ينبع منها الماء ! » ٠٠ ولكن المتحدث استدرك متملقا : « ولكنك اذا خاطبت بنفسك أباك والد الآلهة ٠٠ فسوف يجيبك الى ما تطلب ! »**

وأصر الملك على أن ترتاد المنطقة بعثة مهمتها حفر الآبار فيها ، وكلف حاكم كوش بذلك الأمر فصدع به ٠٠ فلم ينقض زمن طويل حتى كتب الحاكم الى الملك يبشره بأن الماء قد انبثق بعد اثنى عشر قدما ، وان عمقه أربعة أقدام ، فأمره الملك بتخليد ذلك بلوحة تذكارية حفظت لتروى لنا ذلك الجهد المشكور ٠ وكان أن استخرج الذهب الوفير الذى اعتقد ملوك الشرق القديم أنه فى مصر مثل التراب وفرة !

طمع جيران مصر فى خيراتها !

◆ **وكان** على الملك الشاب أن يدرس الأحوال السياسية فى عصره دراسة حريص ، فمصر أرض خصيبة خضراء تنعم بالرى والرزق ، ورغد العيش ولين الحياة ، ومن حولها صحراوات شاسعة تمتد الى غير نهاية ٠ وكانت تسكن تلك الصحراوات من الغرب قبائل من الليبيين يعيشون فى ضيق وفقر لا يقاس الى سعة المصريين وثروتهم ، لذلك فما أكثر ما كانوا يتحينون الفرص للاغارة على الدلتا أو النزوح اليها حيث يستمرئون العيش فى بعض بقاعها أو يعملون جنودا مرتزقة عند الفراعنة فى جيش مصر ٠٠ وأما فى الشرق فثمة أعراب من البدو يسكنون سيناء وما أكثر ما كانوا يخلون بالامن حين يغيرون على ما

جاورهم من أقاليم الدلتا . وكان ملوك مصر حريصين دائما على تأمين حدود مصر من تلك القبائل المغيرة من الشرق أو من الغرب ، وتأديبهم ، فكانوا يقيمون القلاع ويضعون فيها الحاميات التى تحرس الحدود ..

وفضلا عن ذلك فقد قامت فى آسيا الصغرى دولة جديدة فتية هى دولة (خيتا) ، طفقت تتسع وتمتد حتى جاورت أملاك مصر فى الشام ، وطفق ملوكها يحاولون التوسع باقتطاع أجزاء من الامبراطورية المصرية .. فكان أن نشبت الحرب بين خيتا ومصر فى عهد سيتى الذى انتصر عليهم وأوقع بهم هزيمة حملتهم على طلب صلح لم يكن فى نيتهم احترامه الا الى حين !

ورأى « رع مس سو » أن ينقل عاصمة البلاد من طيبة الى موقع آخر يتوسط الوادى ويستطيع أن يطل منه على أملاك مصر فى الشام ، وأن يكون فيه على أهبة الاستعداد للعمل السريع ، فكان أن نقل عاصمته الى موضع فى شرق الدلتا قرب حدود مصر الشرقية حيث بنى مدينة سماها (بر رع مس سو) أى مقر « رع مس سو » .

« حرب الأعصاب » بين مصر ومملكة « خيتا »

◆ **وسرعان** ما بدت النذر سافرة من قبل الحيتيين ، ـ (و « الحيتيون » هى التسمية الحديثة لما كان يعرف من قبل باسم الحيثيين) ـ فاذا بهم ينقضون المعاهدة التى عقدوها مع سيتى فيزحفون على حـــدود الامبراطورية المصرية ويحرضون الحكام على التحالف معهم ، ثم يستولون على قادش .. ومن ثم لم يكن مفر من الحرب !

لكن الحرب لا بد أن يسبقها استعداد واحكام للخطط ـ فليس العدو هينا ! ـ وبادر « رع مس سو » فتبع خطة سلفه العظيم تحتمس الثالث ، فقرر الاستيلاء على ساحل الشام قبل كل شىء حتى يحمى ظهره ، وحتى يسهل امداد الجيش عن طريق البحر لسهولة المواصلات البحرية وسرعتها .. ومن ثم زحف على مدن الساحل حتى وصل الى نهر الكلب عند بيروت حيث نصب لوحا تذكاريا ما زال قائما الى الآن ، ثم نظم احتلال هذا الساحل وعزز القوات المصرية هناك .. وعاد بعد ذلك الى مصر ليستعد للمعركة الكبرى بينه وبين «مواتالى» ملك الحيتيين .

وأحس ملك الخيتيين بما يبيته له ملك مصر ، فراح يعبىء قواته ويستعد ما وسعه الجهد ، ويعقد الاحلاف ، فكان أن كون أول حلف عقد ضد مصر فى يوم من الايام ، ولم يدخر وسعا فى حمل الشعوب على الانضمام اليه ، تارة ببذل الرشوة والاموال ، وتارة بالتهديد والوعيد .. حتى ضمن تعضيد أكثر من عشرين شعبا ، فوعدته جزائر بحر ايجه وامارات آسيا الصغرى وسوريا

الشمالية بامداده بالرجال والعجلات ، وفضلا عن ذلك فقد استنزفت خزائنه اذ أنفق الاموال الضخمة فى استئجار الجنود المرتزقة ما استطاع ٠٠

ولم يكن ملك مصر أقل نشاطا واجتهادا فى الاستعداد ، وفى استئجار المرتزقة من الشرادنة - وهم سكان بعض جزر البحر المتوسط ، ويغلب انها سردينيا التى اشتق منها اسم الشرادنة - فضلا عن المصريين والنوبيين ٠ وكانت القوات المصرية تتألف من أسلحة ثلاثة هى : سلاح الفرسان (العجلات) وسلاح المشاة ثم الشرادنة ، وقد قسمها الملك الى أربعة فيالق أطلق على كل منها اسم أحد الآلهة ، وهى : آمون ، ورع ، وبتاح ، وسوتخ ٠٠ وتولى هو قيادة فيلق آمون ٠

رمسيس يزحف على بلاد الاعداء !

◆ وفى السنة الخامسة من حكم الملك ، أى فى ابريل سنة ١٢٨٨ قبل مولد المسيح ، زحف « رع مس سو » بجيشه من (تارو) محاذيا الساحل حتى بلغ مشارف نهر الكلب ، حيث أسس مدينة أطلق عليها اسمه لتكون قاعدة لعملياته الحربية ، ثم واصل زحفه متبعا طريق وادى نهر الكلب ويمم بعد ذلك نحو نهر (الاورنط) حيث ضرب خيامه فى أقصى شمال الوادى بين سلسلتى جبال لبنان ، على مرتفع يشرف منه على ذلك السهل الفسيح حيث تقع (قادش) مركز الاعداء ، وحيث تبدو حصونها فى الافق البعيد على مسيرة يوم واحد من موقعه ٠٠

وظل « رع مس سو » فى موقعه أياما فى ذلك الفضاء العريض وهو لا يجد للعدو أثرا ، وكان ضباط المخابرات يعودون اليه بتقرير لا يتغير وهو أنهم لا يجدون للعدو أثرا ! ويرجحون له أنه ما يزال بعيدا فى أقصى الشمال ٠٠ واذا برجلين من البدو يظهران فى ذلك الحين فيزعمان أنهما هربا من جيش الخيتيين وأن ملك خيتا قد انسحب بقواته الى اقليم حلب ، شمالى تونب (بعلبك) ٠ وصدق « رع مس سو » قول الرجلين لأنه جاء مؤيدا تقارير ضباطه ، فما أسرع ما قوض خيامه فعبر النهر بفيلق آمون قاصدا قادش - فقد أراد أن يسدد لها الضربة ويستولى عليها فى ذلك اليوم ! - أما فيلقا رع وبتاح فقد تابعا مسيرهما فى تراخ وبطء ، على حين جد الملك فأسرع مع حرسه الخاص تاركا خلفه فيلق آمون ٠

فى تلك الاثناء كان «مواتالى» ملك خيتا متواريا بجيشه من وراء قادش فى شمالها الشرقى ، بعد أن دس لرع مس سو هذين البدويين فأوهماه بقصة تقهقره ! وظل رع مس سو يتقدم الى الشمال من غرب قادش ، على حين ظل مواتالى ينسحب الى جنوبها الشرقى خلسة ، كى تظل المدينة فاصلا بينهما ،

فاذا به بذلك قد طوق الفرعون فى حركة التفاف خطيرة بحيث كان فى استطاعته أن يعزله وفيلقه عن سائر جيشه ويدمره تدميرا !

أما القوات المصرية فقد كانت متفرقة تفرقا خطيرا على مسافات شاسعة ، وكان ضباط فيلقى رع وبتاح يستريحون فى الغابات المجاورة ، بعد سيرهم المرهق الحثيث • وكان فيلقا آمون ورع قد اقتربا من قادش ، على حين ظل فيلق بتاح بعيدا فى الجنوب لم يعبر فرع النهر بعد ، أما فيلق سوتخ فقد كان بعيدا غاية البعد فلم يسمع عنه شىء ولم يشترك فى المعركة فى ذلك اليوم ••

وصل « رع مس سو » الى قادش عند الظهر فلم يجد للعدو أثرا ، فقرر أن يضرب خيامه للراحة ، ثم وصل آمون بعد قليل وطفق يضرب خيامه حول السرادق الملكى ويقيم الاستحكامات الخارجية حول المعسكر ، وظلت عجلات المؤونة ترد تباعا فتفصل عن الثيران • وجمعت النقالات ذات العجلتين فى مكان منفرد ، وتهيأ الجنود للراحة والغداء ••

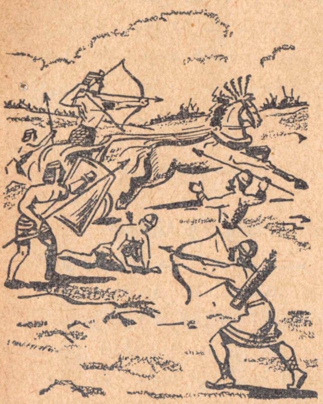
جاسوسان يفضحان خطة العدو !

◆ **وبينما** كان الفرعون جالسا فى أريكته ينعم بالراحة ، اذا باثنين من ضباط المخابرات قد قبضوا على جاسوسين من رجال « مواتالى » • **ولم ينطق الجاسوسان الا بعد أن ضربا ضربا مبرحا ، فاذا هما يسمعان الملك ، ويا هول ما يسمعانه : ان العدو يوشك أن ينقض من وراء المدينة ! •• وروع « رع مس سو » للانباء فانهال على رجاله لوما وتقريعا على غفلتهم وتقصيرهم ، ولكنه أعمل فكره فسأل عن مواقع فيالقه فعرف أن فيلق رع قد وصلت طلائعه ، وان فيلق بتاح ما زال فى الطريق ، فأمر وزيره باحضاره فى الحال • وكان « مواتالى » قد عبر النهر جنوبى قادش بقواته كلها ، فانقض على فيلق رع وفاجأه وهو سائر غير مستعد للقتال فشطره شطرين ! وكان هذا الفيلق كله من الشباب ، على حين كانت قوات الحيثيين كلها من العجلات ، لذلك فقد أبيدت مؤخرة الفيلق واندفع سائره مذعورا تاركا معداته مبعثرة فى الطريق ! وهرع الرسل الى الملك يحملون أنباء الكارثة ، فى اللحظة التى اندفعت فيها فلول رع وفيها ولداه الى معسكر آمون هلعين جزعين وفى أعقابهم عجلات الحيثيين التى تنيف على الالفين والخمسمائة !**

أما فيلق آمون فقد صعق لهول المفاجآة ، اذ كان أعزل من السلاح مخلدا الى الراحة بعد عناء الطريق ، فاذا بالذعر ينتشر بين وحداته فتندفع الى الشمال نحو خيام الملك حيث سادت الفوضى وعم الهلع !

مجد مصر فى كفة الميزان !

◆ **وكانت** لحظة رهيبة تزعزع الثقة وتزلزل النفوس ، ومع ذلك فقد احتفظ الملك بجأشه ولم يتردد فيما ينبغى أن يفعل ، رغم الخطر المحدق وقصر الوقت



وانعدام الفرصة،فاذابه يعتلى عجلته ويقود حرسه الخاص وطائفة أخرى من الجنود والضباط الذين كانوا قريبين منه ، وحاول فى جهد اليائس المستميت قطع جحافل العدو المتدفقة عليه من الغرب ليلحق بقواته ، ولكنه اضطر الى الارتداد ، فقد كانت قوات العدو وعجلاته سيولا تكتسح ماأمامها! ٠٠ كانت معركة حياة أو موت ، معركة يزداد فيها اليقين قلة والشك كثرة ٠ **وحانت** منه لفتة فرأى أن الجناح الشرقى من النطاق المضروب حوله على طول النهر قليل العمق ، فركز هجومه عليه : اندفع **بعجلته بأقصى ما يستطيع جواده من سرعة فى قلب الاعداء فدهم من دهم وقتل من قتل حتى استطاع أن يحدث ثغرة فيهم وألقى بكثير منهم الى النهر ، ومنهم أمير حلب ! ومع ذلك فقد كان ضغط الاعداء عليه من الغرب عنيفا ، وقد ظل يقاتل فى نفر قليل ثلاث ساعات متواليات ، حتى خارت قواه ٠ وفى تلك الساعة الرهيبة ، وصلت امدادات من حامية الساحل ، فانقضت على الاعداء من الخلف فجأة فأعملت فيهم القتل حتى أبادتهم ، وبذلك أتيح لفرعون أن يسترد عزمه ويستجمع قواته ويلم شتات جنده ٠ وطفقت وحدات آمون الهاربة تعود الى معسكرها وتنضم الى المدد ، فارتفعت روح المصريين واستماتوا فى الدفاع ، حتى اضطر « مواتالى » أن يقذف فى الميدان بآخر قواته الاحتياطية ومقدارها ألف عجلة حربية !**

ومرت الدقائق كالدهور ومالت الشمس الى مغيب ، وكاد الأمل فى الخلاص يغرب مع الشمس ٠٠ واذا بالافق يتلألأ برءوس الحراب من فيلق بتاح تقبل مسرعة لامعة مكفهرة ، فابتسم محيا « رع مس سو » : لقد نجا ! ونجا معه شرف دولة عظمى ، دولة ذات حضارة وثروة أوشكت أن تنهار فى ساعات قلائل ! وانقلب ميزان المعركة ، ووقع الحيثيون بين قوتين ، فتكبدوا خسائر فادحة ولحقت بهم الهزيمة ، ثم اضطروا الى الانسحاب داخل أسوار قادش ٠٠ ولم يجن الليل الا وقد انعقد لواء النصر لفرعون وجيشه فاستردت مصر سمعتها وشرفها العريقين !

وأبى « رع مس سو » الا أن يشدد النكير على الاعداء ويهاجمهم مرة بعد مرة ، حتى يئسوا فأرسل مواتالى كتابا يطلب فيه الهدنة ، فأجابه « رع مس سو » الى طلبه وعاد ظافرا الى مصر !

•وفى طيبة احتفلت مصر احتفالا هائلا مشهودا ، حيث قدم الملك للآلهة «أسراه الشماليين الذين أرادوا هزيمة جلالته ففتك بهم وأحضر أسراهم ليخدموا فى مخازن أبيه آمون» ، وانتحل لنفسه لقب «مذل الاراضى والبلدان دون سواه» ! وخلدت هذه المعركة على جدران المعابد وفى القصائد الطوال التى اشتهرت منها قصيدة « بنتأور » .

حملاته وفتوحاته العريضة ، طوال ١٥ عاما

◆ **ومهما** يكن من شىء فان النصر الذى أحرزه الفرعون لم يكن حاسما فاصلا ولم يكن له أثر فى نفوس حكام فلسطين .. وعاد الحيثيون الى التحرش بالمصريين فوطدوا نفوذهم فى آسيا ، وبثوا الفتن والقلاقل فى المستعمرات المصرية هناك حتى اندلعت الفتنة فى كثير من مدن الشام بزعامة « عسقلان » فزحف «رع مس سو» عليها فى السنة الثامنة من حكمه فحاصر الثوار المعتصمين وراء أسوار المدينة وانزل بهم العقاب الصارم !

ثم أخذ بعد ذلك يتجول فى مدن الجليل الغربية حيث التقى مع حرس الحدود الحيثيين فى بلدة (طابور) فاستولى عليها بعد أن أوقع بهم الهزيمة ، ثم أغار على (حوران) والجليل شرق البحر حيث ترك هناك شاهدا حجريا أثبت عليه غزوته.

وعاد فى حملات أخرى فزحف على وادى الاورنط وطرد الحيثيين منه ثم استولى على قادش ودحر الجيش الحيثى فى شمالها .. وزحف بعد ذلك على (تونب) فى بلاد النهرين فاستولى عليها ونصب فيها تمثالا لنفسه ، ولم يكن اخضاعها سهلا ولا يسيرا ومع ذلك فانه أضطر أهلها من الحيثيين الى النزول على حكمه ، والرضى بسلطانه ، ولذلك فما اسرع ما عادت الفتنة فشبت من جديد فى (تونب) ! .. وفى هذه المرة طرد رع مس سو الحيثيين منها فى موقعة خطيرة تعرض فيها للقتل ـ اذ كان يقاتل من غير درع يحميه من السهام ـ ثم استولى على بلاد النهرين وشمالى سوريا وارواد وحمص ، وبذلك قوض ـ بفضل مهارته الحربية ومثابرته ـ أملاك الحيثيين فى سوريا ، وظل مثابرا على الحروب فى آسيا أكثر من خمسة عشر عاما ، حتى حدث ما حمل الحيثيين على وقف الحرب فجأة ، فقد مات «مواتالى» وخلفه أخوه «خاتوسل» الذى كان فى حاجة الى تثبيت مركزه فى العرش واسكات معارضيه فعرض على «رع مس سو» الصلح ، فقبل . . . ودارت المفاوضات بين الطرفين حتى تمت الموافقة على مشروع معاهدة بينهما . .

وفى السنة الحادية والعشرين من حكم فرعون مصر «رع مس سو» (أى حوالى سنة ١٢٧٢ ق.م) وصل الوفد الحيثى الى القصر الفرعونى فى بر «رع مس سو»،

حيث تم التوقيع على الصيغة النهائية للمعاهدة التى تتآلف من تسع عشرة مادة نقشت على لوح فضى .. واليك بعض نصوصها :

المادة الاولى : معاهدة منقوشة على لوح فضى بين ملك الحيتيين « خاتوسل » العظيم بن مورسيلى ملك الحيتيين العظيم .. وبين « رع مس سو » الملقب «وسرماعت رع ستبن رع» حاكم مصر الاعظم الشجاع .. أبرمت هذه المعاهدة الطيبة لحفظ السلام والاخاء واستتباب السكينة بين الطرفين الى الابد .

مادة ٤ : ولن يعتدى ملك الحيتيين العظيم على أرض مصر آبدا بآخذ شىء منها، ولن يعتدى «وسرماعت رع ستبن رع» حاكم مصر العظيم على أرض (خيتا)لاخذ شىء منها أبدا .

مادة ٦ ، ٧ (وملحقهما) : التحالف المصرى الحيتى اذا أتى عدو آخر لأراضى أحد الطرفين وأرسل الى الطرف الآخر .. فان عليه أن يأتى ويذبح عدوه .

مادة ١١ ، ١٣ (تسليم اللاجئين السياسيين) : اذا فر رجل عظيم من وطنه وجاء الى أرض الطرف الآخر ، أو الى بلد تابع له ، فعليه ألا يستقبله ، بل يأمر باعادته الى وطنه .

مادة ١٢ ، ١٤ (تسليم المجرمين) : اذا فر رجل أو أكثر الى أرض الطرف الآخر فيجب ألا يقيموا فى أرضه بل يجب أن يرسلوا الى وطنهم .

ثم يلى ذلك فى آخر المعاهدة اشهاد الآلهة على قدسية المعاهدة ، واستمطار اللعنات على من ينقضها !

مصاهرة بين الملكين العظيمين !

◆ **وحرص** العاهل الحيتى على هذه المعاهدة وعلى دوام السلام بين الدولتين. وكان يرسل الهدايا الى مصر ما وجد الى ذلك فرصة ، وكان حريصا على أن تكون الصداقة بين الشعبين من أسس السياسة فى دولته ، فخاطب رجال بلاطه مذكرا اياهم بأن بلادهم كانت قد اجتيحت بالحروب ، وانهم انما تخلصوا من شرورها بفضل مصر ولين جانبها ورحمتها .. **لكنه اراد أن يزيد العلاقة قوة وثباتا فقرر أن يزور مصر بنفسه وأن يصطحب معه كبرى بناته ليزوجها من الفرعون العظيم، حتى «يعترف بوجوده» على حد قوله !**

واستعد «خاتوسل» ملك خيتا للرحيل استعدادا عظيما ، وتقدمته الرسل الى مصر بالهدايا من الذهب والفضة والخيل الموسومة ومعها حرس شرف من الجنود . فلما وصل الركب الى سوريا كتب الحاكم المصرى هناك الى رعمس سو قائلا : «ان ملك خيتا ، على رأس وفد من رجاله ومعهم كبرى بناته ، قد حضروا الى ومعهم الهدايا من كل نوع بعد ان قطعوا الجبال الكثيرة وقاسوا رحلة شاقة من بلاد نائية ، ونحن فى انتظار التعليمات التى ستتبع معهم» .

وأعلن فرعون مصر سروره رسميا بذلك الحدث العظيم ، وحسبه انه لم يسمع فى تاريخ مصر من قبل أن ملكا عظيم الشأن قوى السلطان مثل ملك خيتا يتجشم السفر بنفسه ليزوج ابنته من حليفه ! ومن ثم راح العاهل المصرى يعد العدة لاستقبالهم الاستقبال اللائق بعظمة مصر ، وأرسل حرس شرف ليصحب تلك الفتاة التى توشك أن تزف اليه وأباها الى قصره .

وبلغ الوفد فى موكب حافل عظيم بلدة «بر» (رع مس سو) ومن ورائه الجنود المصريون والخيتيون ، واذا بمصر تشهد أعيادا رائعة وحفلات فخمة ، مدت فيها موائد الطعام والشراب بسخاء مصرى منقطع النظير ! ثم عقدت مراسم زواج الفرعون من الاميرة الخيتية «فى حضرة عظماء القوم وأمراء الارض جميعا» وأصدر الملك أمره فخلع على عروسه لقب «ملكة» تكريما لها عن أن تكون كسائر محظياته اللاتى زدن على التسعين ! واطلق عليها اسما مصريا هو «ماآت نضرورع» .

وصف عاصمة مصر فى عصر رمسيس

◆ **وانتهت** بذلك حروب طاحنة دامت أكثر من خمسة عشر عاما ، ونعمت مصر بسلام دائم بعد أن بسطت سيطرتها على آسيا ودان لها ملوك الشرق القديم وتدفقت عليها الاموال الكثيرة والجزى الضخمة والهدايا السنية من كل مكان ، فكان أن تمتعت بالثروة والرخاء ، وأصبحت العاصمة المصريه الجديدة (بر رع مس سو) عاصمة العالم القديم ، وكان ميناؤها غاصا بسفن التجارة من أسطول مصر العظيم يرد اليها حاملا نفائس الشرق وجزر البحر المتوسط واليونان .. كما كانت السفن المصرية تجرى فى البحر الاحمر مشترية وبائعة ، فتدفقت الاموال على المصريين الذين تأنقوا فى طعامهم ولباسهم واقبلوا على الشراب والغناء وانفاق الليالى فى سماع الموسيقى أو سرد قصص البطولة والغرام ، كما تأنقوا فى لغتهم وألفاظهم فاستعملوا طائفة من الالفاظ الاجنبية ـ دليلا على الثقافة ، كما نفعل نحن اليوم حين نحشر الكلمات الانجليزية والفرنسية فى أحاديثنا ! ـ وأبدع الشعراء والكتاب فى مدح الفرعون ووصف عاصمته ، ومن أحسن ما ورد فى هذا الصدد وصف كاتب بعث لاستاذه يحدثه عن مدينة (بر رع مس سو) ويصفها له ، فيذكرنا بوصف بغداد فى عصر الرشيد ، قال :

« تحية لأستاذى وبعد ، فقد وصلت مدينة «رع مس سو» محبوب آمون ، فراعنى أنها أروع ماتكون ازدهارا واجمل ماتكون موقعا ، أما مقر الملك فما أبدعه واحب الاقامة فيه : فالحدائق من حوله غاصة بكل طريف جميل ، والاطعمة تتدفق عليه فى كل يوم ، على حين تزخر المياه من ورائه بالاسماك ، وتزدحم بركه بالطيور ، وتزدهى مراعيه بالعشب النضر الكثيف الذى يبلغ طوله ذراعا ، أما الفاكهة فى حدائقه فهى كالشهد حلاوة .. وقد ازدحمت خمائله بالزهور وتوفر فيها الرمان والتفاح والزيتون والتين ... وكذلك

توفر النبيذ من صنف حلو يفوق الشهد ، وراعنى السمك الاحمر فى بحيرة القصر .. حقا ان المرء ليبتهج بالاقامة فيهـا حيث يجد ما يشـاء ، وحيث يتساوى الكبير بالصغير . أما شبابها فهم متأنقون فى ملابسهم كأنهم كل يوم فى عيد ، وترى فى شعورهم المرجلة لمعة زيت الزيتون الطيب . . واما الاهلون فهم يقفون عند ابواب بيوتهم وأيديهم مثقلة بالطاقات من الزهور الناضرة » .

وكان الشعراء يصفون (بر رع مس سو) بأنها تلك المدينة « ذات الشرفات الجميلة الساطعة ، والقاعات المحلاة باللازورد والزمرد ! »

المدن والمعابد والمسلات التى أنشأها ..

◆ **ومن المحقق** أن فتوحات مصر لم تكن وحدها مصدر ثروتها ورخائها ، فقد كان الملك دائب العمل جم النشاط حريصا على نشر لواء العز فى البلاد وكان لاقامته في شمال مصر أثر فى ترقية مدنها وتعظيم شأنها ، ولكنه مع ذلك لم يهمل شأن الصعيد وانما وجه اليه من الاهتمام والعناية ما لا يقل عن اهتمامه بعاصمته الجديدة . وقد دفعته عنايته بالتجارة الى العنايه بوادى (طمبلات) والقناة التى تصل النيل بالبحر الاحمر ، تلك القناة التى قامت فى الماضى بما تقوم به قناة السويس الآن

وكان الملك مغرما بالعمارة والبناء والنحت غراما شديدا ، فأنشأ عشرات المعابد والآثار فى أنحاء مصر والنوبة من أقصاها الى أقصاها .. ومن هذه المعابد مايروع بضخامته الهائلة التى تحبس على المشاهد أنفاسه دهشة وعجبا - كالذى بناه الكرنك والاقصر وأبو سنبل - ومن المسلات والتماثيل والآثار الاخرى عشرات لا تكاد تقع تحت حصر ، منهـا ذلك التمثال الذى يوشك أن ينهض فى ميدان نهضة مصر فى هذه الايام . ومنها مايبلغ أضعافه فى الحجم كتمثال الاقصر الذى يقارب طوله ثلاثين مترا ويزيد وزنه على ألف طن ! - وكلها منحوتة من قطعة واحدة من الحجر ! - ومن تماثيله تلك التحفة الممتازة الخالدة التى تمثله فى شبابه ، وهذا التمثال موجود اليوم فى متحف (تورين) بايطاليا مع الاسف الشديد .

وكم أود أن يعتنى أولو الامر فيصبوا قالبا له ولامثاله من التحف التى خرجت من بلادنا ، كى تعرض هذه القوالب - على الاقل - فى متحف القاهرة فيتمكن المصريون من رؤيتها .

وفى (تانيس) أقام « رع مس سو »ماينيف على أربع عشرة مسلة - تهشمت كلها الآن ! - وفى روما الآن ثلاث مسلات له ، وفى باريس احدى المسلتين اللتين نصبهما فى الاقصر .. ولم تقتصر همة ذلك الفرعون العظيم على انشاء المعابد والمسلات وانما تجاوزتها الى انشاء المدن ، فشيد ثلاث مدن غير عاصمته الجديدة

ومن المحقق أن هذه العمارات الضخمة قد تطلبت مجهودات عظيمة وعمالا كثيرين ، وكان أسلافه من الملوك كثيرا مايسخرون فى مثل ذلك أسرى الحروب أما فى عهد « رع مس سو » فقد أصبح جلب الاسرى بعد أن توقفت الحروب عسيرا فعمد الملك الى فرض السخرة ـ لتنفيذ هذه الاعمال ـ على أفراد الجالية الضخمة من العبرانيين (بنى اسرائيل) التى كانت فى مصر ..

زوجات .. ومحظيات .. وذرية لا يدركها الحصر !

• **أما** حياة « رع مس سو » الشخصية فقد أتيح له فيها أقصى مايمكن أن يتاح لملك فى مثل عصره من ترف.**وكان بطبعه ميالا للمرح فأكثر من الافراح والاحتفالات ، مطلقا لشهواته العنان ، فأكثر من زوجاته ومحظياته ـ كما تزوج ثلاثا من بناته ! ـ وبلغت ذريته من الاناث احدى وخمسين بنتا ، ومن الذكور أحد عشر ومائة ولد ، تولى معظمهم مناصب الدولة العليا .. وكان عدد من أنجب من زواجه ببناته مايربى على اثنى عشر ذكرا وأنثى . وكان الملك شديد الفخر بأسرته وذريته ، فرسم أفرادها من الذكور والاناث على جدران المعابد صفوفا صفوفا . وقد أنجب أبناؤه هؤلاء بدورهم عددا لاحصر له من الاحفاد ، حملوا اسمه نحو أربعة قرون .. حتى صار اسم « رع مس سو » مرادفا لالقاب الامارة . وكان مفتونا بحب العظمة والاقتناء ، حتى لقد كان يغتصب آثار أسلافه بنقش اسمه عليها ، ونسبتها لنفسه !**



رأس مومياء رمسيس الثانى (دار تحف القاهرة)

ولقد توفى كثير من أبناء « رع مس سو » فى حياته ، واحدا من بعد واحد ، ومن بينهم بكر أبنائه وأعزهم اليه « خع م واس » بحيث لم يرثه على العرش الا الابن الثالث عشر « مرن بتاح » (منفتاح)

وما من شك فى أن ما تراكم على كاهله من السنين وما بذل أثناءها من جهود ضخمة عاش طوالها فى حركة دائبة ، قد أثر فى صحته .. فضعف جسمه واضمحل سمعه ، فقضى أواخر ايامه هادئا لا يكاد يعنى بشىء حتى توفى وقد بلغ من العمر نيفا وتسعين عاما

وفى تابوت من الزجاج فى متحف القاهرة يقف المرء اليوم خاشعا شاردا

مشدوها ، وقد غمرته لجة الزمان السحيق وهو ينظر الى جثمان ذلك الرجل الذى دوخ الدنيا وملأها دويا ، وذلت له الاعناق وعنت له الجباه ٠٠ يقف حيال جثمان لم يفارقه الجلال وان كان يغمره سكون عميق منذ خمسة وثلاثين قرنا من الزمان !

الملك الجبار ٠٠ !

◆ **وبعد** فها هى ذى صورة من حياة ملك جبار فى كل ما صدر عنه : جبار فى حروبه ، جبار فى عزمه وعزيمته ، جبار فى منشآته وجلائل أعماله ، جبار فى سطوته وجبروته ، حتى طبع على لقب « الفرعون » فى أذهان الاسرائيليين بل وعند عامتنا اليوم معنى العبقرية والقسوة والجبروت !

وقد آن لنا أن نرفع تمثاله اليوم رمزا لنهضتنا وما نحن مقبلون عليه من جهد جبار ، لانشاء مصر الغد ٠٠

حوافز الحياة



النفس والجنس .. والمجتمع ..

عزيزى القارىء ..

فى هذا الباب قدمت لك فى الأعداد الماضية من كتابى ، الكتب الآتية على التوالى : « كيف تصارح أولادك وبناتك بالحقائق الجنسية » ثم « طريق السعادة الزوجية » و « مركب النقص » و «حواء الجديدة» و « كيف تقهر الخجل » و « كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة »

ثم قدمت لك بعد ذلك من « فنون الحياة » التى شرحها المفكر العالمى « أندريه موروا » : فن الحب ، فن الزواج ، فن الحياة العائلية ، فن الصداقة ، فن العمل ، فن الزعامة ، فن التفكير ، وأخيرا فن الاستمتاع بالشيخوخة ..

ثم قرأت معى فى هذا الباب فصول كتاب « غزو السعادة » لبرتراند رسل .. فكتاب فرويد المشهور « التحليل النفسى » ، يليه « كيف تضاعف من نجاحك فى الحياة » .

ثم « الجنس الآخر » ، و « عش حياة ايجابية » ، و « أبواب الحب المغلقة » ، و « فن الحب » ، للشاعر الرومانى أوفيد .. ثم « الانتصار على الخوف » ، للاخصائى المعروف « جيمس بندر » .. و «عش بحكمة تعش سليما» للاخصائى الالمانى « برنارد ديتمار » ثم : « كيف تتجنب متاعب الاعصاب المرهقة » لويلفريد نورثفيلد .. و«كيف تفسر أحلامك » لهربرت هيسبرو .. و « كن متفائلا » لفيكتور بوشيه .

واليوم ، أقدم لك هذا الكتاب الطريف فى « تاريخ الغزل » !



تاريخ الغزل

منذ عهد الإغريق الى اليوم !

للكاتب الأمريكي ا . س . تيرنر

قصة آدم وحواء !

◆ منذ كتب شاعر الرومان القديم « أوفيد » كتابه المشهور : « فن الحب » ـ الذى لخصته لك فى العدد ٢٨ ـ الى ان كتب الطبيب والباحث الامريكى المعاصر دكتور « كينسى » بحثيه المتتاليين اللذين أثارا أكبر ضجة ، وهما : « السلوك الجنسى عند الرجل » و « السلوك الجنسى عند المرأة » ·· كانت العلاقات بين الجنسين موضوعا لعشرات الالوف من الكتب والابحاث ·· غير أن الكتاب الذى أقدمه لك اليوم ـ فى الصفحات التالية ـ ينفرد دون سائر الكتب الاخرى بأنه يعرض لهذا الموضوع الازلى ، الابدى ، من زاوية مبتكرة جديدة : هى دراسة تطور أساليب الغزل والاختلاط بين الجنسين منذ أقدم العصور ، وفى شتى البيئات ، الى اليوم ·· فهو يتيح لك أن تتابع موكب المجتمع الانسانى منذ عاشت نساء الاغريق يرسفن فى القيود ، حتى أخذت نساء روما بثأرهن ، فاستبحن كل ألوان التهتك والفجور ! ·· ثم يقص علينا أطوار العلاقات بين الجنسين فى عصر الفروسية ، وعصر النهضة ، والقرن السابع عشر ·· ثم مدى ما أسدته المخترعات الحديثة من « خدمات » للحب ، وما استحدثه من أساليب الغزل ظهور السكك الحديدية ، فالبريد ، والبرق ، والدراجات ، والتليفون ، والسينما ·· وأخيرا ما يتهدد الهوى من أخطار قد تنجم عن تعميم التليفزيون ! ·· الخ ···

فتعال معى نقلب صفحات هذا الكتاب الشائق :

نظام « الحريم » عند الاغريق !

◆ **من** المغالاة أن نقول ان الغزل بين الرجال والنساء كان معروفا فى « شوارع » اثينا فى عهد الاغريق ، فقد كان النساء يخضعن لقيود تلزمهن البيوت بدرجات متفاوتة . **فكانت العذارى يعشن فى عزلة تامة فى أجنحة الحريم ، وان لم يكن يعدمن وسيلة لاستراق النظر الى العالم الخارجى خلال النوافذ العليا ، ومن وراء السجف والمصاريع ! ·· وكان من المباح لهن أن يحضرن بعض الحفلات ومهرجانات الاعياد ، فى حراسة الاهل الاقربين ، بيد انه لم يكن لهن أن يلتقين**

بشبان ، ومن ثم لم تكن الفرص تنفسح أمامهن كى يقعن فى الحب ! ·· بل كانت كل منهن تدرك انهـا لن تلبث اذا آن الاوان ، أن تزف الى رجل ذى خبرة بالنساء ، قد يكون رقيقا ، عطوفا ، يبدى الود والمجاملة ، ولكنه فى أغلب الاحتمالات قد يكون نفورا ، كارها ، فى ضعف عمرها ، وأربعة أمثال ذكائها وحكمتها ! ·· وكيفما كان الامر ، لم تكن الفتاة تشقى بالبحث عن الزوج ، أو تحفل بما اذا كانت تحبه أو لا تحبه ، اذ لم يكن اختياره فى يدها ، ولم تكن تملك أن تنتقـد ما يفرض عليها !

وكان رجال (أثينا) يرجئون الزواج ما اسـتطاعوا ، مؤثرين عليه العلاقات المتحررة ·· اذ لم يكن للـزوجات من واجب ـ فى نظرهم ـ سوى الاكثار من النسل لحفظ النوع ·· ولما كانت هذه أمانة « مقدسة » فى أعناق الزوجات ، لذلك كن ينصرفن اليها ، فلا يجدن وقتا للاختلاط والهوى ··

شيوع الخيانات الزوجية عند الرومان

◆ **أما** نساء (روما) ـ فى عهد الجمهورية الاولى ـ فلم يكن سجينات البيوت ، وانما كن يرتدن الملاهى العامة ، ويساهمن فى الحياة الاجتمـاعية · **وكان الازواج الرومان ، كزمـلائهم الاغريق ، يولون زوجاتهم المحبة والعطف ـ اذا كن اهـلا لذلك ـ دون أن يقيدوا أنفسهم ب « الولاء » لهن ، اذ لم يكونوا يرون فى البغاء ذنبا · كان الحب العاطفى وقفا على الزوجات ، والحب الشـهوانى للجـوارى والبغايا ·· أما الحب العفيف السامى ، فكان نوعا من الخبل لا يمنى به سوى الشعراء !**

وفى هذا المجتمع الفاسد ، ولد فى آخر أعوام الجمهورية ، الشاعر « أوفيد » الذى وضع ذلك الكتاب الطريف ، الخالـد « فن الحب » ـ الذى لخصته لك فى العدد (٢٨) ـ والـذى لو أخذت بعض فقراته المكشوفة على معناها الحرفى ، لكانت باعثة على الدهشة والاستنكار ·· فهو ـ مثلا ـ ينصح العاشـق

بالتودد الى زوج عشيقته لان هذا أدعى الى تمهيد الطـريق أمامه ٠٠ ويقول ان أفضل وقت لمـراودة امرأة تصر عـلى الصدود ، هو الوقت الذى تكتشف فيه أن زوجها يخونها ، اذ تستجيب ساعتئذ للغواية ، كى تنتقم لنفسها منه !

والحب الذى تحدث عنه « أوفيد » فى كتابه ، ليس سوى دعوة الى اقتناص زوجات الغير ، كنوع من « الرياضة » التى وضع لها بعض القواعد ! ٠٠ على أن كثيرا من النصائح التى أوردها ، تفرضها اليوم آداب السلوك فى المجتمع : من ذلك ان السيدة ذات الفم الكريه الرائحـة لا يجب أن تقترب من حبيبها ومعدتها خاوية ، ويجب أن تنظف أسنانها ، ولكن فى غير حضوره ٠٠ كذلك لم ينس أن ينصح النساء بازالة الشعر عن الساقين وتحت الابطين ٠٠ أما الرجال فنصـحهم بأن لا يسرفوا فى التجمل ، ولكن اهمالهم يجب ألا يمتد الى الاظافر والى السوالف ـ الشعر النامى فى أعلى الصدغين ـ والى فتحتى الانف ٠٠ وينبغى الا يترك الرجل لحيته حتى تخدش وجنتى حبيبته اذا ما قبلها ٠٠ كما يجب ألا يفسد نظام شعرها وهو يعانقها !

نشأة الهوى العذرى

◆ **ولم** يعرف الحب العذرى الشاعرى ـ الذى تتحدث عنه القصص ـ الا فى القرن الثانى عشر ٠ أما قبل ذلك ، فكان مهملا منبوذا ، اذ بلغت قحة المرأة وخلاعتها أوجهما ، فتداعت الحشمة ، وتضاعف الاستهتار ٠٠ وبدت أعـراض ذلك فى غمزات العين ، و « الطرقعة » باللسان ، والحركات الخليعة ٠٠ كما بدت فى اتساع الاكمام ، وضيق صدور الاثواب ، وامعان كعوب الاحذية فى الارتفاع ٠٠ ولم تعد العـذارى يعـانين رقابة شديدة من الامهات ، بل أصبحن يقسن مدى نجاحهن فى المجتمع بعدد صرعى هواهن ! ٠٠ وبدأت المرأة تحلق فى فضاء التحرر ، سيما حين شغل عنها الرجل بالحروب المتوالية

التى نشبت فى أوربا فى تلك العصور ٠٠
وفى هذه الظروف ، ظهر الشعراء الذين كانوا يتغنون بالهوى والشجون والوجد المكبوت ٠٠ وذلك الحب «الشاعرى» الذى يسمح للغريزة الجنسية الطبيعية السليمة بأن تذكى بلهيبها الخيال ، فتنصرف الى الاحلام ، دون أن تنال اشباعا جسديا ، لا سيما اذا كانت ثمة موانع أدبية وخلقية ودينية ، أو موانع من سلطان الآباء ويقظتهم ٠٠

ورويدا ، اعتاد القوم أن تكون المرأة هى باعثة الالهام وباعثة اليأس لشاعرها العاشق ٠ وراض الزوج نفسه على الفخر بتشبب الشاعر وقرضه الشعر متغزلا فى زوجته ، بل كان يغض البصر اذا جاوز الشاعر حدود الشعر !٠٠ وكان من المباح للزوج ـ في الوقت ذاته ـ أن يتغزل فى زوجة سواه وأن يهيم بها هياما شاعريا !!

وكانت ثمة أربع مراحل للحب ، من الوجهة النظرية : الهيام عن بعد ، فالابتهال والتوسل ، فاعلان الحب ، فقبول الحبيبة ٠٠ وهذه المرحلة الاخيرة تبيح للعاشق ، اذا ما بلغها ، كل جزاء يروق للحبيبة أن تؤثره به ـ وان كان ثمة عشاق طاب لهم أن يعيشوا فى كبت دائم !

يبتر أصبعه ويرسله الى محبوبته !

• **واستعار** الحب العاطفى من أساطير الاقدمين خيالا وألوانا ، كما بعث هذه الاساطير الى الحياة من جديد وأضفى عليها بهاء ، فأصبحت قصص «طروادة» و «الملك ارثر » تتردد على ألسنة فرسان الحملات الصليبية ٠٠ واقتبست الملكة « اليانور » ـ أم ريتشارد قلب الاسد ـ التقليد الذى جرت عليه أميرات العهود القديمة ، فعند ما رحلت الى فرنسا لتزف الى لويس السابع ، اصطحبت معها شعراءها الذين كانوا يتغنون بجمالها ٠٠ ثم صحبتهم مرة أخرى حين فشل الزواج فرحلت لتزف الى الامير هنرى ، الذى غدا ملكا باسم هنرى

الثانى ٠ وأخذت عنها ابنتها كونتة « شامبانى » هذا التقليد ، فكانتا تعقدان « ندوا ت» للهوى ، تحل فيها مشكلات الفرسان العاطفية ؟!

على أن الشعراء تمادوا فى الاسفاف ، حتى ان منهم من بتر أصبعه وأرسله الى معبودته ! أوارتدى ثياب المتسولين واندس بين المبروصين لدى بابها التماسا لنظرة منها ! ٠٠ وما الى ذلك من اسـفاف لم يكن له من داع ولا مبرر ٠٠ بيـد ان الحب العاطفى لم يلبث أن ألان من ناحية أخرى عواطف الفرسان ، وصرفهم عن المنـازعات والقتال ٠٠ ثم نشأت على أنقـاض الاقطاع وتقاليده ، طبقة جديدة من السادة ، فى مكان الفرسان



فى القـرن الرابع عشر ٠٠ حلت عقد الحب ٠٠ فى بلاط الغـرام ٠٠ كما تخيل الرسام !

٠٠ فظهر السيد الانيق المهذب « الجنتلمان » ، ذو الخصال الرقيقة ـ الذى لا يزال موجودا فى أوربا ـ وكان الذى يرقى الى طبقة السادة أو علية القوم ، من أبناء الطبقات الاخرى ، يلقن كيف يكون على حذر من أن يستخدم فحش القول أو بذىء الكلمات اذا ما كان فى مجلس ، ومن أن يعلق « المسواك » فى رقبته لينظف أسنانه أمام الناس ، أو أن « يهرش » بعض الاماكن من جسمه بمشهد من سواه ، أو ينظر فى منديله بعد المخاط ٠٠ الخ

يتغنى بالحب العذرى ٠٠ وينجب سفاحا !

♦ **وجاء** عصر حافل بالمتناقضات : بالغزل والمجاملات ، وبالقسوة ٠٠ بالفن ، وبالاصطناع الزائف ٠٠ بالتصوف ، وبالتهتك ! ٠٠ فى ذلك العصر وجد « بوكاشيو » و « رابيليه » ٠٠ وفيه أيضا نشأ « دانتى » و « بترارك » اللذان كتبا فى الحب المتسامى فوق ما كان يخطر بخيال شعراء الغزل ، حتى لقد ذهب « دانتى » الى أن لا حياة للحب العذرى فى الدنيا ، ولكن أرواح العشاق المعذبين تتألق وتمتزج فى فيض من النور الربانى ! **وكانت ايحاءات « دانتي » و « بترارك » تبدو ـ تحت أضواء تعاليم رجال الدين ـ باعثة للسخرية ، اذ أن « دانتى » الذى تغنى ببياتريس وهواها كان متزوجا وأبا لاولاد ٠٠ كما كان لبترارك ـ الذى خلد سيرة امرأة متزوجة من أهالى (أفينيون) ـ ولدان أنجبهما سفاحا من امرأة أخرى !**

وما لبث أن ظهر عامل جديد فى ميدان الهوى والغرام ، ذلك هو عامل الخلوة والتكتم ٠٠ فقد كان هذا العامل مفتقدا فى أيام الاقطاع ، حين كانت الحياة فى القصور الملكية أشبه بالحياة فى الاحياء الفقيرة الحديثة ٠ **كانت كل الغرف متصلة بعضها ببعض ، وكانت كافة النزوات ، والغراميات ، تجرى علنية على مرأى من الجميع !** ٠٠ ثم تطورت فنون العمارة ، وظهرت الردهات ، والمخادع الخاصة التى لم تكن تكفل الخلوة فحسب ،

وانما كانت مجهزة أيضا بكافة أسباب الراحة ٠ فما ان حل القـرن الرابع عشر ، حتى كانت حجـرات النـوم مزدانة بالستائر ، والحجب ، والرسوم على الجدران ٠٠

وجاءت التجديدات فى الحدائق والبساتين عونا آخر للهوى والغزل ٠ فقد كان العشاق فى الماضى يلتقـون فى الاراضى المحيطة بالحصون الاقطاعيـة ، حيث كانت تنبث الخمـائل والمخابىء المكسوة بفروع الاشجار ٠٠ وما لبثت أن ظهـرت فى ايطاليا وفرنسا المتاهات ـ وهى دروب متداخل بعضها فى بعض على طريقة « بيت جحا » بمدينة « المـلاهى » ـ وكانت تقام فى حدائق القصور ، ليلوذ بها العاشـقان من عيـون الرقباء ، لا من أندادهما فحسب ، بل ومن الخدم أيضا٠ **وكانت ثمة حيل مرحة يبتكرها الشاب لاستدراج الفتاة الى ارضـاء رغباته ، كأن يتفقا على أن ينطلقا بغية الوصـول الى مركز المتاهة ، حتى اذا بلغاه استخفهما الشعور بأنهما وحيـدان ، بمنجاة من أن يراهما أحد ، واستهواهما الانفعال العـاطفى الغريزى الذى يتملك كل رجل وامرأة فى مخبأ يقى سرهما ، فلا يلبثان أن يقتنعا بأن لا سبيل ايجابية لقضاء الوقت أمتع من ممارسة الهوى !**

انجلترا تقتبس أساليب الغزل من فرنسا وايطاليا

◆ **وانتقل** كثير من عادات البلاط الملكى فى ايطاليا وفرنسا الى انجلترا ، فوجدت المرأة نفسها محوطة بالرجال الذين كانوا يتأنقون كالطواويس ، ويتعطرون ، ولا يكفون عن الحفاوة بها، ومجاملتها ، واطرائها ٠٠ وكانت « الموضة » أن « يبكى العاشق دمعا هتـونا ، ويعيش فى نار ، ويأكل الصـخر ، ويروض النمور ! » ٠٠ وكان العاشق يجـد غبطة فى أن يقبـل يد الحبيبة ، ومروحتها ، وزهورها ، وذيل ثوبها ، وأن يداعب كلبها !

أما أبهة الغزل ومظاهره التى كانت مألوفة فى مجتمع الطبقة الراقية ، فقد رأت فيها طبقة التجار الموسرين ـ فى عصر الملكة اليزابيث ـ سخفا مرذولا ، اذ كان هؤلاء يرون أن الزواج هو أكثر الاوضاع ملاءمة لهم ، وان الحب الشاعرى يجب أن يكون أساسا للزواج ، على أن يكون نقيا ، نظيفاً ، فى حدود القيود الدينية ٠٠ **أما أبناء الطبقة المتوسطة فلم يكن لديهم الوقت ، ولا الاستعداد ، للعلاقات الغرامية الطويلة الاجل ٠٠ ولم تكن الصلات غير المشروعة فى نظرهم خطيئة فحسب ، وانما كانت ترفا فوق ما ينبغى لهم ، فضلا عما تجره فى ذيولها من تبعات ونتائج ليس لديهم من الوقت ما يسمح لهم بأن يشغلوا بالهم بها ، فى الوقت الذى كانت فيه الثروات فى الشرق والغرب تشير اليهم وتناديهم كى يسارعوا الى اقتناصها ٠٠**

وذكر ثروات الغرب ينقلنا الى الدنيا الجديدة ٠٠ ففى (نيو انجلند) ، وعلى خليج ولاية (مساتشوسيتس) بوجه خاص ، أراد « البيوريتان » ـ وهم من غلاة المسيحيين الذين ندرك مدى غلوهم من مجرد انهم اسموا أنفسهم «المتطهرين» ـ أن يقيموا عالما جديدا تقيا ، فقرروا أن الحب المضطرم أمر غير مشروع ٠٠ وكان هذا أشق ما فرض على الجنسين ، اذ كانت أتفه بوادر الالفة التى تحدث عادة بين أى شاب وفتاة اذا ما التقيا ـ كاشتباك الايدى ، أو المشى الهوينى فى الشوارع الخالية ـ خليقة بأن تعتبر « غزلا فاحشا » ! ٠٠ ومع ذلك ، فان شباب المهاجرين الذين أخذوا يستقرون فى تلك الولاية من ولايات أمريكا الشمالية ، استطاعوا أن يتحايلوا على القانون ٠٠

العقاب على الغزل فى عصر « البيوريتان »

◆ **وكان** الآباء الدينيون من « البيوريتان » يرون أن زواج الابناء مسئولية ألقاها الله على عواتق الآباء ، فعلى الاب أن يسعى الى تزويج ابنته ٠ ومن ثم فأى شاب يحاول اجتذاب

عواطف الفتاة انما يقف فى طـريق ارادة الله والانسان ٠٠ ولهذا أوردوا « الغواية » فى قانون ولاية (مساتشوسيتس) حين وضعوه فى سنة ١٦٤٧ ، اذ جاء فيه ان من الشائع أن يتسلل الشبان الى عواطف العذارى ، بأن يســعوا اليهن فى أماكن وأوقات يجهلها الآباء ، ليبلغوا أغراضا خبيثة لا يقرها عرف ولا قانون ، « مما أدى الى استفحال الاثم والى الاستهتار بالله ، والى افساد الجماعات » ٠ ومن ثم قرر القانون أن يعاقب كل شاب يقدم على هذا المسلك بغرامة قدرها خمسة جنيهات فى المرة الاولى ، تتضاعف فى المرة الثانية ، على أن يسجن لو أقدم مرة ثالثة !

ومع ذلك ، فان العقاب لم يردع الشباب !

وكان العاشقان اللذان يكتشفان فى وضع فاحش ، يعاقبان بالجلد بالسياط ٠٠ ولم يكن الزواج يضع حدا للرقابة التى يفرضها القانون على أى شابين تزوجا بعد غرام ، ولو لم تشب حبهما شائبة ٠٠ بل كانت هذه الرقابة تظل مفروضــــة حتى ينجبا أول أبنائهما ، واذ ذاك يعكف الحاسبون على حســـاب المدة التى انقضت منذ زواجهما، ومطابقتها على المدة القانونيـــة للحمل ، فاذا أسفر حسابهما عن فارق - ولو بضعة أيام - وجهت الى الزوجين تهمة السفاح! ٠٠ وكم من زوجـة عاشـــت فى خوف مقيم ، خشـــية أن تتعرض لحـادث يعجل بمولد طفلها الاول قبل موعده !



ومن « الموضات » التى انتقلت الى انجلترا من أوربا فى ذلك العهد ، أن السيدات كن يستقبلن ضيوفهن من الرجال وهن مضطجعات فى الفراش ، بل ومنهن من كن يستقبلن الرجال وهن فى حوض الحمام !٠٠ وكان أبسط مظاهر الايثار من المرأة فى هذه الحال كفيلة بأن تغرى الرجل على الغزل الجرىء ٠٠

التفاهم بلغة المراوح والاقنعة !

◆ **كذلك** سرت الى أمريكا ، من ايطاليا وفرنسا ، «تقليعة» المراوح ، والاقنعة ٠٠ كانت المروحة والقناع فى الماضى من أدوات بائعات الهوى ، فأصبحتا من أدوات المجون لدى سيدات المجتمع ٠ **اذ أن المروحة اذا استخدمت فى دهاء ، غدت أنفذ من السيف الى القلوب ٠٠ فاذا أمسكتها الفتاة بين أصبعيها كالسيجارة ، كانت اشارة الى أن قلب الشاب فى قبضتها تمسكه بسهولة ، وتسقطه بسهولة أيضا !٠٠ والمروحة قد تخفى حمرة الخجل اذا سرت الى وجه الفتاة ، وقد تخفى غياب التضرج و ٠٠ انعدام الحياء ! ٠٠ وهى قد تستخدم بحيث تكشف عن جمال المعصم وبهاء الساعد والذراع ٠٠ وقد تستر الصدر الناهد عن النظرات المستعرة بالشبق ٠٠ أو تجتذب النظرات الى الصدر !٠٠ وهى اذا حركت فى اتجاه معين رمت الى تشجيع الشاب ،واذا حركت فى اتجاه آخر كان فى حركتها صدود ٠٠ ثم انها اداة يسمح للعاشق بأن يقبلها فى المراحل الاولى للعلاقة الغرامية ٠٠ وقد تستخدم للضرب على الاصابع المتحسسة اذا تجاوزت الحدود فى المراحل التالية !**

على أن قاموس المراوح حافل بما هو أدق من كل هذا فى المعنى ٠٠ فالمروحة اذا مست الخد الايسر ، كان معناها : «أريد أن أتخلص منك» ٠٠ واذا رفعت الى الشفتين كانت دعوة الى التقبيل ٠٠ على أنه لا داعى هناك للتقيد بالقاموس ، لان المرأة تستطيع بالمروحة أن توحى بما تشاء فى وضوح كاف ٠٠

وللاقنعة استعمالات غامضة هى الاخرى .. فكانت سيدات الطبقة الراقية يسدلنها على وجوههن فى المسارح حتى لا ترى الاعين تضرج وجـوههن اذا صدرت من الممثلين كلمات أو اشارات بريئة فى ظاهرها ، ولكنها تنطوى على معان لا يليق بهن أن يفهمنها .. وكن يسدلنها على وجوههن فى الحدائق أيضا ، ليتقبلن دون ما حرج مغازلات من يطـاردونهن من العشاق ، ويتبادلن معهم — فى غير ما تورع — المجـاملات ومواعيد اللقاء !

وكانت هناك الحفلات التنكرية ، التى ابتدعت فى الاصل لتكون مجالا يفتن فيه كل مدعو فى اخفاء شخصيته ، ولكنها ما لبثت أن تحولت الى مناسبات للغى والعبث ، لا سيما وقد كان يندس بين روادها بعض ذوى السمعة الشائنة ، مستخفين وراء الاقنعة ! .. ولقد ظلت الحفلات المقنعة عرضة لحمـلات رجال الدين زهاء قرنين من الزمان ، وكانت توصم بأنها مورد لملاجىء اللقطاء !

فى فراش واحد ، بموافقة الوالدين !

◆ **وانتشرت** فى المسـتعمرات الانجليزية بأمريكا ، فى منتصف القرن الثامن عشر ، طريقة مخزية لاجتماع الجنسين ، تلك هى « الحزم » — والواقع أنها كانت شائعـة فى الجزر البريطانية ذاتها — فكان يسمح للعاشقين بأن يتشاطرا سريرا واحـدا ، فى كامل ثيابهمـا ، أو فى بعضها ، وأن يتداعبا ويتناجيا ، تحوطهما قيود أدبية ومادية .. ولا يدرى أحد منشأ هذه العادة ، وان كان البعض يقول أنها تنبعث فى ظـروف اجتماعية معينة . فمثلا فى ولاية « نيو انجلند » الامريكية — حين كانت مستعمرة انجليزية — كانت البيوت صـغيرة ، والوقود لا يفى بحاجة التـدفئة ، وساعات العمل طـويلة ، تستغرق النهار بطوله ، فلم يكن أمام أى شاب وفتاة — فى المرحلة السابقة على الخطوبة — فسحة من الوقت للقاء الا فى

الليل ، لذلك أتاح لهما المجتمع أن يلتقيا فى السرير ، يتبادلان الهمسات والضحكات ، ويوفران الوقود الذى كان يستلزمه الجلوس الى جوار المدفأة فى قاعة الجلوس ..

وكانت ثمة مبتكرات عديدة لتخفيف خطر الاغراء والغواية بين « المحزومين » : **منها لوح من الخشب يفصل بين الشابين دون أن يمنع التقاء ايديهما وشفاههما .. وكانت بعض الامهات الاريبات يربطن كعبى البنت احدهما الى الآخر ، أو يغيبن نصف جسمها الاسفل فى غلالة ضيقة محكمة .. وأحيانا كان الابوان يراقبان الشابين ، أو يتفقدان المسافة بينهما ! كما ان درجة الحرية التى كانا ينعمان بها كانت تتوقف أحيانا على رغبة الوالدين فى أن يريا ابنتهما متزوجة ، ولو بالتساهل الذى لا يلبث أن يضع الفتى أمام الامر الواقع !** .. وكان من التقاليد المتبعة أن تضع الفتاة فى نافذتها اذا أمسى المساء شمعة ، اشارة لفتاها ـ أو أى فتى ! ـ بأنها ساهرة فى انتظاره .. وربما تولى والداها وضع الشمعة !

على أن عادة « الحزم » لم تلبث أن اضمحلت .. لا سيما حين أصبحت المبانى كبيرة ، وأصبح لكل مسكن حجرة جلوس !

ولقد ذهبت احدى الاديبات الى القول بأن الغباء من أفتن مظاهر السحر الشخصى للاناث . ويبدو أن شابات القرن الثامن عشر كن يعتقدن ذلك ، ويبذلن جهدهن فى أن تكون لهن هذه الفتنة ! .. وكن ينشأن فى جو من الحزم والشدة ، حتى انهن كن يتزوجن دون أن يعرفن شيئا عن « حقائق الحياة » .. **ومن الآراء التى أعتبرت « خطرة » فى أيام الثورة الفرنسية ، أن ظهرت دعوة الى تعليم الفتيات « علم النبات » ، فعارضت كثير من الامهات بدعوى مخالفة ذلك للحشمة ، لأن هذا العلم يتناول وظائف الاعضاء والتناسل عند النبات !** أما اليوم فالاقبال على حب فتاة مع افتراض أنها لاتعرف من أين يأتى الاطفال ، أشبه

بالتنقل بين الحانات مع فتاة لا تدرك أن الخمر تسكر ! ٠٠ بل من العسير أن نصدق أن أكثر من عشر الفتيات - فى أى جيل - يصلن الى سرير الزوجية وهن فى جهل مطبق بما ينتظرهن ٠٠ وان كان أحد لا يدرى على التحقيق كيف يكتسبن هذه المعرفة !

ألوان من الحب عند العظماء

◆ وفى حياة عظماء تلك الحقبة ، ألوان من الحب العجيب ، منها غـرام « دوق ولينجتن » بكيتى باكينهام ، اذ أحبها وهو فى الرابعة والعشرين ، لكنه لم يتزوج منها الا فى السادسة والثلاثين ، بعد أن ركب البحار وخاض المعارك ٠ ولم يحدث طيلة هذه المدة أن كتب اليها قط ، أو كتبت اليه ٠٠ فلما قيل له ان عواطف « كيتى » لم تتحول عنه طيلة السنين الاثنتى عشرة ، وان أصدقاءه يعتبرونه حبيبها الاوحد ، وجد من الشهامة أن يتزوجها٠٠واستقبلتها الملكة فيكتوريا فى بلاطها ، معجبة بوفائها وثبات عواطفها !

وعندما أقبل القرن التاسع عشر ، أقبلت معه طائفة من العلوم الغريبة ، ومنها علم الفراسة الذى لم يلبث أن اكتسب رواجا شعبيا ، حتى لقد ذهب « جورج كومب » - وهو من العلماء الذين مارسوه فى انجلترا - الى الدعوة الى أن يكون فحص الرؤوس على أضواء علم الفراسة ، هو العامل المرجح فى الزيجات ، دون التسليم لعواطف الشباب الاهوج القليل التجربة ٠٠ ومع أن نظريته هذه قوبلت باستهجان ، الا أن الملكة فيكتوريا دعته الى قصرها ، ليفحص أدمغة أولادها !

وكان من المعارضين لهذه الدعوة أيضا « مالتس » - صاحب نظرية السكان وتزايدهم - فقد ذهب الى القول بأن الرجل الذى يقدم على الزواج بينما كسبه لا يكفى للانفاق على عائلة ، وملك بلاده ليس فى حاجة الى مزيد من الرعايا ، انما يكون مخالفا لارادة الله !٠٠ ومن ثم دعا « مالتس » الى اتجاه جديد نحو العشاق ، فقال ان لاى شاب وفتاة أن يتحدثا فى خلوة دون أن يكون ثمة تفكير فى زواج عاجل بينهما ، فمثل هذه العلاقة الطويلة الاجل تفسح الفـرص للجنسين كى يدرس كل منهما الآخر ، مع تفادى قضاء سنى الشباب الاولى فى « جدب » عاطفى ٠ كما ان عدم ارضاء عواطفهما المشبوبة يزيد لهبها ضياء ونقاء ودواما ، بدلا من أن يخبو فى سن مبكرة ٠ أما بالنسبة للنساء ، فان الزواج المتأخر كفيل بأن يطيل فترة الشباب والرجاء والاحلام !

التزمت الجنسى فى العصر الفيكتورى !

◆ وفى القرن التاسع عشر ذهبت التقوى الى حد اضفاء القداسة عـلى

المراة ، فهى معبودة ، والبيت معبدها !٠٠ واصبح من المعيب للفتاة ان تظهر اى اعتراف بالغرائز الجنسية ، بل ان واجبها أن تجعل الرجل يخجل مما يخالجه من هذه الغرائز !



الغزل فى اوائل القرن التاسع عشر : العشيقان ٠٠ والرقيبة !

ومن الناس من يزعم أن هذا الانكار للعواطف الجنسية ـ الذى شاع فى عهد الملكة فيكتوريا ـ ليس سوى لون من ألوان الاغراء الجنسى لاستثارة عواطف الرجل ، وانه صمام يساعد على وقف الانفعالات العاطفية عند الحد المأمون .. بيد أن هذا الزعم مغالى فيه ، والواقع ان انكار النزوات الجنسية كان اسرافا فى الاحتشام منبعثا عن نفور خلقى صحيح ، صادق ..

وقد مهد هذا لعهد « الرفيقة » .. وهذه الرفيقة قد تكون أم الفتاة أو أختها أو عمتها أو خالتها .. وقد تكون أجيرة من أسرة طيبة من أسرات الطبقة الوسطى ، أو أرملة موظف أو ضابط .. وكانت مهمة « الرفيقة » أن تكون رقيبة اذا زار الفتاة شاب ليصحبها الى احدى الحفلات ، او الى ميدان السباق او المسرح .. وان تدرس اخلاق الشاب وطباعه ، وتتحــرى عادات الرجال الذين يحومون حول الفتاة ومقاصدهم .. بل ان مهمة « الرفيقة » ـ اذا كانت عجوزا ـ كانت تتجاوز هذه الحدود ، عند ما تكون فتاتها ساذجة ، غير واثقة من نفسها ، فتعرفها بمن يليق لها من الشبان ، وتمهد الطريق لخطوبة !

اتيكيت « التعارف » فى القرن الماضى

◆ ولم يحفل عهد بكتب « الاتيكيت » وآداب السلوك والتصرف ، قدر أواسط القرن التاسع عشر . ومن المسائل الاساسية التى اريق فى بحثها كثير من المداد مسألة التعرف الى فتاة غريبة لم يسبق أن اتصلت أسباب المودة معها .. والطريق المشروعة التى رسمتها تقاليد ذلك القرن للشاب هى أن يتحرى مقر سكناها ، ويسأل عنها من يمكن أن يقدمه الى أسرتها ويمكنه من دخول دارها .. فاذا لم يتسن له الوصول الى أصدقاء لها أو لاسرتها ، فيحسن به أن يتردد على الكنيسة التى تتردد عليها ، أو أن يتعمد الالتقاء بها كثيرا فى الطريق التى تسلكها فى نزهاتها الصباحية ، فلا يلبث أن يتبين ـ دون ما كلام بينهما ـ ما اذا كانت تحفل به ، أو تنفر مما يبديه من اهتمام بها .. فان مجرد احمرار وجنتيها ، أو مرور ابتسامة عابرة على شفتيها ، أو نظرة خاطفة من ركن عينها ، كافية لان تشجعه على الخطوة التالية : أن يكتب لابيها .. فاذا أسعده الحظ وسمح له بالتردد على دارها ، فعليه أن يكون مقلا فى الزيارة ، لان كثرتها قد تؤدى الى ألفة غير مستحبة .. ويجب ان يحذر من ان يبيح لنفسه ما لأى فرد من الاسرة من سلوك وتصرفات .. واذا كان مجيئه يكبده مشقة ، فلا ينبغى أن يبدى مظاهر التعب .. ويجب أن تجمع ثيابه بين الاناقة وبين بساطة الرجولة .. ولا ينبغى له أن يقدم الى الفتاة ـ كما لا ينبغى لها أن تتقبل منه ـ هدايا ، ما لم تقم بينهما خطوبة .. كما يستحسن أن لا تعرض الخطوبة كتابة !

وفترة الخطوبة هى خير فترة للسيد كى يصحح فيها اخطاء فتاته ٠٠ فسيجدها اذ ذاك متأهبة للاصغاء ، مستعدة للاستجابة ٠٠ والغزل العلنى فى هذه الفترة انانية مستهجنة، ليست من حسن الذوق فى شىء، بل هى مؤذية لشعور الآخرين ٠٠ ولم يكن من اللائق بالسيد المهذب فى ذلك العهد ان يمتدح سيدة او ان يشرب نخبها فى حضور ذكور ٠٠

اما الفتاة نفسها ، فلم يكن ينبغى لها ان تظهر القلق او تضيق بأفراد الاسرة ، اثناء أنتظار زيارة الخطيب ٠٠



الغزل فى أواخر القرن الماضى !

المدنية فى خدمة العشاق !

◆ ٠٠ ثم اشترك العلم ، والابتكار ، والتجارة ، فى اتاحة التسهيلات للعشاق ، فجاءت بطاقات البريد ـ التى ابتكرت فى انجلترا سنة ١٨٤٠ ـ والسكك الحديدية ، تقرب بين كل عاشقين منفصلين ٠٠ ولم تحن سنة ١٨٦٠، حتى ازدادت سرعة الاتصال الى ستة أمثال ما كانت عليه ، بتقدم البريد وانخفاض الرسوم على الخطابات ٠٠

وكان التصوير الفوتوغرافى فنا وليدا ، ولكن العهد لم يطل حتى اصبح فى وسع كل من العاشقين أن يحتفظ بصورة حبيبه ، يبثها أشواقه ولوعته فى فترة الفراق ٠٠ وفى الوقت ذاته ، كانت الطباعة حريصة على أن تقوم بدورها فى مساعدة العشاق ، فابتكرت البطاقات التى تحمل رسوما جميلة وعبارات ولهانة ، بأتفه النفقات !

ومع أن المرأة لم تلبث أن شرعت فى الخروج من عزلتها ، والظهور فى المجتمع دون « رفيقة » او رقيبة ٠٠ بل اصبحت ايضا تمارس لعب «التنس» ،



والعمل فى الوظائف ، الا أن المجلات النسوية لم تبادر الى الاعتراف بهذه الحرية ، فلم تكن تنشر القصص الغرامية ، وكانت توجه التحذيرات الشديدة الى الفتيات اللاتى يجدن من أنفسهن الجرأة على الخروج للنزهة فى الامسيات وحيدات ، أو مع أشقاء يصغرونهن - فالشقيق الاصغر لا يكفى ! - وكانت تنذر الفتيات اللاتى يعقدن صلات مباشرة بالرجال - ولو مجرد صلات صداقة وتلاق - بأنهن يلعبن بالنار !

على أن كل العوامل كانت تعمل على تسهيل العلاقات بين الجنسين ٠٠٠ كانت اعلانات صانعى «الكورسيهات» وما اليها من أدوات تجميل جسم المرأة ، تستلفت أنظار الشبان بما فيها من رسوم مثيرة ٠٠ وكانت اعلانات صناع المساحيق ومواد تجميل الوجه ، أكثر اغراء واغواء ٠٠ ومن المخترعات التى ساعدت العشاق فى العهد الفيكتورى ، العربات المغلقة التى كانت تجرها الخيل ، فقد كانت تكفل لاى عاشقين يركبانها ، خلوة تنأى بهما عن أعين المتطفلين ، سيما فى الليالى التى ينتشر فيها الضباب ٠٠ ثم جاء انتشار الدراجات فى العقد الاخير من القرن التاسع عشر ، فاذا الفتيات يقبلن عليها وقد نسين ليونة الانوثة وضعفها ٠٠ ومكنت الدراجة الفتاة من أن تذهب حيث شاءت ، ومع من شاءت ، باسم الرياضة ٠٠ واذا لم تصحب الفتى من أول الشوط ، كانت لا تلبث أن تلقاه حين تطمئن الى بعدها عن أعين الرقباء ٠٠ ثم لم تلبث أن اخترعت الدراجة المزدوجة - ذات المقعدين المتواليين - فأصبحت بغية العشاق !

نحو الحرية الجنسية

◆ وجاءت الحرب العالمية الاولى ، فزادت من ازالة العقبات من ميدان الغزل والغرام ٠٠ فاذا الفتاة تخرج من سجن الدار لتواجه حياة الواقع اذ تعمل فى التمريض ٠٠ وبعد أن كانت لا تعرف من الرجال الا من يقدم اليها فى محيط الاسرة ، غدت تلتقى بشتى الرجال من كل طبقة ومركز ، بحكم عملها

وتستمع الى أغانى العشق والغزل ٠٠ وما أن انتهت الحرب ، حتى برزت الى الوجود مشكلة تمثلت فى سؤال بسيط : « هل للمرأة أن تتقدم لخطوبة الرجل ؟ » ، فقد كان الشبان الذين خرجوا من الحرب بعاهات ، يتورعون عن أن يعرضوا على صديقاتهم الزواج ٠٠ فحق على الفتاة أن تكون هى صاحبة الاقتراح !

وأخذ المجتمع القديم فى التفكك ، فان الحرية والبساطة التى اعتادهما الشبان والشابات فى أيام الحرب لم تكن مما يسهل نبذه ٠٠ وأعلن الشباب استقلاله بعد أن ظل أجيالا يرسف فى قيود الخضوع ، وكان من الحريات التى كافح من أجلها ، « الحرية الجنسية » ٠ وكان الكفاح أقوى مما خيل للشيوخ ، وكان الصراع بين الجيلين ـ القديم والجديد ـ فى أمريكا أشد منه فى أوربا ، سيما وأن سلطان المتشبثين بالدين كان أقوى عدة وأكثر تنظيما ٠٠ وأصبح الاب الذى يعلم بما اذا كانت ابنته قد خطبت أو لم تخطب ، أب حصيف ٠٠ وجرؤ الشباب من الجنسين على التسلل من ساحات الرقص والاختفاء عن الانظار ! ٠٠ وصارت القبلات أكثر من أن تحصى وأسهل من أن تشغل البال ٠٠ واشتد فضول الشباب والشيوخ ـ على السواء ـ لمعرفة المسائل الجنسية ، حتى شاعت الكتب التى تتناول هذه المسائل بين طلبة المدارس ، وأصبح الرجال المحترمون « الوقورون » يحملون كتب الحب بعد أن يحيطوها بأغلفة من ورق غير شفاف ـ لاخفاء عناوينها ـ ويجهدون فى ابتكار أسباب اخفائها عن أولادهم وزوجاتهم ، غير مدركين أن هؤلاء أيضا كانوا يعانون نفس الجهد لاخفاء ما لديهم من نسخ من هذه الكتب عينها ! ٠٠ وكثرت مجلات « الاعترافات الواقعية » وتتابعت لتزيح أقنعة الجهل عن عيون الشباب ، بما تنشر من رسائل للفتيات اللاتى تفتحت أعينهن على حقيقة الحياة ، من أوعر نواحيها ٠٠ على أنه يبدو أنها كانت كالمجلات التى تعنى بالجرائم اليوم ، تدين برواجها الى ما تثيره فى نفس القارىء من انفعالات ، أكثر منها الى ما تحمله من دروس خلقية !

الجنس الناعم يفقد بعض أنوثته !

◆ ويبدو أن « السحر » طار من النافذة عندما دخل « الجنس » من الباب ، فلم يعد مرأى سيقان الاناث عارية يثير نزوات الرجال ! ٠٠ ومن العجيب أن النساء بدأن يطرحن جانبا عناصر أنوثتهن ، فقصصن شعورهن ، وقصرن أذيال ثيابهن ، وفقدن أردافهن وبروز صدورهن ٠٠ وأصبحن يعنين بزينتهن فى الاماكن العامة ، وعلى مرأى من الرجال ، على عكس ما نصحهن به « أوفيد »

وأخذ الجيل العجوز يسخر من الجيل الشاب ، ويعيب عليه أنه لا يفهم عن الحب شيئا ، وأن فن ممارسة الحب غدا مبتذلا ، قذرا ، مبتسرا ، خاليا من كل

خيال وابتكار ٠٠ ومع ذلك فقد كان الجيل الجديد راضيا عن الغرام الهين ، الطليق ٠٠ ولقد كانت رؤوس الصحف تحفل بالعناوين الضخمة عن « الشباب المشبوب العواطف » وعن مغامراته الملتهبة ، ولكن هذا الشباب لم يكن فى الواقع ليمثل سوى الطبقة الراقية ، أما الملايين من أبناء الطبقة الوسطى ، فلم يكونوا يجدون الفرص ـ ولا تخالجهم الرغبة ـ فى أن يخوضوا مثل تلك المغامرات الصاخبة ، الحامية ٠٠ كل ما هناك هو أن الموظف الصغير ، والكاتبة بالآلة ، والعامل ، والبائعة ، أرادوا أن يستمتعوا بنصيب من الحرية ، ومن ثم قامت المشادات فى البيوت لان البنات أخذن يطالبن بمفاتيح للابواب الخارجية ـ كالاولاد ـ ولان الابناء كانوا يقضون أوقاتهم فى الجرى مع بنات كانوا يأبون أن يدعوهن الى دورهم ويعرفوهن بأسراتهم ! ٠٠ وما لبث أن اصبح من المألوف ان تتحدث الفتاة عن « صديقها » والفتى عن « صديقته » ، فصارت الكلمتان رمزين للزمالة الجديدة المستباحة بين الجنسين ٠٠ فاذا خطر للفتاة أن تدعو صديقها الى دارها ، كانت التسلية التى تعدها له هى أن تراقصه على أنغام الراديو أو الحاكى ٠٠ ولم يعد الفتى يحفل بأن يكتب لاهل الفتاة ملتمسا السماح له بودها ، بل غدا يتصل بها تليفونيا فى دارها أو فى محل عملها ، يتفق معها على موعد اللقاء ومكانه ٠٠ وقد يسألها أن تنتظره تحت ساعة محطة السكة الحديدية ، او على ناصية الشارع ريثمايصل ٠٠ واذا كانت لديه سيارة ، فلا بأس فى أن يقف عند باب دارها ، ويدق بوق سيارته يدعوها ٠٠

التليفون ٠٠ ساعى الغرام !

◆ وهكذا ضاعف اشتغال الفتاة بالاعمال العامة من سهولة اتصال الاواصر بين الشاب وبينها ٠٠ بل انهما قد يتبادلان الغزل والحب فى محل العمل ، وعلى حساب وقت العمل !

ولقد كانت المسرة ـ التليفون ـ فى طليعة العوامل المساعدة للحب والغزل ٠٠ حتى بين العشاق القدامى ! ٠٠ وأصبح حديث الهوى التليفونى فرصة لتنشيط الخيال ، واستثارة الاحلام ٠٠ فلقد تستلقى الفتاة على سريرها وتنعم بصوت فتاها وكأنه يرقد الى جوارها ، فيسرى فى جسدها انفعال عاطفى ، كفيل بأن يثير استهجان أهل العصر الفيكتورى !٠٠ وهكذا أصبح التليفون ـ بقدرة سحرية ـ يضفى أجواء خيالية على الاصوات العادية ٠٠ فضلا عن أن الحديث على البعد ـ والعين ليست فى العين ـ صار يساعد على التغلب على الخجل ، وعلى الجرأة فى الغزل ، والاسراف فى الاطراء والمجاملات ٠٠ وافضل ما فى التليفون للعشاق أنه يمكن الفتى من أن يكون صوته أول ما يصافح

أذنى الفتاة فى الصباح ، وآخر ما يحييها فى المساء ٠٠ ولقد عرف عن « دوايت ايزنهاور » - رئيس الجمهورية الامريكية - انه حين كان فى المدرسة العسكرية، تكلم الى الفتاة - التى أصبحت فيما بعد زوجته - خمس عشرة مرة فى اليوم التالى لتعارفهما !

استغلال الحب لتنشيط التجارة !

◆ وشرع المعلنون فى استغلال الحب فى مطلع الربع الثانى من القرن العشرين ، وكان بائعو الازهار هم أسبق الناس الى التعاون مع المعلنين ، فظهرت فى الصحف اعلانات : « قلها بالازهار » ٠٠ و « نحن نرسل الزهور بالتلغراف » ، وأصبح فى وسع الشاب الذى فى لندن أن يرسل الى فتاته فى نيويورك بباقة زهور ناضرة ، لم يقتطفها بيديه ، اذ يدفع النفقات فى لندن ، فيتلقى متجر للزهور فى نيويورك برقية بالعنوان الذى ينبغى أن يحمل اليه الباقة !٠٠ وكانت أطرف «التقاليع» فى التهنئة بعيد ميلاد الحبيبة أن يدفع الشاب الاجر فى « مكتب التلغراف » فتوفد الشركة أحد عمالها يغنى لدى باب الفتاة : « عيد ميلاد سعيد لك » !

وهكذا اقبل كل تاجر على استغلال الحب ٠٠ فظهرت الاعلانات « اصحب حبيبتك فى سيارتك » للدعاية « لماركة » من «ماركات» السيارات ٠٠ ونشر متجر لقفازات الملاكمة صورة لقبضتين حديديتين ، كتب تحتهما : « لن تقبل فتاة أن تربط مصيرها الى شاب لا يقوى على أن يصرع أى شخص يسخر منهما اذا سارا معا ! »

واخذ الاهتمام بالجنس يخف بعد سنة ١٩٣٠ ، واستطالت ثياب النساء ، وقد اتجهن الى استعادة شيء من الغموض الذى كان يثير الرجال ! ٠٠ وكثر النصح لهن بالكف عن التهافت على الرجال ، والعمل على أن يكون الرجال هم الذين يطاردونهن ! ٠٠ وكان من أثر الضائقة المالية ان استبدلت مخيمات نهاية الاسبوع - التى تضم فتى وفتاة وحدهما ، أو فى جماعة - بالحفلات الراقصة والسهرات الصاخبة ٠٠ واصبح غروب الشمس وبزوغ القمر ومناظر الطبيعة تفعل فى قلوب الشباب ما كانت تفعله الموسيقى من قبل ، من حيث ارهافها للعواطف ٠٠ وعمد أصحاب السفن الى تنظيم رحلات العطلات ، بدلا من ترك سفنهم عاطلة ٠٠ وبتفاعل غريب غامض ، كانت فضيلة المرأة يستحيل معدنها على سطح السفينة من « الذهب » الى معدن آخر قابل للصدأ !٠٠ ولم يطل الوقت حتى أخذ الكتاب يحذرون قراءهم وقارئاتهم فى الصحف من أخطار الرحلات البحرية ، فقد كان الغرام الملتهب على سطح السفينة يتحول غالبا على البر الى ٠٠ الى رماد !

السيارات والسينما فى عون « كيوبيد » !

◆ وحوالى سنة ١٩٣٥ ، راجت معسكرات العطلات ، بما كانت تحفل به من لعب لا ينقطع ، ولهو لا ينضب ، واختلاط يحبب فى التقرب ، وحـرية تجعل للحب عذوبة تستهوى الشباب ٠٠ وفى ساحات الالعاب والمهـرجانات و « مدن الملاهى » ظهرت العاب جديدة تفسح الفرص أمام الشاب كى يحيط الفتاة بذراعه ٠٠ لا سيما « نفق الهوى » ، الذى كانت جـدرانه تحمل من العبارات ما يشجع على الجرأة ، مثل « قبلنى الآن » !

ولقد كانت السيارات فى العشرين سنة الاولى من هـــذا القرن عارية بلا سقف ٠٠ ولكن المصانع لم تلبث أن صنعت لها سقوفا ، قصد بها حمـاية الراكبين من تقلبات الجو ٠ ولكن السيارة أصبحت بهذا بمثابة « مقصورة » تضم الشابين جنبا الى جنب متلاصقين ، بمنجى عن الانظار ٠٠ ليس هـذا فحسب ، بل انها أصبحت تمكن العاشقين من أن ينشدا اللهو على مسـافة بعيدة عن أعين الاهل وآذانهم ٠٠ وهكذا لم يحظ « كيوبيد » بأداة ولا وسيلة أفضل من السيارة !

على ان السينما لم تكن أقل من السيارة نصيبا فى خدمة « كيوبيد » ٠٠ فمنذ أيامها الاولى والفكاهات تروى عن العشاق الذين يرتادونها فيشـغلون بأنفسهم عما يعرض فيها ! ٠٠ ومع ازدهار صناعة السينما أصبحت المقاعد وثيرة ، وأكثر أناقة ٠٠ وافتنت دور السينما فى اعداد المقاعـــد التى تمكن العاشقين من أن يجلسا متقاربين ، بل متلاصقين ٠٠ ومن الدور ما أعـدت مقصورات ذات مقعدين ، مكسوة بما يقيها نظرات الاعين !٠٠ وكانت الفتاة التى يدفع صاحبها الاجر الباهظ الذى كانت تفرضه دور السينما لمثل هـذه المقصورات ، تدرك مقدما أية سهرة تنتظرها !

هوليوود تنشىء مدرسة جديدة للغرام !

◆ وهناك جدل بين علماء الاجتماع حول مدى تأثر الجالسين فى المقاعـد الخلفية بدور السينما ، بما يرون على الستار ٠٠ فقد كانت المناظر الغرامية - فى باكورة عهد السينما - تثير الشباب وتلهب عواطفه ٠٠ وشهدت سنوات الحرب الاولى ظهور كواكب ذوات فتنة صارخة ، فى أوضاع تؤجج النزوات ٠٠ مثل « تيدا بارا » التى قيل فى وصف طريقتها فى التقبيل : « انها تلصق نفسها بالرجل ثم تستنزف كل قواه » ! ٠٠ و « بولا نيجرى » ، و « فيلما بانكى » و « جريتا جاربو » ٠٠ كماكان بين الممثلين من يبدو زئر نسـاء ، يسبى بسحره كل أنثى ، مثل « رودلف فالنتينو » ٠٠ فأخذ الشباب يقلدونهم وقد ألهبت المناظر التى كانوا يظهرون فيها دماءهم ٠٠

وعلمت « هوليوود » الشبان كيف يسيرون مع الفتيات ، وكيف يصحبونهن فى الاماكن العامة ، وكيف يداعبونهن ، ويغازلونهن ، ويغزون مواطن الضعف عندهن ·· علمتهم متى تكون الانثى راغبة فى القبلة ، ومتى تكون زاهدة فيها ، كما علمت الفتيات كيف ينلن القبلة المشتهاة دون أن يطلبنها باللسان ، وعلمتهن مدى ما لعين الانثى من سحر ولباقة ، وكيف تستطيع الفتاة أن توحى بنظرة الى الشاب بأنها قد سئمت صحبته ، وكيف تستطيع أن تجتذبه بنظرة أخرى وكأنها تشده اليها !·· علمتها كيف تغمض عينيها اذا ما قبلها فتاها ، وكأنها فى غيبوبة من نشوة القبلة ، وكيف تضرب الهواء بكعبيها اذا ما عانقها الحبيب ·· الخ

هل يضعف «التلفزيون» استجابة الشباب للغزل ؟

◆ ومع ان العهد بالتليفزيون لم يطل ، الا ان الكثيرين بدأوا يرقبون أثره على الحب والغزل ·· ومن هؤلاء « مسز م · جالبريث » ، احدى المندوبات الاسكتلنديات فى مؤتمر قومى لاتحاد العاملات فى البلديات بانجلترا عقد فى سنة ١٩٥٣ ، اذ قالت : « لقد أصبح الشبان والشابات يؤثرون الجلوس فى البيوت ـ لمشاهدة برامج التليفزيون ـ بدلا من أن ينطلقوا الى حيث الحب



الغزل فى بداية عهد السينما ، حوالى سنة ١٩٢٠

والغزل .. وما لم يكن هناك حب ولا غزل ، فلن يكون ثمة زواج ، ولا أطفال .. ولا أمة في النهاية ! »

.. في حين قالت صحيفة « الديلي ميرور » ان مشاهدة برامج التليفزيون لن تلهى اى شاب وفتاة عن الغزل ، سـيما اذا كانت الاسرة قد ذهبت الى السينما وتركتهما في خلوة !

مستقبل الحب والغزل

◆ وهناك اربع نواح للنقص في الغزل والحب في أيامنا ، كمـــا يقول أولئك الذين يجدون وقتا يضيعونه في الانشغال بمصير الجنس الانساني :

أولا : يحتاج الغزل الى قانون جديد لآداب السلوك والتصرف ، والى قيود جديدة . اذ يجب أن نعمل على السمو بالعلاقات الاجتماعية بين الجنسيـــن ، بادخال شيء من الوقار ، والحفاوة ، واللطف ، والذكاء عليها ..

ثانيا : أصبح الغزل والحب محصورا في حدود ضيقة . فان الشـــبان والشابات لم يعودوا ينشدون الاصدقاء والصـــديقات خارج نطـــاق طبقتهم الاجتماعية ، مما أضعف اندماج الطبقات ..

ثالثا : يندفع العشاق - من الجنسين - الى الزواج ، دون أن يتلقوا شيئا من المعرفة والمران .. بل دون أن يعنوا بتقديم شهادات طبية ..

رابعا : لم يعد أى عاشقين يحظيان بخلوة كافية ليتعرف كل منهما عـــلى صاحبه ويدرسه ، بمنجى عن المتطفلين ! .. ذلك ان الشاب يتحرج عادة من أن يتقرب الى فتاته ، كما تتحرج الفتاة من أن تتقرب الى فتاها ، في الاماكن العامة ، او على شواطىء البحر .. على انهما لن يفتآ يتحايلان كى يهيئـــا لنفسيهما الخلوة التى تروق لهما ، ويجدان في هذا مبعثا للابتهاج والسرور .. لانهما اكتشفاها أو دبراها بنفسيهما !

تعقيب ..

كتابى : وتعقيبا على البحث المتقدم ، أقدم لك فيما يلى مقالا طريفا نشرته مجلة « ورلد ديجست » الانجليزية المشهورة ، لمناسبة القانون الذى أصدرته الحكومة المصرية منذ شهور « لمحاربة الغزل العلنى » ، على حد تعبير المجلة المذكورة :

مصر تحارب الغزل العلنى !

◆ أصدرت الحكومة المصرية أخيرا قانونا يضع حدا للغزل العلنى .. اذ جاء في هذا القانون : « **كل من ضبط وهو يغازل امرأة في الطريق يحبس**

سبعة أيام ، فاذا تكررت منه هذه الجنحة فى بحر سنة يحكم عليه بالسجن ستة شهور »

وقد جاء فى المذكرة الايضاحية للقانون ،بشأن السبب الذى أدى الى اصداره ، هذا التبرير : « اعتادت كثرة فاحشة من الماجنين أن تلهو بمغازلة النساء جهرا ، مما ينم عن انحطاط خلقى ٠٠ »

وليس العقاب على الغزل العلنى بالشىء الجديد ، فلقد كان العشاق فى ولاية « نيو انجلند » ـ حين كانت تحت حكم « البيوريتان » ـ يجازون بعقوبات لا تقل شدة عما ورد بالقانون المصرى ٠

٠٠ من أمثلة ذلك ما وجه الى « جاكوب مينلاين » و « سارة تتل » ـ فى سنة ١٦٦٠ ـ من تهمة « تطارح الهوى علنا » فى (نيو هافن) ، وقد جاء فى تقرير المحكمة يومئذ انهما « **جلسا معا ، وذراعه محيطة بها ، وذراعها حول كتفيه ، او حول عنقه ، وقبلها ٠٠ فقبلته ـ او انهما تبادلا القبل ـ واستمرا فى هذا الوضع زهاء نصف الساعة ! »**

وعندما سئلت « سارة » عما اذا كان « جون » قد أغواها ، أنكرت هذا ، وقالت انها هى التى سعت الى اغوائه ! ولهذا قضى عليها بأنها « عذراء وقحة ! » وغرمت خمسة جنيهات ، بينما أطلق سراح « جاكوب مينلاين » !

٠٠ ولو كانت هذه الجنحة كررت ، لدفعت « سارة » عشرة جنيهات ٠٠ فاذا عادت اليها مرة ثالثة ، لم تلق أية رحمة ، وزج بها فى السجن « الى ان ترى المحكمة ما يبرر اطلاق سراح المتهم ! » ، على حد تعبير القانون الذى كان سائدا فى ذلك العصر ٠٠

عقاب القبلة فى ايطاليا ٠٠ السجن !

◆ **وقد** كان من الجنح المخالفة للآداب العامة فى ولاية « مساتشوسيتس» الامريكية ـ الى عهد قريب ـ أن يضع رجل ذراعه حول خصر فتاة ، فى مكان عام ٠٠

كذلك تفرض فى ايطاليا قوانين ضد التقبيل العلنى على مرأى من الملأ ـ ولكن هذا لا يعنى أن القوانين منفذة ! ـ وبمقتضى هذه القوانين يحكم على المرء بالسجن لفترة تتراوح بين ثلاثة شهور وثلاث سنوات ، لابرآ قبلة فى أضيق طريق عام ! ٠٠ ويسرى هذا القانون حتى على محطات السكك الحديدية !٠٠**ولعل اى شخص شاهد التعبيرات العاطفية الصارخة ، والاحضان الحارة ، والعناق العنيف ، فى أية محطة ايطالية للسكك الحديدية ٠٠ وسمع « طرقعة » القبلات تتعالى كرنين « صنج » الراقصات ، ورأى الرجال يضمون الفتيات بشدة يخشى معها عليهن من خطر تحطيم ضلوعهن ! ٠٠ لعل**

أى شخص شهد ذلك ، يدهش اذا علم أن الشرطى المعين فى المحطة يملك ـ بحكم القانون ـ حق القاء القبض على « جميع » الموجودين على رصيف المحطة !

ولا يسع الانسان الا أن يتصور مدى حكمة رجال البوليس الايطالى ، وسعة نظرتهم الى أمور الحياة ، فهم يدركون أن ليس فى ايطاليا من البنائين عـــدد كاف لانشاء السجون التى تمس اليها الحاجـــة اذا نفذ ذلك القانون ! ..
ولعل هـــذا العذر يبرر للاجنبيات تلك المواعظ القصيرة الداعية الى التسامح والغفران التى يجيبهن بها رجال البوليس الايطالى ، كلما لجأن اليهم شاكيات من قرصات « الروميوات » من المغازلين والمعجبين من أبناء روما ونابولى وفينيسيا !

والواقع أن الحكومات المتعاقبة ـ فى ايطاليا ـ تبذل جهدها لكبح « الانفعالات العاطفية » الايطالية دون ما نجاح .. فان الايطاليين عشاق ملتهبو العواطف ، وقد اعتادت الشابات الايطاليات ان يلقين عبارات الاعجاب والغزل علانية .. **ولو أن فتاة ايطالية بلغت نهاية الشارع الذى يقع فيه مسكنها ذات صباح بديع ، دون أن تثير خلفها شيئا ـ بل قدرا كافيا ـ من الاعجاب .. أو صعدت الى « ترام » أو « أوتوبيس » دون أن تحظى « بقرصة » أو تشعر بأن هناك من تمنى ـ على الاقل ـ أن يقرصها ، لساورها الشك فى أنها لا تبدو جميلة فى هذا اليوم .. او ان الشيخوخة بدأت تدب اليها .. او انها لم تتجمل كما كان ينبغى !**

نساء ايطاليا يتمردن على قوانين مقاومة الغزل !

◆ **وتجد** الاجنبيات الوافدات على ايطاليـــا من البـــلاد ذات الاجـــواء الباردة ، ان القرص امر مستهجن ، فى حين انه فى ايطاليا يعتبر « رياضـــة قومية » ، تمارس فى براعة وخبرة ، حتى أنهم يسمون ممارسيها « بابا جالى ديلاسترادا » ويسمون الرياضة نفسها : « بابا جالسيمو » .. ولعل هذه التسمية مشتقة من حدة منقار الببغاء ، لأن كلمة « باباجالى » فى الايطالية تقابل « ببغاء » فى العربية !

ولقد شن الفاشيون حملة عجيبة فى شدتها ضـــد « الباباجالسيمو » ، واستأنف الديموقراطيون المسيحيون ـ الذين تولوا الحكم بعدهم ـ هـــذه الحملة ، ولكنهم كانوا أخف قسوة فى حملتهم ، وكان من الجـــلى أن أملهم فى تغيير الموقف ضئيل ! .. **فلو أن القوانين المضادة للغزل فى ايطاليا نفذت بحذافيرها فى صرامة ، لكان من المحتمل أن تتكاتف الايطاليات على حرق مجلس البرلمان ! .. فانهن « ينتعشن » بعبارات الاطراء ، وبكل مظهر للاهتمام يبدى لهن .. أو لسن هن حفيدات نساء عصر النهضة ، اللواتى ابتكرن يومئذ**

ذلك النظام الذى عرف باسم « تشتشيسبيزمو » ، والذى كان يلزم كل سيدة بأن يكون لها « فارس » يتبعها فى وفاء ، ليراقصها فى الحفلات ، ويسير على صهوة جواده الى جوار عربتها ، ويقرض الشعر فى الاشادة بجمالها ، ويغازلها فى كلف علنى ، مع بقائه مخلصا تمام الاخلاص لزوجته ؟!

بل لقد كان الاتفاق على الزواج يتناول ـ فى بعض المناسبات ـ ذلك « الفارس » التابع ، فيدون اسمه فى عقد الزواج ، اذ كان المجتمع يقر دور « الفارس التابع » ويدعو اليه ، رغم عدم شرعيته ٠٠ والواقع ان نظام ال « تشتشيسبيزمو » لا يزال قائما فى ايطاليا الى اليوم ، فى حدود ضيقة ٠٠ ومن الغريب حقا أن أشهر المتحمسين له كان الروائى الروسى « تورجنيف » ، الذى قضى عمره فى التشبيب بالمغنية « بولين فياردو » !

قوانين الغزل فى أسبانيا

◆ **كذلك** سنت « مدريد » القوانين ضد الغزل العلنى ، ولكن الاجراءات التى اتخذتها لم تحقق تقدما كبيرا ٠٠ فلا تزال تروج هناك الاغانى التى تحمل نصف كلماتها معانى مزدوجة ، ولا تزال تنبعث فى الطرقات عبارات الاعجاب بالجمال العابر ، كما يواصل هواة « القرص » من العشاق رياضتهم ، فيقابلون بالتسامح ٠

ورغم حرص البوليس الاسبانى على اعتقال كل عاشقين يراهما فى عناق حار ، فان هناك طرقا وأساليب كثيرة لتفادى أعين البوليس فى أسبانيا ، كما هو الامر فى كل مكان آخر ٠٠

وفى اسبانيا لونان « عريقان » من الغزل ، ما زالا شائعين ٠٠ وكلاهما علنى ٠٠ ففى أمسيات الاحد ، ترى فى الميادين العامة جماعات من الشبان والشابات ، وقد سار الشبان منهم فى أحد جانبى الميدان ، بينما سارت الشابات فى الجانب الآخر ـ وفى اتجاه مضاد ـ واتخذ كل فرد من الفريقين ابهى زينته ٠٠ وهم يسمون هذا التقليد الاستعراضى « رقصة الطواويس » ، لأن كل فرد يبدو كالطاووس فى زينته ! ٠٠ وساعتئذ تجد الهمسات والغمزات مباحة ٠٠ وتنبعث من الفتيات ضحكات خافتة مغرية ٠٠ ومن وقت الى آخر ، يوفق أحد الرجال الى أن يدس خلسة فى يد احدى الفتيات رسالة صغيرة ٠٠ وعند مرحلة معينة من الرقصة ، يجوز للفتاة أن تخرج من صف بنات جنسها ، وتنضم الى الرجل الذى اختارته ، فتكون هذه اشارة الى أنهما أصبحا خطيبين ٠٠ خطبة نهائية ، لا مجرد وعد !

أما التقليد الثانى فهو المعروف باسم « بيروبو » ٠٠ وهو يتمثل فى عبارات الاطراء والتغزل وامتداح مفاتن الانوثة ، يطلقها الرجال خلف المارات

فى الشارع من الاناث ٠٠ وليس من الضرورى ان تكون « البيروبو » كلمات صريحة ، بل يجوز أن تكون اشــارات ٠٠ كما يجوز أن تكون عكسية ، أى أن يطلق المغازل لسانه بذكر معايب الفتاة - بدلا من مفاتنهــا - حتى يبكيها !٠٠ وقــد تكون « البيروبو » قصيرة ، الى حــد ان تقتصر عـلى « يحرسك ربنا » ٠٠ أو « يا ولد ! » ٠٠ وقد تطول حتى تملأ كتــابا ، ٠٠ ويروج « البيروبو » فى جميع البلدان التى امتد اليها النفوذ الاسبانى يوما ٠٠ فتسمعه فى المكسيك ، وموزامبيق ، كما تسمعه فى كوبا ٠٠ الخ ٠

على أن « البيروبو » فى المكسيك ، يمتاز بأنه أقل جهرة وعلانية مما هو فى أسبانيا ، وأكثر جدية ورزانة ٠٠ حتى مواكب الميادين العامة فى أمسيات الاحد ، تبدو فى المكسيك مجرد مشى بطىء ، لا نوع من الرقص كما فى أسبانيا ٠٠ ولكن الغرض واحد ، وهو اتاحة الفرصة لأقل المكسيكيات حظا من الجمـال والرشاقة ، كى ينلن قسطا من الاعجاب ٠٠

وكذلك اصطلح القوم فى المكسيك على تحديد طرق تلقى عبارات الغـزل « البيروبو » ٠٠ فهى لا تعدو ابتسامة خفيفة ، ووقفة عابرة لا تستغرق لمح البصر ، ثم ترفع الحسناء أنفها فى كبرياء ، وتهز خصلات شعرها ٠٠ ثم تندفع ماضية فى طريقها ، تنشد فيضا جديدا من الاعجاب ، وفرصا جديدة للتسلل الى العالم الخيالى ، عالم الحب ، حيث يجوز لكل كلمة أن تحمل معنى غير معناها ، وحيث يكون للاشارة التى تعنى الاســـتهجان معنى عكسى يراد بها ، هو : « اتبعنى ! »

أوربا تسمح بالقبلات فى المترو والمتنزهات

◆ **وليس** فى فرنسا وانجلترا وألمانيا تقاليد من هذا النوع ، بل ان الشائع هناك « صفير » الفم ، وهمسات الغزل الخافتة ٠٠ **وفى فرنسا تباح القبلات العلنية فى قطارات « المترو » والسكك الحديدية ، ومحطاتها ، وفى المتنزهات ٠٠ ولا يملك رجل البوليس ازاءها سوى أن يشيح بوجهه الى الناحية الاخرى ٠٠**

على أنا لا نلبث أن نلتقى بنوع « البيروبو » فى جزر « بالى » و « جاوة » ٠٠ كما يحظى الصينيون منذ عهد طويل - ورغم تحفظهم - بنوع من « البيروبو » يتكون عادة من سطر ونصف السطر من أراجيز الهوى وقصائد الحب ٠٠ بل ان التحفظ الصينى قد بدأ ينهار بتحرر المرأة وبانتشار الرقص الغربى ، الذى يباح فيه للشاب أن يلصق خده بخد الفتاة ٠٠ فمع أن هذا الرقص محرم فى « بيكين » و « تيان تسين » ، الا أنه مباح فى شنغهاى ٠٠

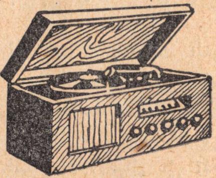
وأساليب الشباب الصينى فى الحب تفوق أساليب الاسبانيين ! ومع أنهم قل أن يعمدوا الى الصفير ، الا أنهم يولعون بالغمز بالعين ٠٠ ولقد كانت

اختلاجات أجفان العين فى الصين ـ فيما مضى ـ فنا لا يقل عن فن تحريك المروحة للغزل ، لدى الانجليزيات فى عهد الملكة فيكتوريا ٠٠ ولا عن فن الهندية فى تحريك أطراف « السارى » للفتنة ٠٠ على أن الفتاة الصينية لم تعد اليوم بحاجة الى أكثر من أن تدعو الشاب الذى تعجب به الى ٠٠ رقصة !

وهكذا تتغير أساليب الهوى القديمة بسرعة فى الصين الشيوعية ٠٠ فقد أصبحت « اللقاءات الغرامية » شائعة ، رغم أن الحكومة الشيوعية لا تكاد تحبذها ٠٠ بل هى تقف حائرة بين تقاليد الماضى وأساليب الشيوعية !

والخلاصة ، اننا مقبلون على عهد تؤدى فيه مخاوف البشر من الحرب ، الى القاء الرجال والنساء فى أحضان بعضهم بعضا أكثر من ذى قبل ٠٠ ومن ثم فسيزداد الاقبال على الغزل فى المستقبل ، مهما تغالى الحكومات فى اصدار القوانين لتقييده ٠٠ فليس الغزل بدليل على الانهيار الخلقى ، بل انه خليق بأن يكون دليلا على قوة الرجولة والنضوج فى الامة ٠٠ واذا كانت القوانين تستطيع أن تحد من الأعاصير والعواصف ، جاز أن يرجى منها أن تحد من الغزل !

راديو محمّد على حجازى



بثلاثة جنيهات شهريّاً

تستطيع أن تقتنى راديو جراموفون

.. وبجنيه واحد شهريّاً



تستطيع أن تكيف هواء مكتبك بمروحة كهربائية

.. وبجنيه واحد شهريّاً

تستطيع أن تنثر النجف فى حجرات منزلك

لتشيع فيه الضوء والبهجة والجمال



راديو حجازى
يتقدم لمساعدتك

معاملات إنسانية.. قبل أن تكون تجارية

١٣٣ شارع نهضة مصر ت ٥٦٧١٦

٢ ميدان باب الحديد ت ٥٦٧٠٣



ملكات ونساء - ٥

للكاتب الفرنسي الكبير هنري بوردو

راهبة البرتغال

قصة غرام ملتهب بين جدران الدير !

تلخيص : كليم أبو سيف

الراهبة ‥ العاشقة !

◆ فى الأعـداد الماضية قدم لنا الأديب الفرنسى المعاصر « هنرى بوردو » فى كتابه الممتع « ملكات ونسـاء » ، شخصيات كل من : «بيرينيس» ملكة فلسطين القديمة ‥ و «كليوباترا» ملكة مصر العظيمة ‥ ثم « مدام دى ديفان » و « جولى لسبيناس » ، ملكتى الصالونات الادبية فى فرنسا ، فى القرن الثامن عشر ‥ وأخيرا « كريستين » ملكة السويد الماجنة .

واليوم، يعود هنرى بوردو فيحلل لنا بقلمه القديرشخصية امرأة أخرى من النسـاء ـ غير الملكات ـ هى : « ماريانا الكوفورادو » الراهبـة البرتغالية التى تعد أنموذجا فريدا للمرأة العاشقة ، التى لم تمنعها قيود الدير ولا تقاليد الرهبنة التى وهبت نفسها لها ، من أن تتورط فى حب عنيف ـ بالروح والجسـد ـ أثارت قصته أوربا بأسرها ، حين افتضح أمره فى أواخر القرن السابع عشر !

١ ـ الحبيبان المجهولان !

◆ هى مأساة دامية من مآسى الحب العنيف ‥ ولكنها تمتاز عن نظائرها من مآسى الحب ، وما أكثرها ، بأنه فيهـا عنيف وطريف معا ! وأنها فاجعـة حقيقية من بدايتهـا الى نهايتها ، ليس فيها خيط واحد من نسج الخيال أو التأليف !

والطرافة فى هذه القصـة الواقعية أن الحبيبين فيها ظلا مجهولين ولغزين ملثمين ، ردحا طويلا من الزمن ‥ بالرغم من أن مأساة حبهما هزت العالم هزا ! ‥ ثم أسفر اللثام شيئا فشيئا عن ذلك اللغز المعمى ، فعرف ان الفتاة هى « راهبة » تقيم فى أحد الاديرة فى مدينة (بيجا) فى البرتغال ‥ ولكن من هى ؟ انها راهبة مجهولة !‥ وأن الشاب هو ضابط فرنسى تطوع فى الحملة الفرنسية التى ذهبت الى البرتغال لتحررها من نير الاسـبان ‥ ولكن من هو ؟ انه ضـابط مجهول !

‥ وتمضى الأيام ، وتنصرم الأعوام ، والسر مقنع دفين !‥ واذا بفيلق يجرد من الفضوليين ، فيذرع الدنيا ذهابا وايابا ،

باحثا عن الحبيبين المجهولين ٠٠ وراح ذلك الفيلق يضرب فى سراديب الحدس حينا ، وحينا آخر يضل فى متاهات التخمين ٠٠٠ ولكن دون جدوى ! واذا بكلمة تنفلت يوما من بين شفتى الحبيب المجهول يلقى بها فى اذن أحد أصدقائه الاوفياء ، ـ وهو يرجوه أن يطبق عليها صدره وأضالعه ، وقلبه وسمعه ولسانه ! ـ اذا بتلك الكلمة أو ذلك « الاعتراف » ، يصبح [illegible] السر المغلق ، الذى ان أراد ، كتمه وصانه ، وان [illegible] افشاه !

[illegible] ، المأساة وكثرة الحديث عنها فى جميع الاوساط والارجاء ، جعل السر الذى ائتمن الصديق عليه ، أشبه بحجر رحى جاثم على صدره ، لا يستطيع معه الى التنفس من سبيل ! ٠٠ واذا بالصديق يتنفس ٠٠٠ فنفث مع أنفاسه السر فى الهواء ، الذى حمله الى أربعة أركان الفضاء !

وأميط اللثام ، ورفع القناع عن أبى الهول الصامت ٠٠ فانفرجت الاستار ، وأضيئت الأنوار ، ليرى الناس على مسرح الحياة مأساة الراهبة البرتغالية : « ماريانا » !

رسائل حب ٠٠ ملتهبة !

◆ فى سنة ١٦٦٩ ، أصدرت مكتبة « كلود باربان » بباريس ، كتيبا صغيرا يحتوى على ١٨٢ صفحة بالبنط الكبير ، تضمنت النص الكامل لخمسة خطابات غرامية فريدة فى نوعها ، ترجمت الى اللغة الفرنسية من اللغة البرتغالية ٠٠

ولما كان العصر الذى ظهرت منه تلك الخطابات عصرا متحفظا بعض الشىء ، اتسمت فيه العواطف بالعقل والروية وعدم الجموح ، فقد أحدث نشر الخطابات المذكورة دويا هائلا ٠٠ لانه كان غريبا عن عقلية ذلك العصر ، وعاطفيته المتزنة ، أن يستطيع انسان ، رجلا كان أو امرأة ، أن يحب بذلك العنف ، وتلك

القوة والتضحية المثالية .. وعلى الاخص فى زمن وضع العقل فيه على القلب الصمام !

فمن هو كاتب تلك الخطابات ؟ أو كاتبتها ؟!

والى من كتبت الخطابات ؟!

لقد ظهر الكتيب المتضمن ترجمة تلك الخطابات العجيبة غفلا من أية اشارة الى شخصية كاتبها ومرسلها ، أو شخصية المرسل اليه ! اللهم الا كلمة عابرة تشير الى المكان الذى دونت فيه وصدرت عنه وهو البرتغال !

ولكن لم يكن من العسير أن يفهم من سياقها أن كاتبتها كانت « راهبة » شغفت حبا بضابط فرنسي جاء الى البرتغال فى الحملة الفرنسية المتطوعة لتحرير البرتغال من نير الاسبان .. كما لم يكن عسيرا أن يفهم ان تلك الراهبة قد كتبت تلك الرسائل الى عشيقها الضابط الشاب بعد أن هجرها عائدا الى وطنه فرنسا .. لان عباراتها كانت تنم عن الحزن الشديد الذى خلفه الهجران فى قلب الحبيبة الولهانة الثكلى !

وقد بلغت تلك الخطابات الخمسة من الذيوع والانتشار مبلغا عظيما ، وأعيد طبعها عدة مرات فى سنوات قليلة .. كما أثارت اهتمام الاديبة المعروفة « مدام دى سيفينييه » ، التى أبدت اعجابها الممزوج بالدهشة من تلك العاطفة المشبوبة التى استبدت بالراهبة البرتغالية المجهولة ـ لانها لم تكن من عمق الادراك بحيث تعى معنى الحب الازلى الذى لا يضعف ولا يفنى ! ـ وقالت تصف غرام تلك الراهبة بأنه كان على درجة من القوة أخافت فتيات ذلك العصر وأفزعتهن !

الراهبة البرتغالية .. من هى ؟!

◆ **وقبل** الدخول فى تفصيلات مأساة غرام تلك الراهبة البرتغالية الملثمة ، نقتطف هنا بعض فقرات قصيرة من خطاباتها المفجعة ، التى تنطق بمبلغ ما عانته تلك المسكينة من ألم ، وبعمق

الحب الذى اختلج بين جوانحها ٠٠ لقد كتبت الى حبيبها فى احدى رسائلها تقول : « **لقد قررت أن اكرس حياتى لك منذ اللحظة الاولى التى وقعت فيها عيناى عليك ٠٠ واننى لاستشعر سعادة كبرى وأنا أضحى بهذه الحياة من أجلك !** »

وفى موضع آخر تقول : « **اننى عازمة عزما أكيدا أن أقيم على حبك مدى حياتى ، ولا أرى انسانا سواك ٠٠ أتراك تقنع بحب أقل عنفا من حبى هذا !؟ انك قد تستطيع أن تعثر على امرأة تفوقنى جمالا ـ (مع انك اعترفت لى بأنك ترانى جميلة !) ـ ولكنك لن تستطيع العثور على حب دافق عارم صاخب مثل حبى ٠٠ وما عدا ذلك فلا قيمة له !** »

وفى موضع ثالث : « **لن يستطيع القدر أن يفصم عرى حبنا ، لان الحب أقوى منه ! وقد أراد الحب أن يؤلف ما بين قلبينا الى الأبد ٠٠ فليس للقدر اليه من سبيل !**

« **الوداع ! اننى عاجزة عن التحمل أكثر مما تحملت ٠٠**

« **الوداع ! ولتحببنى دائما ٠٠ ولتجرعنى المزيد من العذاب والآلام !** »

وقد ختمت الراهبة خطابها الأول هذا الى عشيقها بهذه العبارة الاخاذة : « **انك لأحق منى بالرثاء ٠٠ فلقد كان من الأفضل لك أن تتحمل الآلام التى أتحملها ، بدلا من أن تتذوق تلك اللذات الناقصة التى تجدها بين أحضان غيرى من عشيقاتك الفرنسيات !!** »

فمن كانت تلك الراهبة البرتغالية ، كاتبة هذه الرسائل، وبطلة هذه المأساة ؟

قبل أن أعرض على القارىء قصتها ، ينبغى أن أضع أمامه صورة صحيحة للحالة التى كانت عليها الأديرة فى القرن السابع عشر فى البرتغال ٠٠ ففى ذلك العصر لم تكن قواعد الأخلاق الصارمة ولا تعاليم الدين الحرفية مطبقة بمثل الشدة التى عرفت فى الأديرة بعد ذلك التاريخ ـ والى اليوم ! ـ

بل كانت الأديرة فى البرتغال فى تلك الحقبة من الزمان أشبه « بملاجىء » تلوذ بها الفتيات لأسباب لا تمت الى الدين بسبب فى أغلب الأحايين ! فكانت بعض الاسر مثلا تبعث بفتياتها اليها ليعشن فيها فى مأمن من الاحداث المفاجئة والانقلابات السياسية والهزات الاجتماعية ٠٠ فمنذ القدم كانت للأديرة حصانة وقدسية ، لا يستطيع معها « جيش » أن يقتحمها ٠٠ ولا يجرؤ معتد على الدنو من أسوارها !

واذن كان من الضرورى وتلك كانت الحال ان تكون الرقابة المفروضة فى داخل الأديرة رخوة لينة ، بل ان تنعدم فى بعض الاحايين !٠٠ صحيح أن الفتيات اللواتى كن يذهبن أو يلجئن الى تلك الأديرة ، كن يصبحن راهبات من الناحية الرسمية الدينية بمجرد دخولهن اليها ، ولكنهن من الناحية الاجتماعية ، كن يتمتعن بحرية أوفر وأوسع بكثير من الحرية التى كانت ممنوحة للمتزوجات فى ذلك العهد العجيب ! **فمثلا كان مسموحا للراهبات فى أديرة البرتغال بالتأنق فى الملبس ٠٠ وكانت الجميلات الصغيرات منهن لا يتورعن عن الظهور وهن عاريات الصدور !٠٠ كما كان مباحا لهن أن يستقبلن من الزائرين من شئن ـ ومتى شئن ـ فى بهو الدير الكبير ٠٠ ثم تطورت الزيارات حتى لم تعد قاصرة على الردهات العامة والبهو الكبير !!**

ومن المفارقات العجيبة انه فى الوقت الذى كانت فيه الراهبات فى الأديرة ينعمن بالحرية المطلقة ، كانت النساء المتزوجات يرسفن فى اغلال رقابة شديدة فرضت عليهن من أزواجهن الذين تميزوا بالغيرة الوحشية على زوجاتهن ٠٠ فما كان أيسر على الزوج الذى تدور فى مخيلته شبهة من الشك فى سلوك زوجته ، من أن يستل خنجره ويغمده فى صدرها فى الحال !٠٠ ومن هنا كان حرص النساء المتزوجات على الظهور بمظهر المتحفظات المحتشمات ، ان لم يكن خوفا على سمعتهن

فخوفا على حياتهن من الضياع فى طرفة عين !٠٠ غير أن ذلك الفزع من الازواج لم يكن ليردهن عن غيهن ، اذ كن لا يعدمن وسيلة لخيانة اولئك الازواج المتوحشين ، ان لم يكن لشىء ٠٠ فبدافع الانتقام منهم لغيرتهم البربرية الرعناء !

واذن فقد كان أيسر على الرجال مغازلة الراهبات فى الأديرة من المخاطرة بمغازلة المتزوجات !٠٠ وقد سجلت « ماريانا » هذه الحقيقة فى احدى رسائلها الخمس ذائعة الصيت فقالت : « **لا شىء يحول دون الراهبات والتفكير فيمن يعشقن من الرجال !٠٠ ذلك لانهن فى عزلتهن عن العالم لا يجدن شيئا آخر ينسيهن غرامهن ٠٠ وانه ليخيل الى انه ليس من المستحب ولا المستساغ عند الرجل العاشق ان يرى معشوقته توزع نشاطها وتفكيرها بين مواضع شتى تافهة غير الحب ! ان المرأة أكثر تعرضا لاخطار الغيرة ونزواتها الجامحة التى تصيبها من الرجل ٠٠ وعليه فهى مضطرة ـ كى تتفادى تلك النزوات ـ لان تكون غاية فى الحذر : فى مسلكها ، وحياتها الاجتماعية ، وأحاديثها ٠٠ واننى لانصح النساء جميعا بأن يأخذن حذرهن الشديد من الرجال الذين لا يطلبون منهن حسابا عن أعمالهن ٠٠ والذين يتظاهرون بتصديق كل ما تقوله لهم عشيقاتهم ٠٠ حذار من هذا الطراز من الرجال ، فهو اما ماكر خبيث ، أو غادر خؤون !** »

حقا ! ما أشق الحياة بين حبيبين يرين عليهما الشك فى كل ما يعملان ! فان المرأة فى هذا الجو الخانق تظل سرا مغلقا على الرجل الذى تنهشه الغيرة دائما بأنيابها المسمومة ٠٠ فاذا جلسا يتحدثان ، فلكى يستجوبها الرجل وعيناه زائغتان : ماذا صنعت ، وأين كانت ؟٠٠ واذا صمتا ، كان صمتهما أشد وخزا وايلاما من الكلام !٠٠ ويزيد الموقف حرجا وتعاسة اذا كانت المرأة تحب بالفعل رجلا آخر غير زوجها ، فانها فى

تلك الحالة تلجأ الى الختل وتعمد الى الكذب والنفاق ٠٠ فاذا بهذه النقائص وقد سرت فى الحياة الزوجية سما بطيئا قد يقضى عليها ، أو يمتزج بها كما يمتزج السم بالماء ٠٠ واذا بحياة الزوجين التعسين تحت سقف واحد قد استحالت الى جحيم ٠٠ فاذا عمدا الى الانفصال ، وجداه أكثر استحالة من الحياة وأشق سبيلا !

٢ ـ الكونت دى شاميلى

◆ نشبت الحرب بين البرتغال وبين اسبانيا التى كانت تهددها دائما بالغزو ٠ ولما كانت فرنسا لا تستطيع أن تقف مكتوفة اليدين أمام حرب كهذه فقد جردت حملة ـ لشد أزر البرتغال ـ بقيادة « الكونت دى شومبرج » ، عززتها بحملة أخرى بقيادة « بريكنو » كان قوامها عددا من شباب الضباط الفرنسيين المغامرين ، بينهم ضابط كان يدعى « الكونت دى شاميلى سان ليجيه »

ولم يكن الضابط الشاب « الكونت دى شاميلى » يتصور وهو يتطوع فى الحملة الفرنسية الى البرتغال ، ان حبا جارفا سوف يترصده هناك ـ فقد ثبت انه هو المقصود بخطابات « ماريانا » ، وانه هو الحبيب المجهول ! ـ ومن الانصاف أن نقول أن دى شاميلى لم يخن عشيقته فيفشى سرها ، وانما افتضح هذا السر لأسباب لا دخل لارادته فيها ٠٠ وتفصيل ذلك انه بعد انقضاء الحملة الفرنسية الى البرتغال ، عاد دى شاميلى الى فرنسا حيث سافر الى الريف ٠ وكثيرا ما يأنس الشاب الى صديق يخصه بأسراره ويكشف له عن مغامراته الغرامية ، لما يتوسمه فيه من وفاء ٠٠ وهكذا لم يكد « دى شاميلى » يلتقى فى الريف باثنين من أصدقائه المقربين ، يدعى أحدهما « سوبلينى » والآخر « جوبراج » ، حتى أحس كأن سره يثقل على صدره ، فأراد أن يشرك صديقيه فى حمل جزء من عبئه الفادح ٠٠ فاذا هو يبوح بسره لهما ، واثقا كل الثقة من أمانتهما ووفائهما وكتمانهما !٠٠

لكنهما لم يكونا جديرين بهذه الثقة ، فاذا بهما ـ أو بأحدهما على الاقل ـ يخون الامانة ، ويجعل من حياة صديقه الخاصة سلعة متداولة فى السوق !٠٠ وكان « دى شاميلى » من البله بحيث سلم الخطابات الخمسة ـ وكانت مكتوبة باللغة البرتغالية ـ الى صديقه « جوبراج » الذى كان يجيد عدة لغات ، منها البرتغالية ٠٠ فقرأها « جوبراج » وردها اليه ثانية ـ فليس من شك

اذن فى انه هو الذى نقلها الى الفرنسية أثناء وجودها فى حوزته ! ـ وليس من شك فى انه هو الذى دفع بها الى مكتبة « كلود باربان » فى باريس ، التى تولت طبعها ونشرها على العالمين غفلا من اسمى الحبيبين المجهولين ! ولم يكن اغفال ذكر اسمى البطلين مقصودا به حفظ كرامتهما والابقاء على سرهما ، وانما كان ذلك الكتمان المتعمد لسبب آخر هو استثارة فضول القراء لمعرفة بطلى القصة ٠٠ الأمر الكفيل بزيادة رواج الكتاب !

وتنبه « دى شاميلى » الى الكمين الذى وقع فيه ، ولكن بعد فوات الأوان !٠٠ فماذا عساه يصنع ؟ لم يستطع الا أن يلوذ بالصمت المطبق والسكوت العميق ٠٠ بعد ان أخفى أصول تلك الخطابات فلم يتمكن أحد من العثور عليها بعد ذلك ـ وأغلب الظن انه أحرقها مخافة أن تقع مرة أخرى فى أيدى الفضوليين من أمثال صديقيه الخائنين ! ـ وهكذا أصر «دى شاميلى» على عدم البوح باسم عشيقته ! كما أصر على انه ليس المقصود بتلك الخطابات ٠٠ وان كان ذلك لا يبرئه من الخطأ الذى تورط فيه حين أفشى سر حبه لصديقيه ، فابتذل بفعلته تلك قداسة الحب العظيم الذى كان هو ملهمه ، ومرغ فى الوحل قلبا كبيرا طاهرا كان هو محطمه ! أما طبع الخطابات بعد ترجمتها الى الفرنسية ، ثم نشرها على الناس ، فهو اثم أشد ، ولكن « دى شاميلى » برىء منه بلا مراء ٠٠

بقى ان نتساءل : هل نأسف على ذيوع ذلك السر وانتشاره ووقوعه فى أيدينا ؟٠٠ بالعكس ، فلقد أضافت قصة حب « ماريانا » ذخيرة نفسية الى التراث الانسانى ، ستظل خالدة على مر الأجيال !

« بوتون » ٠٠ الغبى !

◆ ولنعد الى بطل القصة ، فمن هو « دى شاميلى » هذا ؟٠٠ لقد شاء سوء حظه أن تكون الصورة الوحيدة المرسومة له هى تلك الصورة البشعة التى رسمها قلم المؤرخ الجبار « سان سيمون » وليس من السهل تقصى حقيقة تلك الشخصية ومعرفة مقدار ما فى وصف « سان سيمون » لها من صدق أو تحامل ، لان ما كتبه ذلك المؤرخ كان الاثر « الوحيد » الوافى الذى عثرنا عليه ٠ فماذا قال « سان سيمون » عن « الكونت دى شاميلى » ؟ ٠٠ قال : « كان الاسم الحقيقى للكونت دى شاميلى هو « بوتون » ، وكان من أسرة فرنسية عريقة نبتت فى مقاطعة (البرجون) وأدت الى فرنسا خدمات عظيمة قبل عام ١٤٠٠ ٠٠ الا انه من الصعب علينا أن نتصور ان شخصية كشخصية « بوتون » هذه يمكن أن تلهم مثل ذلك الحب الداوى الدافق العنيف ! كما انه من العسير أن نصدق أن تلك الشخصية التافهة يمكن أن تكون من الذكاء والالمعية بحيث تكتب تلك الردود الاخاذة على خطابات الراهبة البرتغالية ماريانا !٠٠ لان « بوتون » هذا ـ الذى أطلق عليه فيما

بعد اسم الكونت الماريشال دى شاميلى ، والذى تبوأ أعلى المناصب فى فرنسا حتى كاد يصل قبيل وفاته الى منصب القائد العام للجيوش الفرنسية ، بفضل اعجاب الملك به وثقته فيه ٠٠ « بوتون » هذا لم يكن سوى رجل ضخم ، بدين الجسم ، وبالرغم مما اتسم به من شجاعة فقد كان من الغباء بحيث كان أعجز من أن يظهر أى تفوق أو امتياز فى فنون الحرب ! أما زوجته فقد كانت الفضيلة مجسمة ! تقية متعبدة منذ طفولتها ، حاضرة البديهة ذكية حلوة المعشر ٠٠ لم تمنعها تقواها المفرطة منغشيان المجتمعات ! حتى لقد كان يخيل لعارفيها انه بالرغم من توفرها على الاعمال الخيرية وتعبدها ، فانها كانت أقرب الى حياة المرح والطرب والشرف من حياة التعبد والتقوى والصلاة ! وكان حديثها من الطلاوة والحلاوة بحيث كان ينسى سامعيها ما كانت عليه من قبح ودمامة منقطعى النظير ! ولذلك فقد ظلل الوفاق بجناحيه حياتها الزوجية مع الكونت دى شاميلى ! ولم يرزقا أولادا ، رغم ثرائهما العريض معا ، فلما تقدمت بهما السن خيم عليهما حزن عميق كاد يقربهما الى البلاهة ٠٠ وكانت الزوجة من الذكاء بحيث كانت تقوم بجميع الاعمال والاعباء الملقاة على كاهلى زوجها ، تاركة الناس يعتقدون انه هو الذى يقوم بتلك التبعات الجسام ! »

هذا بعض ما كتبه المؤرخ « سان سيمون » عن الكونت الماريشال دى شاميلى وزوجته ٠٠ وفى الحق انه من سوء طالع أى انسان ذى سمعة وصيت أن يلتقى فى حياته بعبقرى يجرد عليه قلمه لانه يرى فيه مالا يروقه ـ فقلم العبقرى يدمى ويبتر كحد السيف ! ـ غير أن حكم سان سيمون ليس منزها، فقد كان تحيزه وتجنيه على شخصيات التاريخ الفذة مضرب الامثال ! وأصدق ما يوصف به أنه كان عبقريا وغبيا معا !٠٠ وقد يبدو هذا التعبير غريبا متنافرا بالنسبة للنظرة المجردة ، ولكنه ليس من التنافر والغرابة كما نتصور ٠٠ فكما أن العبقرية منحة عظيمة ، كذلك الذكاء منحة لا تقل عنه قدرا ٠ وفهم الناس على حقيقتهم ، وفهم الحياة فى جوهرها الحر ، يحتاج الى بصيرة نافذة ، أى الى ذكاء ٠ فالذكاء اذن ، لاالعبقرية ، هو السبيل الوحيد الذى يقودنا الى معرفة جوهر الحياة ، وجوهر الحياة هو الحقيقة !

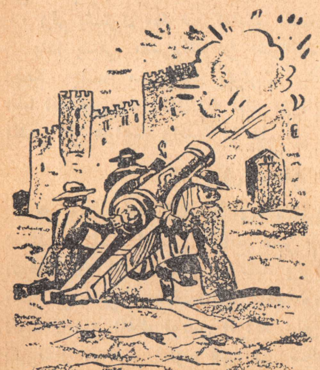
انتصار المهزوم !

◆ وليس من شك فى ان الكونت دى شاميلى يختلف كل الاختلاف عن ذلك الذى يصوره لنا سان سيمون : فقد كان أعظم جندى ظهر فى فرنسا فى القرن السابع عشر ! وظل على ولائه للملك بالرغم من أن أباه وأخاه انخرطا فى سلك الجيوش المناوئة للملك ! ثم ساهم فى معركة « الفلاندر » ولمع فيها

لمعانا كبيرا ، ومن ثم سافر الى البرتغال فى الحملة التى كانت بقيادة « شومبرج » « وبريكنو » كما ذكرنا آنفا ..

وبعد عودته من البرتغال اشترك فى الحملة الفرنسية ضد الاتراك ، ولمع فيها أيضا لمعانا كبيرا . وظل يخوض المعارك ويقتحم ميادين القتال مظفرا منتصرا ، زهاء خمسة وعشرين عاما ، لم ينعم عليه برتبة الماريشالية الا فى ختامها !.. ولقد سجل له التاريخ موقفا فريدا فى الروعة والبسالة أثناء حرب هولندا ، فقد انهزم جيشه فى الحرب أمام الالمان ، فلجأ بفلوله الى مدينة (جراف) واعتصم بها . وكان خصمه القائد الالمانى « رابنهوبت » يحاصر المدينة من الخارج ويطوقها بجيشه القوى الذى كان يفوق فى العدد والعدة جيش دى شاميلى المهزوم المطوق المحاصر !.. وأخذ الجيش الالمانى يدق أسوار المدينة دقا بمدافعه الثقيلة ، حتى كادت النيران تلتهمها وتأتى عليها ! عندئذ بعث « دى شاميلى » برسول الى القائد الالمانى « رابنهوبت » يطلب منه افساح الطريق أمام النساء والاطفال لاخلاء سبيلهم من المدينة المحاصرة المشتعلة بالنيران !.. ورفض « رابنهوبت » طلب دى شاميلى .. ولما كان القائد الالمانى مسنا دميم الخلقة ، فقد أرسل اليه دى شاميلى رسالة يرد بها على رفضه ، قال فيها :

« اننى لأحتفظ بكل سرور بالنساء اللواتى ترفض اخلاء الطريق أمامهن ليحضرن اليك اذا ما أطلق سراحهن .. ولا يدهشنى صنيعك هذا يا سيدى لانك ، فى سنك الحالية ، لا تستطيع أن تفعل غير ذلك ! »



وما كاد يصل رد « دى شاميلى » الى « رابنهوبت » حتى استشاط غضبا من هذه الاهانة التى ألحقها به القائد الفرنسى .. فاذا به يمطر مدينة « جراف » وابلا من القذائف والقنابل ! ولكن « دى شاميلى » صمد له كالطود الراسخ الاشم ، مصرا على المقاومة حتى آخر نسمة من حياته وحياة جنوده ! .. واذا به يتلقى فى هذه الاثناء رسالة من فرساى ، بعث اليه بها الملك ، يطلب منه

فيها أن يسلم٠٠وقد جاء فى رسالة الملك : « اننى لأفضل الابقاء على حياتك ، على المزايا التى قد أحصل عليها من جراء اصرارك ورجالك البواسل على المقاومة ! » ٠٠ وان خطابا كهذا يوجهه الملك الى أحد قواده ، لدليل ناصع على منزلة القائد ومركزه السامى فى أمته !

ولكن ، هل أطاع « دى شاميلى » أمر الملك اليه بالتسليم ، وألقى السلاح بلا قيد ولا شرط ؟! كلا ! بل انه بعث الى خصمه رابنهوبت بشروطه التى يصر عليها كاملة غير منقوصة لكى يلقى السلاح ٠٠ والا فالمقاومة حتى الفناء !

أما تلك الشروط فكانت تتلخص فى ان يخرج الجيش الفرنسى المحاصر حاملا معه جميع معداته وعتاده الحربى بينما يدق جنوده الطبول ويرفعون الاعلام ويوقدون المشاعل كما لو كانوا قد خرجوا من ميدان القتال منتصرين !

وقبل القائد الالمانى رابنهوبت جميع شروط خصمه ، واطلق سراح الجيش الفرنسى ٠٠ فخرج من الحصار المضروب عليه مرفوع الرأس ، محوطا بالتبجيل والتكريم !

وكان مما قاله سان سيمون أيضا فى معرض هجومه على دى شاميلى : «لقد كان لزوجته عقل يكفى اثنين ! ٠٠ » أى انه ـ هو ـ كان مجردا من العقل على الاطلاق !٠٠ فرد عليه أحد المؤرخين بقوله : « اذا كان لزوجة شاميلى عقل يكفى اثنين ، فقد كان له « هو من الشرف والبسالة والنخوة ما يكفى أربعة ! »

أما اتهامه بالجهل الى حد العجز عن كتابة تلك الخطابات البليغة التى رد بها على خطابات ماريانا ، فقد دل البحث الدقيق الامين على انها كتبت جميعا بخطه ٠٠ ولم يشترك معه فى كتابتها انسان !

ماذا يتبقى بعد ذلك من افتراءات « سان سيمون » ؟ ما أسهل أن يجلس الجهلاء جلسة مسترخية يكيلون أثناءها التهم جزافا وبغير حساب فيقولون عن هذا انه غبى وعن ذاك انه تافه ،وينالون من أقدار أفذاذ الرجال بالقول الرخيص الملقى على عواهنه والذى ان دل على شىء فعلى تفاهة قائليه ، وحقارة مروجيه !

درس فى سمو الخلق الانسانى ٠٠

◆ وحين عاد الكونت دى شاميلى الى فرنسا بعد حصار (جراف) ، استقبله الملك لويس الرابع عشر استقبالا رائعا مشرفا ٠٠ وهنا أيضا تأبى الوقائع الا أن تدحض شانئيه وترفعه أمام الناس وتعلى من قدره فى موقف آخر من أنبل المواقف التى يقفها رجل فى التاريخ : ذلك انه حدث أن أوقع الوشاة بين الملك لويس الرابع عشر وبين القائد « بريكنو » ، قائد حملة البرتغال ـ التى تطوع فيها دى شاميلى كضابط صغير تحت امرته على نحو ما ذكرنا ـ فما كان من الملك الا أن قبض على « بريكنو » وزج به فى سجن

الباستيل !٠٠ وكان « دى شاميلى » قد بات الآن أثيرا عند الملك ، الذى أحله منه مكانا رفيعا وغمره بعطفه وتقديره ، فماذا عساه صانعا يا ترى ٠٠ وعلى أى وجه سيستغل رضاء الملك عنه ! لقد ضرب الحديد وهو ساخن ، فبينما كان فى حضرة مولاه يضفى عليه ألقاب التشريف وعبارات الثناء ، اذا به يوجه الى الملك الكلام قائلا :

« مولاى ! اننى ألتمس من جلالتكم العفو عن القائد العظيم « بريكنو » واطلاق سراحه من سجن الباستيل الذى يعتقل فيه الآن ٠ فقد عملت يا مولاى تحت أمرته ، واليه يرجع الفضل فى تدريبى وتعليمى وتكوينى ذلك التكوين الذى جعل منى فيما بعد رجلا نافعا لبلادى أستحق ذلك العطف السابغ الذى يغمرنى به مولاى ! »

أعجب لويس الرابع عشر بسمو نفس الكونت دى شاميلى ونبلها ـ فهو لم يطلب لنفسه شيئا ، وتذكر وهو فى قمة مجده قائده القديم الذى كان اذ ذاك فى محنة قاسية ـ فاذا به يجيبه الى ملتمسه ويعفو عن « بريكنو » ويأمر بالافراج عنه فورا !

المأساة وكيف وقعت فصولها !

◆ كان الضابط « دى شاميلى » فى الثلاثين من عمره عندما وقع بصره لأول مرة على الراهبة « ماريانا » فى مدينة (بيجا) فى البرتغال ٠ وكان شابا حسن الهندام ، فارع القوام ، كما كان جنديا ممتازا يخصه رئيسه وزملاؤه بالاعجاب والاكبار ٠٠ وكان تفكيره منصرفا الى الحرب ، أكثر من انصرافه الى الحب ! لكن الضباط والجنود فى الغزوات الحربية لا يرفضون حبا عابرا يجدون فيه ملهاة لهم وتسرية عن نفوسهم المكدودة من أعباء حياة الميادين الجافة الخطرة ٠٠ وان كانوا ـ فى الوقت ذاته ـ لا يحملون ذلك النوع من الحب على محمل الجد لانهم يعلمون انهم لا شك عائدون يوما الى وطنهم الذى خلفوا فيه وراءهم اما زوجات قلقات يسبحن فى الدموع خوفا عليهم ، أو عشيقات يترقبن عودة أحبائهن مشوقات ولهانات ٠٠ وكانت مدينة (بيجا) فى البرتغال هى المتنفس الذى يجد فيه هؤلاء الضباط والجنود المغتربون راحة لاعصابهم وترفيها عن نفوسهم المثقلة بالهموم ٠٠ فما ألذ المتعة الخاطفة التى يتذوقها بين الحين والآخر اولئك الذى تتعرض حياتهم للخطر فى كل دقيقة ، ويرون الموت قريبا منهم على الدوام ٠٠ يترصد خطواتهم !

وكانت النساء المتزوجات أخطر صيد يمكن اقتناصه كما أسلفنا ، لغيرة أزواجهن الجنونية الوحشية عليهن ٠٠ أما بنات الهوى الرخيصات فهن دائما الصيد السهل لهؤلاء الشبان ، يقضون بين أحضانهن أويقات راحتهم القصيرة الخاطفة ٠٠

ولكن ، فيما عـدا هـؤلاء وأولئك ، ترى ما شأن أولئك الراهبـات الفاتنات اللواتى يعشن خلف أسوار الأديرة الشاهقة ، عساها تحميهن من مغريات المجتمع ومفاسده ؟ هل هن عزيزات المنال خلف تلك الحصون والقلاع ؟

لقد ذكرنا فيما سبق أن كثيرات منهن لم يذهبن الى تلك الأديرة للتعبد ، وانما خضوعا لظروف الحياة السياسية والاجتماعية فى البرتغال يومئذ ، تلك الظـروف التى كانت تلجىء بعض الاسر الى ارسال فتياتها الى الأديرة خوفا عليهن من فساد الحياة الاجتماعية من ناحية ، وحماية لهن من اخطار القـلاقل السياسية من ناحية أخرى .. وقد بلغ عددهن وقت وقوع قصة « ماريانا » حوالى المائتين ، كن أسهل منالا من المتزوجات المحاصرات بأزواج خطرين ، كما كن أرفع قيمة وأغلى قدرا من بنات الهوى الرخيصات .. ولما لم تكن هناك رقابة صارمة مفروضة عليهن ، فقد كان لقاؤهن سهلا ميسورا بالنسبة للضباط الذين هبطوا البلدة.ولكن ، أليس غرام هؤلاء حبا عابرا على كل حال، لا دوام له ولا بقاء .. مهددا بالزوال فى كل لحظة : اما بعودة هـؤلاء الضباط الى أوطانهم ، أو بموتهم فى ميادين القتال ؟

ولنبدأ القصة من أولها :

الدير لا يطبق قوانين الدين !

◆ كانت مدينة (بيجا) فى الزمن القديم احدى المدن الرومانية ، ولكنها تحولت فى القرن السابع عشر الى مدينة حصينة منيعة تابعة للبرتغال .. وكان أشهر ما فيها ذلك الدير التاريخى الكبير الذى وضعت أساسه راهبات «سانت كلير » .. وكان الدير محوطا بسور ضخم ، لا تكاد تجتازه حتى ترى أمامك حدائق غناء تحف بها أشجار باسقة على طول الممرات المؤدية الى مبناه .. ولكى تصل الى هذا المبنى ، كان يتعين عليك أن تسير وسط قباب شامخة تنتهى بك الى الردهة الداخلية الفسيحة ، الرائعة الزخرف والنقوش ..

فاذا ما سرت بين الاشجار الباسقة التى تزين الحديقة الغناء ، أحسست بالنسمات الناعمة تهب عليك ممتزجة بأصوات المياه المتصاعدة من نافورات ضخمة هى آية فى الفن الجميل ، مبعثرة هنا وهناك فى الحديقة المورقة الخضراء .. وان روعة الدير وما طليت به جدرانه من زخارف ، ليدلك دلالة واضحة على انه ، منذ تأسيسه ، كان محل رعاية رجال البلاط والحـكومات المتعاقبة فى البرتغال ، بل والشعب البرتغالى نفسه ..

أما من الناحية الدينية البحتة فلم تكن قوانين الدين مطبقة فى الدير بقسوة وصرامة ، لانه كان مكتظا بالفتيات اللواتى اعتدن الحياة الناعمة اللينة .. فاذا كن قد اعتصمن به ، فقد فعلن مدفوعات بدوافع خالية من الهوس الدينى ، بحيث لا تتعارض مع التسرية عن النفس دون اندفاع أهوج أو جموح ..

وكانت فى الدير راهبة تدعى «ماريانا الكوفورادو» ولدت فى سنة ١٦٤٠ .. وقد جىء بها الى الدير منذ طفولتها ، ولما بلغت الثانية عشرة من عمرها بدأت تعد نفسها للانخراط فى سلك الرهبنة رسميا .. فما أن بلغت السادسة عشرة حتى لبست ثياب الرهبنة وتلقت مسوحها وأخذت تزاول الشعائر والطقوس الدينية التى تستتبعها وتوجبها حياة الرهبنة .. أى ان «ماريانا» لم تكن من طراز اولئك الفتيات اللواتى قدمن الى الدير ليقمن فيه بعيدات عن القلاقل والانواء التى كانت تجتاح البرتغال فى ذلك الحين .. ولا من طراز الفتيات اللواتى يعشن فى الدير حياة الدعة والرفاهية والنعومة .. بل كانت مترهبة بكل ما فى هذه الكلمة من معنى دينى دقيق !

ولم يثر تكريس « ماريانا » حياتها للرهبنة اهتماما كبيرا عند والديها فقد كان ذلك من الامور المألوفة التى اعتادتها الاسر البرتغالية فى ذلك العصر - وكانت أسرة ماريانا غاية فى العراقة والقدم ، بل أنها أقدم فى التاريخ من قيام مملكة البرتغال نفسها !.. فقد نزح أبوها « فرانسيسكو دى كوستا الكوفورادو » من مسقط رأسه فى (تراسوس مونتس) وتزوج فى مدينة (بيجا) من ابنة تاجر غنى تدعى « ليونور » ، ورزق منها ثلاثة أولاد واربع بنات .. ولما رأى ان توزيع ثروته على سبعة من الاولاد سيبعثرها ويفتتها ، فقد قرر ادخال ثلاث من بناته الدير ، وهن « ماريانا وكاترينا » أولا ، ثم « بريرجرينا » بعد ذلك . وكان هدفه من هذا العمل هو الاحتفاظ بثروته لاولاده الذكور الثلاثة !.. ولم تهرب من الرهبنة الا ابنته الرابعة « آناماريا » التى تزوجت من أحد أثرياء البرتغال ولكنها لم تكن أسعد حالا من شقيقاتها الحبيسات فى الدير !

وكان الاب من أبطال البرتغال الصناديد ، كما كان أديبا نابها وخطيبا مصقعا .. أعلنها حربا شعواء على الاسبان ، فلما مات فتحت وصيته فاذا به يوصى بأن يدفن بعد موته بملابسه الرسمية وبجواره سيفه !.. وأن تشيع جنازته كجندى من جنود المسيح ! .. وهى وصية تدل على اعتزازه بنفسه وغروره ، أكثر مما تدل على تقواه !

ذلك والد ماريانا ، وتلك أسرتها وطفولتها وأسباب دخولها دير «نوتردام» فى مدينة (بيجا) .. وكانت المدينة مهددة وقتئذ بالغزو من القوات الاسبانية ، واذا بالجيش الفرنسى بقيادة « شومبرج » ، وقوامه عدد قليل من الضباط والجنود الفرنسيين ، ينقذها من براثن الاسبان ويردهم عنها خاسرين .. وكان دير نوتردام يطل على مدخل المدينة ، فلم يكن من العسير على الراهبات المقيمات فيه أن يشهدن دخول الجيش الفرنسى اليها مظفرا بعد أن هزم الجيش الاسبانى . وكانت « ماريانا الكوفورادو » تقيم فى الدير فى ذلك الوقت ومعها أختها « كاترينا » ، واذا بها تتلقى خبر وفاة أمها .. ولم يمض

زمن قصير حتى صدمت بوفاة أختها « كاترينا » ، فأرسلت اليهـا فى الدير أختها الصغرى « بريجرينا » لتحل محل المتوفاة فتؤنس وحشتها وتخفف من حدة حزنها ..

وعاشت الاختان معا فى جناح من الدير توافرت فيه جميع أسباب الراحة ـ بينما جرت العادة فى الاديرة أن تقيم الراهبات فى صوامع ضيقة مقبضة ، وفى عزلة تامة ، عن العالم ! ـ وهكذا ، من احدى النوافذ المطلة على مدخل مدينة (بيجا) ، شاهدت « ماريانا » لاول مرة « الكونت دى شاميلى » الذى قلب حياتها ظهرا على عقب .. وعصف بقلبها كما تعصف الرياح الهـوج بالزهور الناعمة اليافعة !

وعسكرت فـرقة الفرسان ـ وهى فرقة « دى شاميلى » ـ فى السـهل المنبسط أمام الدير ، وأخذت تقوم فيه بمناورات وتدريبات عسكرية رائعة خلبت ألباب السكان ـ وعلى الاخص ألعاب الفروسية التى قام بها الفرسان ! ـ ولنترك « ماريانا » ، ولم تكن قد عرفت « دى شاميلى » بعد ، تصف لنـا شعورها عند ما وقع بصرها عليه لاول مرة من نافذة الدير :

« كنت واقفة أمام تلك الشرفة فى ذلك اليوم الذى كتب لى القدر أن أحس فيه بأول خلجة من خلجات حبى التعس ! .. لقد خيل الى انك تتعمد أن تحوز اعجابى أنا بصفة خاصة ـ مع انك لم تكن قد عرفتنى بعد ! ـ وكنت أنا من جانبى أحاول أن أقنع نفسى بأنك قد رأيتنى وآثرتنى دون سائر الراهبات اللـواتى كن معى فى تلك اللحظة !.. كما خيل الى ، حين كنت تتمهل فى سيرك أمامنا وأنت فوق صهوة جوادك ، انك تتعمد ذلك التمهل لكى تمنحنى فرصة أراك فيها وأنت تتبختر بذلك الجواد فى قوة وروعة واعتزاز ! .. ولقد تملكنى نوع من الفـزع عند ما أبصرت بك وأنت تقفز به قفزا ، خشية أن تتعرض حياتك للخطر !.. وتوهمت أنك تتعمد تلك القفزات الخطرة ، كى تثير اهتمامى ، وتوجهه اليك ، وتركزه فيك .. واسـتبد بى فى تلك اللحظة احساس قوى بأنك لست انسانا مجهولا ولا عاديا بالنسبة لى ، وانك انمـا ترقبنى وتعنينى أنا دون غـيرى بكل حـركة تأتيها من حركات تلك الفروسية الخلابة التى بهرت كل من رآك فى ذلك الميدان الفسيح ! »

ومن تلك النافذة ، التى كانوا يطلقون عليها اسم « نافذة مرتولا » ، ستقف « ماريانا » عدة مرات تترقب قدوم فارس أحلامها الذى سيصبح عشيقها ، وفى كل مرة تراه قادما اليها ، كانت تستشعر تلك الاحاسيس التى ملكت عليها فؤادها عند ما رأته لاول مرة !.. اقرأ ما كتبته اليه فى أحد خطاباتها :

« لقد كنت أتمثلك أمامى حلوا رقيق الحاشية ـ حتى قبل أن تصـارحنى بحبك ! ـ وكنت تثير فى شعورا طاغيا فوارا .. أما أنا فقد كنت سـعيدة بذلك الشعور ، فأرخيت للهوى العنان وتركت نفسى أحبك حتى الجنون ! »

قلوب وأرواح تنادى بعضها بعضا !

◆ ولقد اختلف الناس فيما للنظرة الاولى من قوة وتأثير على النفس .. فكثيرون يظنون أن ما يسمى « ضربة الصاعقة » Coup de foudre ، وهو الاعجاب المفاجىء العنيف الذى يولد عملاقا عند النظرة الاولى ، ان هو الا اعجاب يولد خاطفا ويموت خاطفا ، بنفس السرعة التى يولد بها ! .. وان هذا الاعجاب – وان زلزل قوى العقل والارادة فى أول الامر – سوف يزول عند ما يستقر العقل وتنقشع عنه تلك الغاشية المؤقتة والفورة المفاجئة .. أو عندما تتبخر « ضربة الصاعقة » وتفيق منها الروح ، فيصفو أديم النفس وتعود اليها سكينتها ، بعد أن يتبدد ما يكون قد انتشر فى أفقها من سحاب !

.. وهذا خطأ كبير فنده الاديب الفرنسى القديم « لابروبير » ورد عليه بالتحليل الدقيق الآتى : « ان الحب الذى يولد بغتة هو أطول أنواع الحب عمرا ، وأصعبها شفاء ! »

ذلك لان ما يسمى « ضربة الصاعقة » ، ليس الا اكتشافا مفاجئا لاتصال سرى بين الاجساد والعقول ، والارواح والقلوب . فهناك فى الكون أجساد ، وعقول ، وأرواح ، وقلوب ، يبحث أحدها عن الآخر ، وينادى أحدها الآخر ، لانها تتمم بعضها بعضا ، فتبدو وكأن القدر قد ربط ما بينها منذ الازل !.. غير أن هذا لا يعنى بالطبع ان الحب الناجم من ضربة الصاعقة يكون دائما خاليا من العيوب .. بل انه يتميز عن سواه بظاهرة عجيبة ، هى أنه لكى يدوم ، يجب ان يكون التفاهم بين القلبين تاما شاملا ، لا يعتوره نقص ولا تشوبه أدنى شائبة !.. ولما كان من العسير أن يوجد هذا التفاهم المطلق بين اثنين ، فمن هنا كان ذلك الخلاف الذى يدب مع الزمن بين الحبيبين أحيانا ، والذى قد يقودهما الى الانفصال بالرغم من حبهما الجارف العنيف !

استسلام الراهبة .. بعد عام واحد !

◆ وقد آن أن نتساءل : هل كانت « ماريانا » جميلة ؟ من المستحيل علينا أن نتخيلها غير ذلك .. وقد اعترفت هى نفسها بأنها كانت جميلة ، وصاغت اعترافها فى تواضع حينا ، وفى زهو واعتزاز حينا آخر . كذلك لم يخف عنها عشيقها اعجابه بها وبجمالها .. ونحن لا نملك الا أن نتخيلها سمراء ، لها تلك البشرة الرقيقة « الحارة » التى يتميز بها سكان البلاد المشمسة ! وقد زادتها حياة العزلة رقة وحساسية – بدليل أنها اعترفت بأن حمرة الخجل كانت تكسو وجنتيها لاتفه الاسباب ! – أما عيناها فكانتا سوداوين رائعتين ساحرتين . وكانت متحفظة متزمتة ، بالرغم من الحرية

التى كان يتمتع بها كل المقيمين فى الدير . ولم يحدث أن أحبت فى حياتها رجلا قط . كما أنها لم تحد يوما عن الطريق المستقيم !

.. عاشت فى جو يشيع فيه حنان الامومة ، تحنو عليها الراهبات اللواتى يعشن معها ، وتحنو هى عليهن ، وعلى اختيها اللتين رافقتاها فى ذلك المنفى. وكانت عميقة التعبد والتقوى ، ورغم ذلك فكثيرا ما كان يهجس فى مخيلتها هاجس غريب ، ويستبد بها احساس غامض عجيب ، وهو أن ثمة حبا عارما ملثما يترصدها .. ويقتفى أثرها .. وأنه سوف يكشف القناع عن وجهه عما قريب !

وقد كان .. فمن نافذة ذلك الدير القائم فى مدخل مدينة (بيجا) نفذ اليها سهم القدر ، وكأنما كانت والحب فى تلك اللحظة على ميعاد ! .. ذلك الحب الذى ظلت نفسها تضطرم به شعورا غامضا ملثما قويا ، وظل قلبها يهتف به زهاء خمسة وعشرين عاما دون أن تعرف متى سيجىء ولمن يكون !.. واذا بالقدر يقودها اليه فى الموعد الذى ضربه لها فى لوحته ، فتفتحت أكمام الزهرة المقفلة ، ونزلت قطرات الندى على الغصن اليابس فازدهر ونما مورقا فارعا يملأ الفضاء بأريجه المسكر .. ولكنه لن يلبث أن يذبل ويميل ، ويجف عوده النحيل .. لأن عمر الزهور قصير !

هكذا كان حب « ماريانا » ، الذى لم يبق من آثاره سوى تلك الخطابات تدل عليه ، وتومىء اليه ، وهى أشبه بخطب رثاء منها برسائل غرام ! .. فلنقرأ ما كتبته لحبيبها فى الخطاب الاول :

« لقد انقضى عام تقريبا منذ أسلمتك نفسى وكيانى بأكملهما ، بغير تحفظ ولا قيد ! ولعلك ما زلت تذكر مقدار حيائى .. وارتباكى .. و « خوفى » فى أول الامر ! .. ولكنك نسيت الآن كل شىء فى كان يدفعك - راغما - الى الهيام بى ! »

اذن فقد وهبته نفسها زمنا قصيرا لا يتجاوز العام ، غير أنه لكى يحظى بها تلك الاشهر الوجيزة كان عليه أن يقضى زمنا طويلا كى يتغلب على مقاومتها العنيفة ويحظى بحبها العصى المنيع ! .. فلو رجعنا الى التواريخ ، لتبين لنا منها أن « ماريانا » التقت بفارسها لاول مرة فى نهاية عام ١٦٦٥ ، فلم تستسلم اليه الا فى آخر عام ١٦٦٦ ! - ثم غادر هو البرتغال فى أواخر عام ١٦٦٧ - فيكون الحصار الذى ضربه عليها قد دام عام ١٦٦٦ بأكمله تقريبا ، لكنه كان حصارا متقطعا ، لاضطرار الضابط الشاب الى التغيب عن البرتغال أحيانا مع الجيش الفرنسى الذى كان يحارب الاسبان . وفى تلك الفترات كان الخطر المحدق به باستمرار يقض مضجع ماريانا ويكاد يذيبها جزعا عليه كلما ودعها عائدا الى الميدان !.. والواقع أن الموت الذى يكمن للحب

ويهدده بالفناء فى كل لحظة ، هو من أقوى الاسباب التى تشعل نيرانه ، فهو يخيل للحبيبين « المهدومين » أن كل لقاء انما هو آخر لقاء ! فكيف السبيل اذن الى رفض طلب أو ضراعة من شخص يهدده الموت بالفناء فى أية لحظة ؟.. وهل تستطيع « ماريانا » العصيان والتمرد الى الابد ، وهى الفتاة المرهفة الحس ، النقية السريرة ، المستقيمة القلب والضمير ؟!

ولكن ، بالرغم من كل هذه الظروف المحيطة بها ، فقد عقدت ماريانا العزم على المقاومة ، متذرعة بالصلاة ، عازفة عن مباهج الدنيا ولذات الحياة .. حتى يقضى الله فيها أمرا كان مكتوبا !

غير أن الحوادث كأنما أرادت أن تتآمر عليها وتتحالف ضدها وتدفعها مكرهة الى التسليم : ذلك أن شقيقها « بالتازار الكوفورادو » كان هو الآخر ضابطا فى الجيش مثل « دى شاميلى » ، وتوثقت بين الرجلين عرى الصداقة والالفة ، فغادرا البرتغال معا فى فبراير سنة ١٦٦٦ مع الجيش الذى التحم مع الاسبان فى معركة الاندلس .. واذ ذاك امتزج جزع « ماريانا » على صديقها ، بهلعها على شقيقها .. خوفا من أن يحل بهما ، أو بأحدهما ، مكروه !

.. ولكن ثمة شعورا مبهما كان يعتلج فى صدرها فيثير دهشتها وحيرتها معا : وهو أن جزعها على حياة الصديق كان يفوق جزعها على حياة الشقيق ! - ونقول « الصديق » لان دى شاميلى لم يكن الى تلك الفترة من الزمن أكثر من « صديق » بالنسبة لماريانا .. الا أنه كان صديقا معجبا .. ثم مغرما .. ثم ولهانا ضارعا .. وماريانا تبادله كل مشاعره ولكنها تتأبى وتصر على المقاومة وعدم التسليم !

الشقيق .. أم الصديق ؟

◆ وانتصر الجيش الفرنسى على الاسبان ، واذا بالغائبين يعودان الى البرتغال معا جنبا الى جنب مع الجيش الظافر .. وكتب أحد الذين أرخوا حياة ماريانا يصف عودة « بالتازار » و « دى شاميلى » فقال : « ان من كان يدقق النظر الى نافذة مرتولا التاريخية - نافذة الدير المطلة على مدخل مدينة (بيجا) - كان يستطيع أن يراها أمامه كنقطة سوداء ، وقد اتكأت عليها الراهبة الولهانة تتطلع جزعة الى الفضاء الفسيح المنبسط أمامها ، فى انتظار عودة الشخصين اللذين تحبهما وتذوب شوقا الى لقائهما .. وذات يوم ، رأت « ماريانا » السهل الراكد أمامها وقد دبت فيه أنفاس الحياة . هاكم أناس قادمون ، فمن ترى يكونون ؟ انهم ضباط وجنود عائدون من ميدان القتال .. وهاهى تحملق فى القادمين عساها تستبين وجوههم .. فعلى أيهما تشتد ضربات قلبها الملهوف أكثر : على الشقيق أم على الصديق ؟! »

عاد الغائبان .. ولم يكن مما يثير أية شبهات أن يزورها « دى شاميلى » فى الدير ، لأنه كان صديق « بالتازار » ورفيقه فى ميدان القتال . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان « دى شاميلى » أصبح ذا سمعة مدوية بعد البلاء الحسن الذى أبلاه فى تلك الحرب ، فعلا صيته وأصبح اسمه على كل لسان .. فكيف لا تحسن استقباله عند ما ذهب لزيارتها فى الدير ؟! أما هو فلم يكن من العسير عليه أن يلاحظ السرور الواضح الذى بدا عليها عند رؤيته لاول مرة بعد عودته . وكانت ماريانا تجهل كل الجهل أساليب التجمل والدلال والتمنع . كانت من السذاجة والبراءة وسلامة الطوية وصفاء السريرة بحيث يتعذر عليها أن تخفى أى احساس يختلج فى صدرها ، فكم بالاحرى اذا كان ما يجيش فيه شعورا قويا دافقا لا عهد لها بمثله من قبل ؟!

لقد كتبت اليه فيما بعد تقول فى احدى رسائلها الخمس المشهورة : « لقد خلقت بنفسى أسباب شقائى ، لاننى عودتك على حب جارف لا أثر فيه للتصنع والزيف .. واننى أرى الآن ـ وبعد فوات الاوان ـ اننى كنت على خطأ كبير ، لانه يجب التصنع فى الحب ، وطلاؤه بشىء من الزخرف ، فان ذلك يزيد قلب الحبيب اشتعالا .. أما الحب وحده ، الحب الصافى فى جوهره ، فلا دوام له .. ولا غناء فيه ! »

تصنع ! زخرف ! زيف ! تمنع ! كل هذه الكلمات كانت جوفاء صماء لا تفهم « ماريانا » لها معنى ولا مدلولا وهى تعيش ساعات تجـربتها الرهيبـة بين أحضان دى شاميلى .. لانها أعطت بلا زيف ، ومنحت بلا تصنع ، ولم تكن فيما فعلت الا صادقة مخلصة وفية ، كاملة الصدق والاخلاص والوفاء!..ولكنها، بعد أن انقطعت كل صلة بينها وبين حبيبها ، بدأت تدرك كنه تلك الكلمات ومعانيها وهى فى عزلتها الموحشة فى الدير ، تتجرع كؤوس الوحدة والالم مترعة .. حتى الثمالة !

الى النهاية .. فى جنون الحب !

◆ أسلفنا أنه لم يكن من العسير على دى شاميلى أن يدرك أن ماريانا ، رغم عنادها وتمنعها ، متدلهة فى حبه .. فاعتبر نفسه قد كسب الجولة الاولى فى المباراة ، ولم يبق عليه الا أن يكسب الجولة الاخيرة والحاسمة !.. لكنه رأى أن السبيل الوحيد الموصل الى النصر هو الصبر ! فليس غير الصبر سلاحا للظفر بمثل هذه العاصية !

واذا بالحرب تشتعل ثانية فتفرق بينهما من جديد .. ثم تنتهى ليعود اليها دى شاميلى مرة أخرى فى الخريف ، ولتعود اليها بعودته التوسلات والضراعات ! وقد عيل صبره بعد طول الانتظار .. وأخيرا ، اذا بالقلعة المحاصرة تسلم ، وتسقط بين يدى القائد المدرب المحنك .. واذا هو يستولى عليها ، لا عنوة

وقسرا ، ولكن عن رغبة وطواعية واستمتاع بنشوة الهزيمة والتسليم !

واستحال الصديق الى عشيق !

وهنا تصف لنا ماريانا نفسها ، فى خطابها الثانى الى « دى شاميلى » بعد أن أصبح عشيقها .. فتقول :

« اننى لست نادمة على افراطى فى حبك ، فقد أحببتك حتى العبادة .. واننى لأعترف بأنك استوليت على قلبى حتى أصبح كله فى قبضة يديك .. وان غيابك عنى ، هذا الغياب الذى قد يطول الى الابد ، لن يخفف من حدة حبى لك وشدة ولهى بك .. اننى أود أن يعرف العالم أجمع بأمر هذا الحب ، فما عدت أرغب فى أن أجعل منه سرا مغلقا على أحد ! .. اننى لاستشعر سعادة هائلة عند ما أرى أننى قد تمكنت من أن أصنع كل شىء لارضائك ، واننى قد احتقرت ودست على جميع الاعتبارات لاسعادك ! .. واننى لاكرس الآن سعادتى وأسخر تعاليم دينى لاقيم على حبك ، فى جموح وجنون ، مدى الحياة ! .. فما دمت قد بدأت ، فسأسير حتى نهاية الشوط ! »

وقضى العاشقان عاما أو أقل من عام ينهلان من منهل السعادة ويعبان فيه عبا .. وأقول « اقل من عام » لان « دى شاميلى » ، مع قصر تلك المدة ، لم يكرسها كلها لماريانا وحدها دون سواها ، بل كان يتغيب عنها أثناءها أياما يقضيها فى الصيد تارة ، وفى المقامرة تارة أخرى ، وفى سائر الملاهى والملاذ تارات !

ويظهر أن سر ماريانا فى الدير قد افتضح .. لانها لم تحسن ، أو لم تطق كتمانه ، فقد كتبت اليه فى احدى رسائلها تقول : « لقد عرضت نفسى فى سبيلك لقسوة قوانين بلادى التى تبطش بالراهبات الخاطئات أمثالى وتوقع بهن أشد أنواع العقاب ! »

وكان ذلك صحيحا ، فقد كان من الممكن أن يحكم عليها ، من جراء تصرفاتها ، بعشر سنوات تقضيها فى سجن انفرادى ، وبالحرمان من مقابلة أى انسان مدى الحياة ! .. كان ذلك ممكنا ، وكانت ماريانا معرضة له ، لولا ان هذه العقوبات كانت نادرة التطبيق فى الاديرة فى تلك العهود .

يصارحها بحبه لأخرى !

◆ على أن ماريانا لاقت مع ذلك من العذاب أضعاف ما كانت ستلاقيه لو طبقت عليها قوانين البلاد الصارمة .. ذلك أن « دى شاميلى » لم يتورع عن مصارحتها بأنه يحب امرأة أخرى تنتظره فى فرنسا ! فكان هذا النبأ بالنسبة لها أقسى وأشد هولا من جميع ألوان التعذيب ، وشتى العقوبات ! .. ومن ناحية أخرى ، لم يعد سر الراهبة التعسة خافيا على أسرتها ، التى جعلت حياتها جحيما لا يطاق .. وان رأى أفراد الاسرة أن يلوذوا بالصمت مخافة ذيوع الفضيحة ، فلم يحاولوا ابعاد « دى شاميلى » عن البلاد مثلا . ولعلهم

لم يفعلوا ذلك لعلمهم بأنه لابد عائد الى بلاده عما قريب ، فقد وضعت الحرب بين أسبانيا والبرتغال أوزارها وعقد صلح بين الدولتين ، فلم تعد ثمة ضرورة لبقاء جيش « شومبرج » الفرنسى فى ربوع البرتغال ..

على أن دى شاميلى كان أسبق الى الرحيل من الجيش الفرنسى . فقد دعاه أخوه الى العودة الى بلاده على عجل لاعمال هامة تتعلق بترشيحه لمنصب حربى خطير ، فما كان منه الا أن استجاب لدعوة أخيه . ولعل من أسباب اسراعه بالعودة ، رغبته فى خنق فضيحة « دير نوتردام » والحد من انتشارها بعد أن بدأت تلوكها الالسن ، ثم رغبته فى أن يعيد الى الدير راهبته الشقية الشابة ، فيعيد الهدوء بذلك الى نفسها ، ويسكب السكينة على قلبها الملتاع الذى لفحته نار الحب فحولته هشيما !

أم تراه قد مل الحياة فى البرتغال بعد أن زهد فى حبها واجتـواه ؟ ليس ذلك بمستبعد ، لانه لم يعد الرجل الجائع الظامىء ـ المحترق عطشا ـ بعد أن عب فى حبها حتى ارتوى ، ونهش فى جسدها حتى شبع !

ولكن هل سلك دى شاميلى مسلك الرجل الشريف ، وهو يقطع صلته بتلك التى كانت حياتها ـ قبل أن تعرفه ـ بيضاء نقية كالثلج ، فمرغها فى الوحل وجعلها حمراء كالقرمز !؟

كلا ! مع الاسف الشديد ! فقد بارح الكونت البرتغـال دون أن يخطـر « ماريانا » بعزمه على الرحيل ! بل اكتفى بأن أرسل اليها وهو فى طريقه الى فرنسا خطابا ينبئها فيه بالنبأ المشئوم ! .. والرجل الشريف قد يلتمس له العذر اذا ما أحس فى أمثال تلك الظروف بوخز الضمير ، فأراد أن يتـدارك خطأه ويمسح زلته بالبعد عن ضحيته ، وتركها تقضى ما تبقى من أيامهـا فى سلام .. ولكن يشترط فى هذه الحال أن يتركها كائنا لا يزال فيه رمق من حياة ، وليس « جثة هامدة » كما فعل ذلك الضابط « الباسل » مع فتـاة بريئة ، كانت كل جريرتها انها أحبته ، وانها خلعت عليه حياتها وحياءها ، وجعلت من قلبها هيكلا لحبه ومحرابا لهواه !

حقا ! ما أشبه الرجال بوحوش الغاب ، من ذوات المخلب والناب !

أما هى فردت على خطابه ذاك ، أو على « اخطاره » ، بخطاب غمسته فى دم قلبها الجريح الذى جعلت منه مدادا .. بينما كانت عيناها الزائغتان تفيضان بالدموع كالغيث الهتون وهما تحملقان خلال النافذة التى طالما نظرتا منها فى ارتقاب عودته ، وانتظار مقدمه.. تلك النافذة التى لن تراه منها ، قادما اليها .. بعد الآن !!

ان طريقة انفصال الرجل عن المرأة التى أحبها لهى فن من الفنون التى يجهلها أغلب الرجال !٠٠ فهناك فريق يلجأ فى الانفصال الى العنف ، وفريق يتذرع بالاغضاء والاغفال ٠٠ وأغلب الرجال يعتمد على الزمن الذى يمسح الدموع ويضمد الجروح !٠٠ ولكن ماذا يستطيع الزمن ، والوقت ، والسنون ٠٠ ان تفعله فى دموع ماريانا ٠٠ وجراح ماريانا ٠٠ وحزن ماريانا ؟٠٠ ان حبيبها ذهب الى غير رجعة ٠٠ وهاهى تعيش بعده لتقول لنا : « اننى أود الرحيل من هذا العالم بعد أن فقدت الامل فى رؤياك الى الابد ٠٠ ومن الغريب اننى بالرغم من ذلك لم أزل قادرة على التنفس ! اننى لأعتبر الحياة بعيدة عنك خيانة أطلب منك الصفح عنها ٠٠ ولكن ليس معنى طلبى غفـرانك هو ان تستجيب الى دعائى وتمنحنى اياه ، لانه ماكان ينبغى أن أعيش بدونك قط ٠٠ فقل لى انك تريدنى أن أموت فى سبيل حبك ، واننى لاقسم لك بأننى لن أتوانى عن ذلك لحظة ، لعلى أتغلب بالموت على ضعفى وفورة جسدى ، وأنهى حياتى مكفنة فى أكفان الالم والقنوط ٠٠ ومن يدرى ؟ لعل نهايتى المفجعة تدفعك الى التفكير فى فتصبح ذكراى عزيزة عليك اذا مت ميتة غير عادية يهتز لها قلبك ٠٠ فان الموت لافضل عندى من ذلك الحضيض الذى دفعتنى الى قراره ٠ الوداع !

٠٠ لكم وددت لو لم اقابلك قط فى حياتى ٠٠ ولكنى أحس بمقدار الزيف فى تمنياتى هذه ، لاننى أعترف فى هذه اللحظة التى أكتب فيها اليك ، بأن حياة شقية تعسة بحبك ، أفضل عندى بكثير من حياة هادئة وادعة لا أعرفك أو ألقاك فيها ٠٠! الوداع ! عدنى بأنك اذا سمعت أن الالم قد قتلنى ، فسوف تأسف على ! أو عدنى على الاقل بأن حبى العنيف لك سيزهدك فى مسرات الحياة ويرخصها ـ بسموه وقداسته ـ فى عينيك ٠٠ ففى هذا عزاء يكفينى ٠٠ واذا قدر على بأن أتركك الى الابد ، فاننى أود ان لا أتركك لامرأة أخرى !٠٠ ألا يبدو لك قاسيا أن تتخذ من حزنى ويأسى ذريعة تتقرب بها الى فتاة أخرى ، بحجة انك كنت الملهم لاكبر حب فى العالم ؟٠٠ وبالرغم من ذلك فاننى أشكرك على اليأس الذى ألقيت به فى أعماق نفسى ، والذى يقض مضجعى ، لاننى أكره الآن حياة الدعة والسكون التى كنت أحياها قبل أن أعرفك ، ولا أتمنى أن تعود لاحياها من جديد ٠٠ الوداع ! ان عواطفى لتزداد اشتعالا فى كل لحظة ٠٠ لكم وددت أن أطيل الحديث معك لتعلم منى الكثير ، ولكن كلا ٠٠ فوداعا ! »

لقد غاصت « ماريانا » الى أغوار الحب السحيقة ، وتغلغلت الى قرار تلك العاطفة الانسانية التى لا تدانيها فى سموها ونبلها عاطفة أخرى ٠٠ فهى ليست

سعيدة بعذابها فى حبها فحسب ، بل أنها لتعتز بما قد يصيبها فى سبيله من آلام ولا تريد التخفيف من هول تلك الآلام ، مفضلة اياها على حياة وادعة بغير حب وبغير ألم !٠٠ حقا لقد صدق « بنجامان كونستان » حين كتب الى مدام ريكامييه بعد ذلك بنصف قرن يصف الحب فقال : « ان تحب ، معناه أن تتعذب ، وأن تحيا أيضا !! »

وهكذا سجلت ماريانا تاريخ حياتها فجعلت يوم ميلادها هو يوم ميلاد حبها ٠٠ اما ماقبل ذلك فأيام عجاف لا تحسب لها فى عمرها حسابا ؟٠٠ وانه لشىء جميل ان تشعر بأنك محبوب من غيرك ٠ ولكن ان تحب انت،فهذامايفوق فى جماله كل شىء جميل فى الوجود ! ذلك لان الحب يخلق بين جنبيك حياة عامرة زاخرة نابضة بأنبل المشاعر والاحاسيس ، ويخلق فى أعماق نفسك عالما مضيئا مترامى الاطراف ٠ فاذا أنت أحببت ، أراك الحب كل مايحيط بك ، وكل من يحيط بك فى حلة زاهية فاتنة خلابة : فالطبيعة من حولك ، ووجوه الناس ، والحوادث التى تتوالى عليك أو تقع أمامك ، تجعل منك انسانا يسمو على سائر البشر ، لانك تحس بما لا يحس به سائر البشر !٠٠ فأنت تترفع عن الصغائر، لان من يحب يسمو على الحقارات ويعلو على الدنس ، اذ يرفعه الحب الى محراب طهور لا وخر فيه ٠٠ فاذا بروحك مضيئة بوهج قوى وقد تعشقت كل عمل نبيل عظيم ٠٠ وأحببت الكرامة والكرم وكل كريم !

الى تلك المنزلة القدسية رفع الحب ماريانا ، فهى تشكر حبيبها على الالم الذى ينبع منه ، لانها ترى فيه بوتقة تنصهر فيها روحها لتخرج منها بعد ذلك ذهبا خالصا وجوهرا حرا لا غش فيه ٠٠ فلنسمعها مرة أخرى وهى تقول له : « لكم وددت أن أطيل الحديث معك لتعلم منى الكثير ! » ٠٠ كما لو كان فى مقدور الحبيبين أن يستنزفا كل مايريدان قوله فلا يتبقى لديهما مايقولانه ! وهما اللذان مهما قالا واسهبا فى القول ، يظل يخيل الى كل منهما أن لديه مايقوله ، وان للحديث بقية ، وانه لن يجد من الزمن ، مهما امتدت فسحته ، مايكفيه ليفرغ كل مافى قلبه لحبيبه ، أى للنفس الشقيقة التى لا تشبع بدورها من الحديث ، ولا تشبع من الاصغاء ٠٠!

حبها أقوى من حبيبها !

◆ وكانت ماريانا قد طلبت من أحد الضباط من أصدقاء « دى شاميلى » أن يحمل رسالة منها اليه يسلمها له يدا بيد ٠٠ فجاءها الضابط الصديق قبيل رحيله ليحمل الرسالة اليه فى فرنسا ٠٠ وكانت ماتزال تسطرها ،فاسمعوها تخاطبه فى تلك الرسالة بعبارات بلغت من قوة التعبير مبلغ الاعجاز :



« انه ليخيل الى اننى أتحدث اليك وأنا أكتب ، وانك قريب منى تصغى الى .. ولكن ذلك الصديق يتعجلنى كى أنهى خطابى ليحمله اليك .. أتراه بدوره مشوقا للعودة الى وطنه لانه قد خلف هنا تعسة أخرى ستشقى بعد رحيله كما شقيت أنا ؟! الوداع ! ان ألمى وأنا أختم خطابى اليك ربما فاق ألمك أنت لفراقى الى الابد ! الوداع ! اننى أحبك ألف مرة أكثر مما أحب حياتى .. وألف مرة أكثر مما أتصور أنا نفسى .. ما أغلى قدرك عندى وماأشد قسوتك على؟! اننى سأبدأ كتابة هذا الخطاب من جديد ولن يتمكن الضابط الصديق من أن يحمله اليك لانه سيرحل قبل أن أتمه !.. ولكن ماذا يهمنى من هذا كله ؟ فليرحل اذا أراد .. اننى أكتب لنفسى أكثر مما أكتب اليك .. ففى الكتابة اليك متنفس لروحى المكروبة وقلبى المفعم بالحسرات !»

ان ماريانا قد سمت بالحب الى مرتبة أعلى من مرتبة الحبيب ، بقولها له : « اننى أكتب الى نفسى أكثر مما أكتب اليك » ، أى أن حبها أكبر وأجمل ، وأقوى وأكمل ، من حبيبها الذى يلهمها اياه ! .. وهى تتعبد فى محرابه جاثية خاشعة .. ألم تستعض به عن حبها لله الذى جاءت الى ذلك الدير لتكرس حياتها كاملة له ؟

وفى خطابها الخامس والاخير ، ولعله أروع خطاباتها جميعا ، تقول له انها تتمنى لو تمكنت من أن تكتب اليه فى غير اكتراث ولا مبالاة ، لعلها تستطيع بذلك ان تحد من كبريائه وتحطم من غلوائه ، عندما يرى ان نسيانه أمر ممكن .. وليس كما قد يتوهم من المستحيلات !

هدوء العاصفة

◆ هدأت العاصفة الهوجاء التى أوشكت أن تقتلع روح ماريانا ، وتذروها هشيما فى أربعة أركان الفضاء .. وبدأت السكينة تعاودها رويدا رويدا ، والهدوء يخيم على نفسها قليلا قليلا .. وظلت هكذا حتى ماتت ، دون أن تكمل خطابها الخامس والاخير المذكور !.. وانه ليخيل لمن يقرأه انه ناقص لخلوه من كلمات الوداع التى طالما كررتها فى خطاباتها السابقة .. غير أن خلوه من تلك

العبارات المحزنة كان أمعن فى الدلالة على الحزن والاسى ، فقد لاذت بصمت أهول من صمت القبور ! فكان مثلها مثل المسافر فى الظلام البهيم وهو يتحسس طريقه فى بادية موحشة قفراء ، وفجأة يسقط فى هاوية سحيقة ليس لهـا قرار !٠٠ لقد انتهت ماريانا ٠٠ ولم تعد كائنا يحسب له حساب بين الكائنات الحية ٠ ولم يبق لديها ماتقوله ، ولن يكون لديها ماتقوله ! وستنقطع الصلة بينها وبين حبيبها انقطاعا تاما ، فلن تعرف عنه شيئا ، ولن يعرف عنها شيئا ! ٠٠ ياله من ظلام مفزع رهيب ، يزيد فى وحشته ـ ورهبته ـ انه بسط جناحيه السوداوين بعد فترة كان النور الساطع الوهاج يملأ فيها الدنيا بهجة وحياة !

ان أرهب انفصال بين حبيبين هو ذاك الذى يقع بينهما وأحدهما فى مكان من الدنيا والآخر فى مكان آخر بعيد ٠٠ فلا هما قادران على الافصاح ولا هما قادران حتى على تبادل تحية الوداع !٠٠ وهكذا نسج الصمت على حياة ماريانا خيوطا أخذت تتكاثف على مر السنين ٠٠ ولكنها لم تمت سريعا كما قد يتوهم القارىء ، فان الرغبة الفطرية فى الحياة تغلبت عندها على عوامل اليأس القاتل والقنوط ، وراحت توجه رغبتها فى الحياة وجهة أخرى أسمى وأنبل ، وجهة لا خيانة فيها ولا غدر ٠٠ اذ اتجهت بقلبها المكلوم ، وفؤادها المضعضع ، وروحها الممزقة ، الى ذلك الملاذ الاعلى الذى لا يصد عن بابه أحدا ، والذى يفتح ذراعيه لكل معتصم برحمته ضارع اليه ٠٠ تطلب منه الغوث ، والرحمة ، والغفران ، وتجثو أمام جلاله ساكبة دموع الندم ٠٠ فاذا به سبحانه يتقبل مابقى فيها من حطام ، ليعيد اقامة ذلك البناء بعد أن حولته الاحزان الى ركام!٠ قبل الله توبتها ، وأقال عثرتها ، فكانت رحمته بها أشبه بالنار التى تشتعل فى الشوك النابت فى الارض فتطهرها منه آكلة اياه ومافيه من ديدانوجراثيم ٠٠ لتجعل الارض بعد ذلك صالحة للزرع ، خصبة تأتى بأبرك الثمرات !

٣ ـ الآثار الباقية

◆ تمكن الباحثون من العثور على المحضر الذى سجلت فيه وفاة «ماريانا» ، وكانت تلك الوثيقةأشبه بنعى ورثاء منها بشهادة وفاة ٠٠اذجاء فيها مايلى :« فى اليوم الثامن والعشرين من شهر يوليو سنة ١٧٢٣ توفيت فى هذا الدير ، دير نوتردام العظيم ، الام « ماريانا الكوفورادو » عن سبعة وثمانين عاما قضتها فى التعبد وخدمة الله ٠ ولقد عاشت طيلة حياتها أشد ماتكون مواظبة على أداء شعائرها واتمام واجباتها الدينية ، فكانت فى ذلك مضرب الامثال ٠٠ ولم يحدث ان شكا من مسلكها أحد ، لانها كانت رقيقة القلب ، وديعة كالحمل مع الجميع ٠٠ وقد أخذت « ماريانا » نفسها بالصرامة والقسوة والحرمان من

جميع متع الحياة زهاء ىلاثين عاما طويلة ، تحملت أثناءها آلاما لا تطاق من أمراض مستعصية ليس لها شفاء ٠٠ ولكنها تحملتها صابرة راضية مستسلمة لقضاء الله ٠٠ ضارعة اليه على الدوام أن يزيدها آلاما !٠٠ وعندما أحست بدنو ساعتها طلبت تناول القربان المقدس ، وتناولته متممة الطقوس الدينية المتبعة فى هذه الاحوال ، فى دقة منقطعة النظير ووعى كامل وادراك تام ، شاكرة لله فى كل ثانية ان مكنها من اتمام ذلك الواجب المقدس ٠٠ ومكثت على تلك الحال قادرة على الكلام حتى اللحظات الاخيرة ، بينما كانت شعلة حياتها تخبو رويدا رويدا ٠٠ حتى انطفأت ذبالتها فى دعة وهدوء وسلام ! »

ويهمنا أن نصحح خطأ ورد فى هذا النعى متعلقا بسن ماريانا ، فقد ذكر انها ماتت عن سبعة وثمانين عاما ، والصواب ثلاثة وثمانين عاما فقط ٠ ولماكان «دى شاميلى » قد رحل عائدا الى فرنسا عام ١٦٦٧ ، وهى قد ماتت عام ١٧٢٣ ، فانها تكون بذلك قد عاشت بعده ستة وخمسين عاما ، قضتها فى ذلك الجحيم المقيم من آلامها النفسية المبرحة ٠٠ أى أنها قضت أكثر من نصف قرن تكفر عن خطيئتها وتستغفر ربها عن زلتها !

وهنا نضع أمام القارىء هذا السؤال الدقيق وهو : هل كانت ماريانا امرأة ساقطة ، أم امرأة قديسة ؟٠٠ ولكى نجيب على هذا السؤال يجب أن نكون منصفين فلا نبخسها حقها أمام الحقيقة والوقائع التى أمامنا ٠٠ فلقد عاشت ماريانا ثلاثة وثمانين عاما كانت فيها مثلا أعلى للمرأة المتعبدة النقية التقية ، الطاهرة القلب والسريرة والضمير ٠ ٠ولكن قد يعترض معترض فيقول : وماذا عن العامين اللذين قضتهما فى أحضان الحب بين ذراعى الماريشال دى شاميلى !؟٠ وهل نستنزلهما من عمرها ونعتبرهما عامين انقضيا فى الخطيئة والاثم ؟

لعل العكس هو الصحيح !

ذلك لانه الى تلك الفترة الآثمة من حياتها ، يرجع الفضل فى ذلك الاشتعال الروحى والندم والصلاة الحارة المتصلة ليلا ونهارا زهاء ستة وخمسين عاما طويلة مريرة ! ٠٠ واذن فقد قربتها فترة الخطيئة القصيرة ، الى الله ، وصقلت روحها ، وملأتها ايمانا فى رحمته سبحانه ٠٠ فلولا زلتها ، ماكانت توبتها ٠٠ ولا دموعها ٠٠ ولا حرمانها من كل مباهج الدنيا ومتع الحياة !

لقد صدق « فرنسوا سال » عندما كتب الى « مدام شانتال » ، فى مستهل القرن السابع عشر ، يصف الذين لا تضطرم قلوبهم بالحب ٠٠ فقال : « هذه القلوب نصف الميتة ، ترى لاى شىء تصلح فى الحياة »؟!

وصدقت « مدام شانتال » حين وصفت الحب فقالت : « فلينتزع قلبى من بين جنبى ان لم يخفق بالحب ! فاما ان أموت واما أن أحب ٠٠ لان الحياة من غير حب هى عندى شر من الموت ! »

حبها الارضى .. وحبها السماوى !

◆ وقد كانت ماريانا لا تتعب من ترديد الصلاة الآتية بعد أن مرت بتجربتها القاسية : « ليس فى السماء ولا على الارض شىء أعذب ، ولا أقوى ، ولا أسمى ، ولا أرحب ، ولا أبعث على الفرح ، ولا أكمل ، من الحب ! ذلك لان الحب مستمد من ذاتك القدسية يارب ! فهو ينبع منها ، ويستقر فيها .. لذلك هو يسمو دائما على كل المخلوقات والمشاعر البشرية .. يا الهى ! ياحبى الاعظم .. انك لى كلك .. وأنا كلى لك ! »

ماذا يستطيع حب زائف ، عابر ، رخيص ، كحب « دى شاميلى » ان يصنع أمام هذه المشاعر الجبارة القـوية التى تسلحت بها نفس ماريانا ، وروح ماريانا ؟!

.. ولكن علينا الا نبخس قدر هذا الحب أيضا ، على ما اعتوره من شوائب ونقائص ، لانه كان الحافز الاول – والاكبر – الذى دفع بها الى أحضان الكائن الاعظم ، والى الاعتزاز به ، والتفانى فيه ، ونسيان كل شىء من الماضى والحاضر والمستقبل عدا ذلك الحب الاعظم ، لذلك الاله الاعظم !.. وقد فجر حب « دى شاميلى » فى قلبها ينبوعا صافيا متدفقا بحب آخر رأته أطهر وأسمى وأنبل من أن تختصه به دون سواه ، فرفعته قربانا الى الله قدمته فى محراب روحها المكتوية المحطمة ، فاذا به يرتد اليها بركة وسلاما ونسمات علوية هادئة فيها كل الشفاء ، لان فيها كل العزاء ..

ولكن .. كم عدد الاعوام التى مرت بتلك التعسة قبل أن تعثر على ذلك السلام وتجد ذلك الهدوء النفسانى والعزاء ؟.. لقد ظل هذا سرا مغلقا تحيطه أسوار الدير الشاهقة ، غير أنه مما لاشك فيه انه كان لوجود اختها الصغرى « بيريرجرينا » الى جانبها فى تلك الحقبة من الزمن ، فضل كبير فى ايناس وحشتها .. وشغل جزء من فراغ حياتها ..

وسؤال آخر : هل تراها ظلت مقيمة فى نفس الجناح الذى كانت تشغله من الدير وتستقبل عشيقها فيه ، كيما يكون ذلك أبعث على الالم الذى كانت ترغب فى الاستزادة منه ، لما قد يثيره فى نفسها من ذكريات ؟.. أم تراها تركت ذلك الجناح لتعيش وأختها فى مكان آخر من نفس الدير ؟!

لا أحد يعرف من كل ذلك شيئا .. انما الذى عرف هو أن عامين اثنين قضتهما ماريانا ، من عمرها المديد ، فى أحضان الحب ، كان ثمنهما دموعا وندما واستغفارا وحرمانا وعزلة خيمت على حياتها نصف قرن ويزيد !

ولنتأمل أخيرا الفقرة التى سجلها محضر وفاتها فى الدير ، والتى جاءفيها: « انها واجهت الموت بشجاعة وثبات ، وانها كانت تطلب بنفســها القربان

والزيوت المقدسة فى وعى كامل وهدوء نفس شامل ، متممة واجباتها الدينية الى آخر نسمة من حياتها ، وعلى أتم وجه ! »

وان هذا فى الحق لخليقا بتلك النفس التى لم تعرف الضعة ولا الحقارة ولا النفاق فى حياتها قط ٠ وان ميتة كهذه لهى خير عوض لتلك النفس السامية عن كل ماكابدته فى حياتها من أهوال !٠٠ واننا لا نشك فى أن الله قد غفر لماريانا ذنبها ، وتقبل روحها بين يديه ٠ وكان سبحانه رحيما بها فمنحها من فسحة العمر أكثر من نصف قرن تثوب فيه ، ليتقبل روحها بعد ذلك نقية مما علق بها من ادران ، بعد أن صهرتها السنون فى بوتقة التجارب والاحزان !٠٠ وفى النهاية ، ماتت ماريانا ذات الشباب الغض ، الدافق ، العنيف ، والمشاعر المجلجلة الداوية ، فى هدوء ٠٠ وانطفأت شعلة حياتها فى سلام وسكينة ٠٠

نقطة سوداء وحيدة !

◆ والسؤال الاخير : ألم يحدث أن ترامت اليها فى عزلتها أخبار عن الماريشال الكونت دى شاميلى ، الذى كللت هامته بأكاليل الغار بعد حصار « جراف » ، والذى صار يحتل مكانة عظيمة مرموقة فى قلب لويس الرابع عشر ؟ وهل ظلت مدينة (بيجا) ، حيث يقوم دير « نوتردام » شامخ البنيان والاسوار ، تتذاكر مغامرات ضباط الجيش الفرنسى وغزواتهم العاطفية فيها ؟ ان كثيرا من الفضوليين لايحترمون آلام الناس فيها ، بل يلذ لهم العبث بها ٠٠ فهل احترم الفضوليون آلام ماريانا ، أم ظلوا ينبشون لها الماضى ويفتحون لها القبر الذى دفنت فيه حبها فى ريعان شبابه ، وريعان شبابها ؟!

ليس من الهين أن تنسى امرأة رجلا أحبته ذلك الحب ، وعلى الاخص اذا كان اسم الحبيب قد صار يدوى فى كافة الارجاء !٠٠ واذن فقد كان لابد لخيال ماريانا أن يتمثله ، مهما جاهدت فى استبعاده ! فهى ، فوق حبها له ، كانت تجله وتحترمه لما تحلى به من رجولة وبسالة فى جميع مراحل حياته ٠٠ وفى الحقيقة ان دى شاميلى كان رجلا رفيع الاخلاق ، لم يعرف عنه انه ارتكب نذالة أو عملا ينطوى على الخسة ، الا مرة واحدة فى حياته ٠ ٠وكانت تلك المرة هى هجره ماريانا !

نهاية « دى شاميلى »

◆ وقد توفى الماريشال الكونت دى شاميلى فى سنة ١٧١٥ ، عن تسعة وسبعين عاما ٠٠ فكانت له ، مثل ماريانا ، فسحة طويلة من الاجل للذكريات ٠٠ والندم ٠٠ والنسيان !٠٠ وقد كتب « وكلو » فى كتابه « ذكريات سرية » يصف موته فقال : « توفى الماريشال دى شاميلى ـ بطل حصار جراف ـ هذا

العام (١٧١٥) ، وكان يتحلى بصفات عظيمة .. وقد اشترك فى شبابه فى حملة البرتغال حيث أحبته احدى الراهبات هناك حبا عنيفا .. واليه وجهت الخطابات البرتغالية التى ذاع صيتها فيما بعد »

وقد تركزت أجل أعمال دى شاميلى فى عملين اثنين ، خلدا اسمه فى التاريخ، وهما : « دفاعه المجيد فى حصار مدينة (جراف) .. وحب ماريانا له ! » .. ويشاء سوء الحظ أن يذكر اسمه مرتبطا بهذين العملين ، مع مابينهما من تفاوت واختلاف عظيمين !.. وقد كان دى شاميلى زاهدا فى المجد الذى أضفته عليه انتصاراته الحربية ، ومع ذلك فان المجد الذى زهد فيه هو الباقى له الى الآن فى ذمة التاريخ ! اما الحب الهائل الذى كان هو ملهمه ، فقد نزل الى المرتبة الثانية !.. حقا ان الحب الذى يلهمه الانسان سواه لا يصل فى القوة الى مرتبة الحب الذى يشعر بلذعاته المحرقة بين جنبيه !

أما دير نوتردام الذى كان فى مدينة « بيجا » قبلة الانظار وكعبة القصاد ، بعظمته ، وأسواره العالية ، وحدائقه الغناء .. فقد عفت آثاره ، ولم يبق منه اليوم الا بناء خرب متهدم ، تضم جدرانه المتداعية بضع راهبات جعلن منه ملجأ لعدد قليل من البنات الفقيرات اليتيمات ..

لكنك اذا حججت اليه ، فانك لا شك مستشعر فى جوه تلك الكهرباء التى طالما سرت فى أسمائه وبين جدرانه - فى الزمان الغابر - فألهبت قلوبا ، وصعقت أخرى !.. فاذا فتشت بين ركامه وأنقاضه ، فحذار من أن تقلبها بعنف ، مخافة أن تعثر تحتها على قلب ماريانا مايزال ينبض بالحب ، ويضطرم بالصلاة !

ثقافة الأديان

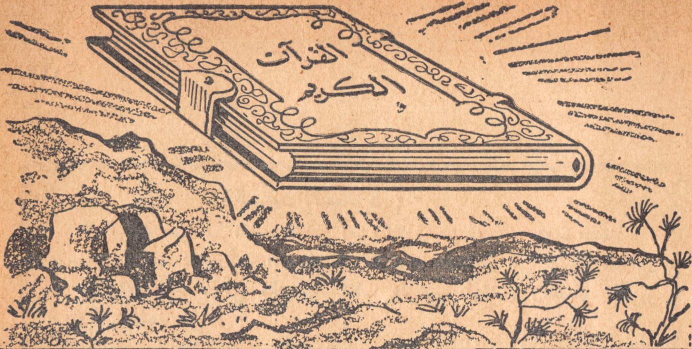


أصحاب العقائد والرسالات

عزيزى القارىء :

لما كانت رسالة « كتابى » تستهدف تعميم الثقافة الرفيعة بجميع الوانها ، وفى جميع مجالاتها وميادينها .. ولما كانت الثقافة الدينية من أول أسس الحضارة البشرية والتاريخ الانسانى ، فقد رأيت أن أقدم لك فى هذا الباب الجديد ، دراسات شاملة لسير أصحاب الوحى من دعاة العقائد والاديان ، ثم لسير أنبياء الصف الثانى فى الديانات السماوية الثلاث .. على أن أتبعها فى فرصة قريبة بمجموعة مكملة لها من القصص الانسانية التى وردت فى كتب الاديان نفسها ، أى من قصص التوراة والانجيل والقرآن ..

وقد قدمت لك فى هذا الباب ، فى الاعداد السابقة ، قصة حياة موسى ، ثم الجزء الأول والجزء الثانى من قصة حياة المسيح ، فالجزء الأول من قصة حياة محمد . واليوم أقدم لك الجزء الثانى والاخير منها ، تتلوه فى الاعداد القادمة سير الأنبياء والرسل : ابراهيم ، اسحاق ، اسماعيل ، يعقوب يوسف ، شعيب ، داود ، سليمان ، أيوب ، يونس ، زكريا ، يحيى أشعياء ، يوحنا ، بولس ، أبى بكر الصديق ، عمر بن الخطاب ، عثمان ابن عفان ، على بن أبى طالب .. ثم من الائمة والمصلحين الدينيين : أبى حنيفة ابن حنبل ، مالك ، الشافعى .. مارتن لوثر ، كالفن .. الخ .



حياة محمد



لخصها عن أهم المصادر الافرنجية والعربية
محمد بدر الدين خليل

هـذه السيرة ..

◆ قرأت معى فى العدد الماضى الجزء الاول من قصة « حياة محمد » ، مؤسس أحدث الديانات السماوية الثلاث ، مستقاة من عشرة مصادر عربية وافرنجية ، فى مقدمتها كتاب الزعيم الهندى والمسلم الكبير « مولاى محمد على » .

واليوم ، تعال معى نتابع قراءة الجزء الثانى والاخير من هذه السيرة ، وهو يتناول المبادىء التى وضعها محمد للدولة ، وللمجتمع ، وللمعاملات الاقتصادية ، ولاقرار حقوق المرأة . كما يتناول الحياة الخاصة لهذا النبى فى أدق نواحيها ، مما يعطى صورة لما ينبغى أن تكون عليه حياة الفرد وحياة الاسرة ..

١٢ ربيع الاول : الوفاة

◆ **فى** الليلة الاولى من ربيع الاول من العام العاشر للهجرة، عز النوم على محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فانطلق خارج داره .. وأحس به تابعه « ابو مويهبة » ، فقام فى أثره .. وسارا فى جوف الليل .. وأوغلا فى السير ، حتى لاحت لهما مقبرة « البقيع » ـ على مقربة من المدينة ـ ، فانطلق النبى بين القبور وهو يقول فى صوت عميق ، مهيب ، خاشع : « **السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهنأ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه . أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الاولى** »

وبعد أن استغفر لسكان القبور ، تأهب للعودة قائلا لتابعه : « **يا أبا مويهبة ، انى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة ، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة** » فقال التابع : « بأبى انت وأمى ، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا

والخلد فيها ، ثم الجنة » .. فقال محمد : « **لا والله يا أبا مويهبة .. لقد اخترت لقاء ربى والجنة !** »

وفى الصباح ، شكا محمد المرض .. واشتدت شكاته اذ حمل نفسه على مشقة زيارة نسائه على عادته ، ولكنه حين استفحل به الوجع ، دعاهن اليه ، فاستأذنهن فى أن يمرض فى بيت «عائشة» ـ صغرى زوجاته سنا ـ حتى اذا اشتد عليه المرض ، وعجز عن أن يصلى بالناس فى المسجد ، أناب عنه أبا بكر

اختار جوار الله

◆ **وفى** فجر اليوم الثانى عشر من ربيع الاول ، أحس بشىء من الراحة ، فخرج الى الناس فى صلاة الصبح ، وكان أبو بكر يصلى بهم .. وكاد الناس أن يفتنوا فى صلاتهم اذ رأوه .. وهم ابو بكر ان يتنحى عن مصلاه ، ولكن محمدا لكزه ، وجلس الى جانبه فصلى قاعدا .. ثم عاد الى بيته .. وكان خروجه هذا صحوة الموت ، اذ كان اجله قد اقترب .. ولما اشتد به نزع الموت ، ورأسه على حجر عائشة ، راح يدعو الله : « اللهم أعنى على سكرات الموت » .. ومالبثت عائشة ان سمعته يقول : « بل الرفيق الاعلى من الجنة »

وأدركت انه قد خير فاختار جوار الله .. وكانت هذه آخر كلماته ..

وأبى المسلمون ـ فى غمرة الصدمة ـ ان يصدقوا ان محمدا قد مات .. بل ان عمر بن الخطاب ثار على من قال بموت الرسول ، ولكن أبا بكر خرج اليهم يقول : « أيها الناس ، من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات . ومن كان يعبد الله فان الله حى لايموت . وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين »

الزعيم الهندى يحلل رسالة محمد

◆ يقول « محمد على » : « ان سر نجاح النبى ، وهو نجاح لا جدال فى أن لا مثيل له حتى اليوم ، يتمثل فى قوة ايمانه بالله .. فقد كان عميق اليقين بأن الله قد شاء أن يرفع الانسان ، وأن يهب الكمال ، لا لأمة وحدها ، ولا لشعب وحده ، وانما لكل الدنيا .. وأن ليس لقوة فى الدنيا أن تعوق الغرض الالهى »

ولم يزايله هذا الايمان لحظة واحدة ، حتى فى أحرج الاوقات التى مرت به فى الدعوة .. بل ان هذا الايمان كان مصدر يقينه من أن الله سيمكنه من أن يهدى الانسانية جمعاء الى طريق الصلاح والكمال ، وكان الايمان يفيض من قلبه الى قلوب من آمنوا برسالته .

ويمضى « محمد على » قائلا : ان الله - فى رسالة محمد - هو « الحقيقة الرئيسية التى تتركز حولها الحياة الانسانية .. ومن ثم فالمسلم لا يفتأ يتجه اليه يسأله العون والهداية .. وقد اتخذ الايمان شكلا عمليا ، هو الصلاة ، فهو يصلى لله خمس مرات فى اليوم .. وتعلق نفس الانسان بالله ، أكثر ظهورا اذا ماوجد المرء نفسه فى ضيق .. فهو اذا مسه الضر دعا ربه .. ليس هذا فحسب ، بل ان الانسان أمر بالصلاة لله فى كل الظروف .. فى الفرج والضيق .. وأن يسأله العون والهداية فى كل المناسبات ، فان الله يسمع دعاءه ويتقبل صلاته »

المسئولية والجزاء والعقاب

◆ ويرتبط بالايمان والصلاة ، مسئولية الانسان عن عمله .. « من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها » .. ويترتب على المسئولية الجزاء ، والعقاب .. « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .. ولا ينطبق مبدأ المسئولية عن الخير والشر على المرء وحده ، بل هو ينطبق على الامم والاقوام أيضا ..

ويستطرد «محمد على» قائلا : «والايمان بالله - على هذه الاسس - يتلقى تعزيزا من التجربة الروحية للنفس البشرية .. هذه التجربة التى كانت أوثق دليل على وجود الله ، والتى تمثلت فى أن الله برحمته الواسعة يختار رسلا - فى كل أمة وكل عصر - يوحى اليهم برسالة اصلاح البشر » .. « وللحقيقة - التى تتكشف للبشر على أيدى رسل الله - مايعززها من لدن الله ويصونها .. فأينما ، وكلما أرسل الله للدنيا رسولا ، وجدناه يقف وحيدا ضد أمة بأكملها لا تأبى أن تسمع للحق الذى ألهمه فحسب ، وانما هى تذهب الى محاولة القضاء

على الرسول ذاته ، وعلى الحقيقة ٠٠ بيد ان المعارضة كانت لا تلبث ان تتضاءل وتذوى ، مهما كانت قوتها ٠٠»

مبدأ وحدة البشرية

◆ ويمضى « محمد على » فى تحليل رسالة محمد ، فيبين ان من تعاليم محمد فيما يتعلق بوحدانية الله ، انبثقت أجل خدماته للحضارة البشرية : مبدأ وحدة البشرية ٠٠ فلقد كانت بلاد العرب منقسمة الى قبائل وشيع ، لكل منها نظامها ، وكثيرا ماتثور بينها الحروب القائمة على العصبيات والنعرات ٠٠ فلما جاء محمد ، انبثقت من رسالته للمرة الاولى فى تاريخ البشرية ، الدعوة الى أن البشر طرا ، وليس العرب وحدهم ، قد خلقوا فى البداية أمة واحدة ٠٠ ومهما تكن البلاد التى يعيشون فيها ، ومهما تختلف لغاتهم وألوانهم ، فما هم الا أبناء أسرة واحدة ، تعيش تحت سقف واحد ، يتمثل فى السماء ٠٠ وكما ان الله خلق البشر جميعا ، فان شرائعه وقوانينه تسوى بينهم جميعا ٠٠

وقد مكن مبدأ « وحدانية البشرية ، وتساوى البشر » محمدا من أن يؤدى أعظم اصلاحاته ، وهو القضاء على الفوارق القوية التى كانت تقوم بين العرب على أسس الاصل واللون ٠٠ ثم المؤاخاة بين العرب وغير العرب ٠ وكانت المساواة بين اتباع رسالة محمد هى أول معول فى الانسانية للقضاء على الرقيق ، اذ كان العبد والسيد يقفان جنبا الى جنب بين يدى الله خمس مرات كل يوم أثناء الصلاة ٠٠ ليس هذا فحسب ، بل ان اكرمهماعند الله اتقاهما ٠٠ لا أبيضهما بشرة !

الكرامة الانسانية

◆ ومن المبادىء التى دعمها محمد ، مبدأ « الكرامة الانسانية » ٠٠ فلقد دعت تعاليم محمد الى تنزيه الانسان عن ان يسجد للاصنام ، لانه أفضل مخلوقات الله وأسماها وآثرها عند الله ٠٠ وهكذا ، بدأ الانسان حضارته عبدا لقوى الطبيعة ، فلما جاء محمد رفعه الى درجة السيد الذى سخر الله قوى الطبيعة له !

ومن الناحية الروحية ، قضت تعاليم محمد بأن كل انسان يولد طاهرا ،نقيا ٠٠ وليس يضير نقاء الفطرة الانسانية أن يولد لأبوين مسلمين أو أبوين غير مسلمين ، ولو كانا وثنيين ٠٠ وكان افتراض براءة الانسان عند مولده ، عونا على حمله على أن يختط لنفسه حياة صالحة بعيدة عن الخطايا ، وعلى مقاومته الخطيئة ، وعلى جنوحه الى السمو الروحى ٠٠

ومن أظهر المعالم فى رسالة محمد ، أن يكون الانسان نافعا للانسانية جمعاء، فمساعدة اليتيم والفقير ليست واجبا فحسب ، وانما يجب أن تكون فى غير من ولا تفضل ، فالله لاينعم بالثروة على المرء ليكدسها ، ولا ليستأثر بها وحده ، بل ان للسائل فيها والمحروم نصيبا ٠٠

وقد عرف محمد منذ نشأته بالحرص على مساعدة الضعيف والمظلوم . وكان في صدر شبابه عضوا في « حلف الفضول » ، الذى أنشىء لصون حقوق الضعيف والانتصاف للمظلوم ..

وقد ذهب محمد فى الدعوة الى العطف على المسكين ومساعدة الضعيف ونصرة المظلوم ، الى درجة انه لم يقصر هذا العون على الانسان ، بل بسطه على الحيوان أيضا ..

تربية النفس وبناء الشخصية

◆ وكان من أهم الاهداف التى شغل بها ، بناء النفس والشخصية .. فالصدق ، والامانة ، وطهر النفس والقلب والفكر والجسد ، كانت من أهم الدعائم التى قامت عليها شخصيته ، والتى دعا الى أن تقام عليها شخصية الانسان عامة .. والى جانب هذه الدعائم كانت تقوم صفات أخرى منها الزهد ، والقناعة ، والشجاعة ، والجلد على المكاره ، والصبر على النوائب ، والثبات على المبدأ ، واباء الذل والضيم ، والتواضع ، وايثار الغير على النفس ..

وكانت تعاليمه فى هذه التربية النفسية ، الروحية ، لا تلبث أن تجد تطبيقا عمليا يجعلها فى الوقت ذاته تربية اجتماعية ، وسياسية ، تهدف الى خلق المجتمع الصالح .

الثروة فى نظام محمد الاقتصادى

◆ بعد ترسيخ الايمان بالله فى النفس الانسانية ، وتحقيق التآلف بين البشر تآلفا صادقا يقوم على التعاطف والمساواة ، اتجه محمد الى ارساء النظام الصالح للمجتمع .. والثروة فى أى نظام اجتماعى عنصر هام . وأول ماجاء فى تعاليم محمد بصددها هو ان من حق الانسان أن يمتلك ثروة ، بل ان هذا الامتلاك ضرورة من ضرورات الحياة الدنيوية ، ومن ثم كان على المرء أن يعمل ، وأن لا يأنف من أى عمل مادام شريفا ، مشروعا .. على أن الثروة يجب ألا تشغل الانسان عن واجباته نحو الله .. ويجب ألا تكدس ، بل يجب أن تستثمر ، وأن يكون للفقير والمحتاج والمحروم والعاجز عن العمل نصيب منها ..

ووضع محمد فى هذا السياق مبادىء هامة ، منها ان الكسب على قدر العمل، ومن هنا تتباين الثروات فى المجتمع الواحد .. ثم حق المرأة - كالرجل تماما - فى ان تكسب الثروة وأن تستثمرها .. فاذا عمل المرء فلم يكسب أكثر مما يفى بحاجاته ، أو لم تواته الظروف ، فليس الفقر بعيب .. بل ان محمدا كان زعيما روحيا ودنيويا ، ومع ذلك فلم يكن فى داره قط مايزيد عن حاجته .. ومن هنا ينبع مبدأ آخر ، هو ان الثروة ليست قوام العظمة والمكانة فى المجتمع ..

والثروة ليست للتكديس ـ ومن ثم حفل القرآن والاحاديث النبوية بذم البخل والتقتير ـ وانما هى لاغراض اسمى وأجل : للاستثمار والعمل النافع ، ولاعانة الفقير والمحتاج .. كذلك هى ليست للانفاق الاهوج الاخرق ، الذى قد يبعث الغرور فى النفس ، أو يميل بها الى التلف والفساد .. ومن ثم حفل القرآن والاحاديث النبوية بذم الاسراف والتبذير أيضا .. فاذا اساء المرء التصرف فى ثروته ، وجب وضعها تحت اشراف أوصياء ..

نخلص من هذا الى أن الثروة وسيلة لا غاية .. ومن ثم ، فللحد من جموح النفس وميلها الى تكديسها ، ولصون المجتمع من شرور الرأسمالية الانانية ، دعى المرء الى انفاق الصدقات .. وفى الوقت ذاته فرضت الزكاة لأخذ نصيب المجتمع ممن لا ينفق الصدقات طواعية !

رأسمالية طهرت من عيوبها

◆ ويمضى « محمد على » فى تحليله قائلا : « وهكذا رمى النبى الى القضاء على عيوب الرأسمالية ، لا على الرأسمالية ذاتها .. فهو لم يتدخل فى الملكية الخاصة للتجارة والصناعة والثروات ، ولا حرم الانسان من ثمار عمله وجده .. بل ترك الميدان فسيحا للمنافسة فى العمل والتفكير والابتكار .. وسعى الى تحقيق العدالة فى توزيع الثروات بأن طالب الرأسماليين وأصحاب الثروات بأن يمنحوا من هم أقل حظا منهم ونصيبا ، بعض مانالوا .. وفى وسع الفقير أن يبدأ بما يصيبه من الزكاة عملا نافعا يدر عليه رزقه . »

على أن الزكاة لم تكن الوسيلة الوحيدة لتحقيق التوزيع الصحيح للثروة فى المجتمع .. بل ان قانون الوراثة وسيلة أخرى ، فبهذا القانون وضع النبى اصلاحا متعدد النفع : فهو ـ أولا ـ يفتت الثروات الضخمة ، وهو ثانيا يسوى بين الورثة ، فلا يستأثر بثروة المتوفى ابن واحد دون سائر الابناء ، ثم هو بعد ذلك يشرك المرأة فى الميراث ، وقد كانت فى بعض المجتمعات والقبائل تحرم من ان ترث أباها .. وهو كذلك جعل للزوجة ، وللأبوين ، وللأخوة أنصبة ، اذ قسم الورثة الى فريقين : الابناء والابوان والزوج أو الزوجة فى جانب ، والاخوة والاخوات والاقارب فى جانب .. فاذا لم يوجد الفريق الاول ، آل الميراث الى الفريق الثانى ..

علاقة العامل بصاحب العمل

◆ ومن الخدمات التى أداها محمد للبشرية ، ان حث على العمل ، ومجده وأضفى عليه كرامة . وقد كان يضرب بنفسه المثل ، حتى لقد كان يحلب شاته ! .. وقد عمل مع العاملين فى بناء مسجد المدينة ، وفى حفر الخندق الذى اقتضته الضرورة الحربية حول المدينة .. ولم يأنف قط من عمل رغم انه كان زعيما وقائدا !

وقد أقام علاقات العامل بصاحب العمل على أساس عادل ، فهما متعاقدان متساويان .. واذا تركت اتعاب العامل ، فلم تدفع ، وجب على صاحب العمل أن يستثمرها له ، وأن يدفع اليه أرباحه من الاستثمار ..

ودعا محمد الى أن لا تكون التجارة استغلالا ، وانما هى خدمة عامة ، ينال التاجر من ورائها رزقا ..

وكان محمد منشىء دولة . وكانت هذه الدولة ديمقراطية ، ولكن ديمقراطيتها تقوم على أساس من الايمان بالله ، واليقين من المسئولية أمامه .. فهى بذلك لها جانبها الروحى ..

والشورى ـ أو النظام النيابى ـ من أركان الدولة الاسلامية .. واذا كان محمد قد أوجب على الدولة أن تدافع عن كيانها ، الا أنه نادى بالرفق بالعدو المنهزم وبالصفح عنه ومعاملته بالحسنى .. وبذلك قضى على شهوة الانتقام .

القضاء على استبداد الاغلبية

◆ وقيد الاسلام الحاكم بقيود تكبحه عن الاستبداد والظلم ، فهو مسئول عن خير الرعية أمام الله . وقد وفى « العقاد » هذه الناحية حقها فى « عبقرية محمد » ، فكان مما قاله : « كان حب التابعين عنده من شروط الامامة فى الحكم .. وكان يدين نفسه بما يدين به أصغر اتباعه .. وقد كان أعلم الناس ان الاعمال بالنيات ، ولكنه علم كذلك « ان الامير اذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم » ، فوكل الضمائر الى أصحابها والى الله ، وحاسب الناس بما يجدى فيه الحساب » .. وذهب « العقاد » الى أن حرية الفكر ليست من مستحدثات الثورة الفرنسية وما بعدها ، بل ان محمدا شرعها لامته قبل أربعة عشر قرنا.. كما انه دعا الى تقديم الرحمة على العدل ، وقال : « ان الله تعالى لما خلق الخلق كتب بيده على نفسه ان رحمتى تغلب غضبى »

ويمضى « العقاد » قائلا : وكان النبى الرئيس يعلم ان الرئاسة لجميع المرؤوسين ، وليست للموافقين منهم دون المخالفين ، فيأمر قومه ان (اتقوا دعوة المظلوم وان كان كافرا ، فانها ليست دونها حجاب) .. وبالتالى ، قضى محمد على استبداد الاغلبية بالاقلية ، وهو العيب الذى ساهم فى افساد حياتنا السياسية وبرلماننا قبل الثورة ..

الحكم النيابى ، والانتخاب ، وحق التصويت

◆ ونعود الى « محمد على » اذ يمضى فى حديثه عن نظام الدولة الذى جاء به محمد ، فنجده يسهب فى الحديث عن « الشورى » ، وعن ان النبى كان يجمع أهل الرأى كلما أراد البت فى أمر جليل ، وبذلك وضع أساس « المجلس النيابى » ، وقد حذا الخلفاء الاوائل حذوه .. وبذلك تمثلت ديمقراطية الاسلام

فى ثلاثة مبادىء : سيادة القانون ، والتشاور فى الامر عند وضع قوانين جديدة ٠ وكان ثالث المبادىء هو : « انتخاب » رئيس الدولة ٠٠ وأساس الانتخاب هو الحرية والمساواة ، فليس ثمة مايمنع أن يكون الرئيس المنتخب عبدا أسود ! ٠٠ وكما ان الرئيس يرقى منصبه بالانتخاب ، فكذلك للرعية أن تخلعه ان اساء ٠٠ وقد حث محمد الناس على أن يتشبثوا بالشجاعة الادبية فيبينوا للحاكم ظلمه ان ظلم ٠٠ وكان يقول مامعناه : ان خير الجهاد هو أن تقول الحق لحاكم ظالم ٠ ٠

وليست مالية الدولة ملك للحاكم ، بل ان له ـ كما لأى موظف أو مستخدم حكومى ـ مرتبا يتقاضاه ٠ وليس لرئيس الدولة امتيازات ، بل فى وسع أى واحد من الرعية أن يقاضيه أمام القضاء ٠٠

مكانة المرأة فى الدولة

◆ وما كان النظام الذى أقامه محمد للدولة ليستقيم مالم تحدد فيه مكانة المرأة ٠٠ فقد كانت المرأة قبل رسالة محمد متاعا يورث ! وكانت عارا يتخلص أهله منه بالوأد ، الى دفنها حية عند مولدها ٠٠ فاذا نجت من هذا المصير وعاشت ، لم تفهم لحياتها من معنى ـ وقد كانت الاخلاق متداعية والفساد مستشريا ـ سوى غواية الرجل والاسراف فى التبرج ، لا ارضاء للزوج وحده ، بل ارضاء لكل رجل ! ولكن محمدا أدرك أن لا صلاح للجماعة الا بتعاون الرجل والمرأة فيها ، ومن ثم شرع يبنى للمرأة مكانة ، فى تؤدة وتدرج حتى لا يصدم الظروف التى كانت قائمة ، فيلقى معارضة ٠٠ فبدأ بأن بين ان للنساء مثل الذى عليهن بالمعروف ٠٠ وان لهن ـ كما للرجال ـ نصيبا مما اكتسبن ٠٠ وراح يوصى بالترفق بالمرأة،ورعايتها٠٠



وفى الوقت ذاته ، قاوم التبرج ، وكافح ماكان شائعا من غواية وفجور ٠٠ حتى اذا توطدت هذه التعاليم الاولى ، شرع للمرأة حقوقها فى الميراث ، وفى ملكية الثروة ، وفى المعاملات ٠٠وهكذا عمل على تحقيق المساواة بين الرجـل

والمرأة فى المجتمع ٠٠ وكان يجعل من معاملته لزوجاته ، دروسا لاتباعه ٠٠ فى وقت كانت مكانة المرأة فيه - فى المجتمعات الغربية - ما زالت مهملة !

محمد الانسان

◆ أما وقد استعرضنا تاريخ محمد ، وأسس رسالته ودعوته كما حللها الزعيم الهندى المسلم مولاى « محمد على » ، فخليق بنا أن نتحول الى الحديث عن محمد كانسان ٠٠ أى عن حياته الخاصة ٠٠

من المسلم به ان الزواج هو اللبنة الاولى فى حياة المجتمع ، وقد ضرب محمد بنفسه المثل للزوج المثالى ٠٠ ويقول مولاى « محمد على » ان محمدا كان لا يحجم عن ان « يساعد زوجته فى أعمالها المنزلية ، وكان يخرج الى السوق بنفسه يبتاع حاجة بيته وحاجات جيرانه ٠٠ »

على انه بين السبيل الى الحياة الزوجية من البداية ، أى من قبل الزواج ، فأوجب على الرجل اذا خطب امرأة أن يطلعها على ماقد يكون به من عيب ، ولو اقتصر هذا العيب على اخفاء الشيب بالصبغة مثلا !٠٠ وكما أجاز للرجل أن يرى المرأة التى يخطبها كى يستبين أمرها ، أجاز للمرأة أن تبدى رأيها فيمن يتقدم لخطبتها ٠٠ وبذلك يقوم الزواج من البداية على أصول صحيحة

تعاليمـه « الجنسـية »

◆ وينادى علماء النفس والاجتماع فى العصر الحاضر بأن تسعين فى المائة من حالات الطلاق فى أيامنا ، ترجع الى أسباب جنسية ٠٠ ومن الطريف ان محمدا فطن الى هذه الحقيقة قبل أربعة عشر قرنا ، وفى ذلك يقول العقاد : « وبلغ من رعاية شعورها - أى المرأة - ومداراة خجلها الذى فطرت عليه ، انه أوجب على الرجل أن يمتعها كما تمتعه ، لانها لا تطلب لنفسها ما يطلبه الرجل منها : « فاذا جامع احدكم أهله فليصدقها ٠ ثم اذا قضى حاجته قبل أن تقضى حاجتها ، فلا يعجلها حتى تقضى حاجتها » ٠٠و« أمر بمداراة ضعفها ونقصها ٠٠ وأوجب على الرجل أن يتجمل لامرأته ، ويبدو لها فى المنظر الذى يروقها ، فقال عليه السلام مما قال فى هذا المعنى ، وهو كثير : (اغسلوا ثيابكم ، وخذوا من شعوركم ، واستاكوا - أى اغسلوا اسنانكم ونظفوها بالسواك - وتزينوا وتنظفوا ، فان بنى اسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم »

وكان اذا خلا بنسائه تلطف وبش ، وألان لهن جانبه ، حتى لقد كان يسمح للزوجة أن تغاضبه ، وأن تراجعه ٠٠ وعندما تحدث قوم بالافك عن عائشة ، ثم أظهر الله له براءتها ، قال لها « ابشرى ياعائشة ٠٠ أما الله فقد أبرأك ! » ٠٠ فدعتها أمها الى أن تقوم عليه فتشكره وتسأله الصفح ، ولكنها قالت : « والله لا أقوم اليه ، ولا أحمد الا الله ، هو الذى أنزل براءتى » ٠٠ ولم يغضب محمد ، فمثل هذا الدلال مما يجب بين الرجل وزوجته ٠٠

وكان اذا غضب من زوجة ، عاتبها ونصحها ، ثم هجرها ، هجرا تطول مدته أو تقصر ، تبعا لسرعة رجوعها عن الخطأ ٠٠ والهجر هنا هو هجر الفراش ، مما يفوت على المرأة السرور والمتعة ٠٠ فهو عقاب نفسى بالغ ٠٠

عفة محمد فى سنوات عزوبته

◆ ويسوقنا هذا الحديث الى ذكر تعدد الزوجات ، وهى الناحية التى أكثر بعض الكتاب الغربيين من التعرض لها ، بل ان بعض المغرضين مثل « ايرفينج واشنطن » اسرف فى استغلالها للنيل من محمد ٠٠ ويقول « محمد على » فى هذا الصدد ان تعدد الزوجات ـ مهما تكن نظرة العالم الحديث اليه ـ أمر نطالعه فى حياة كثير من الانبياء والزعماء الدينيين ٠ فقد كان لكل من النبى ابراهيم ـ الذى لايزال حتى اليوم موضع احترام أصحاب الديانات السموية ـ والانبياء يعقوب ، وموسى ، وداود ، أكثر من زوجة ، ومع ذلك فلم يقل أحد انهم فعلوا ذلك ارضاء لشهوات بدنية ، بل ان طهر الحياة التى عاشوها يقضى على كل زعم من هذا القبيل ٠ وقد يتعذر اليوم أن نستبين الاسباب التى حدت بهم الى ذلك ، أما فى حالة النبى محمد ، فنستطيع أن نتناولها بشىء من التفصيل ، فقد انقسمت حياته الخاصة الى أربع مراحل : فحتى الخامسة والعشرين ، كان أعزب ٠٠ ومن الخامسة والعشرين حتى الرابعة والخمسين ، كان زوجا لزوجة واحدة ، هى السيدة خديجة ٠٠ ومن الرابعة والخمسين حتى الستين ارتبط بعدد من الزيجات ، ولكنه بعد الستين لم يعقد أى زواج جديد ٠٠

ويمضى « محمد على » قائلا : « وأهم مرحلة تبين ما اذا كان النبى عبدا لشهواته ، أو لم يكن ، هى مرحلة العزوبة » ٠٠ ولو لم يكن مسيطرا تمام السيطرة على شهواته فى هذه المرحلة ما اشتهر بعفته وما اكتسب لقب « الامين » ، فى بلاد حارة ، تنضج فيها الحواس الجنسية مبكرة ٠٠ وقد عجز ألد أعدائه عن أن يأخذوا عليه هفوة واحدة ، مع ان الشباب هو المرحلة التى تثور فيها الشهوات وتتمرد ٠ والشخص الذى يقوى على كبح شهواته فى هذه المرحلة ، لا يعقل أن يدع لها العنان فى كبره ، وبعد أن بلغ مكانة كانت تطالبه بأن يكون مثالا للعفة وضبط النفس ٠٠ ويجب ألا نغفل انه لم تكن ثمة قيود خلقية ضد العلاقات الجنسية فى بلاد العرب اذ ذاك ، بل ان الرجال كانوا يتباهون بنصيبهم منها ٠

دوافع زواجه من « عائشة »

◆ واذا انتقلنا الى المرحلة الثانية ، وجدنا ان السيدة خديجة كانت تكبر محمدا بخمس عشرة سنة ، ومع ذلك فقد أخلص لها الوفاء حتى ماتت ٠٠ مع ان تعدد الزوجات كان عرفا شائعا فى بلاد العرب ٠ فلما ماتت خديجة ، تزوج

محمد من « سودة » ، وكانت أرملة مسنة ، أراد أن يكرمها لان زوجها الاول كان من المؤمنين الصادقين الذين هاجروا الى الحبشة ٠٠ ويستنتج « محمد على » من ذلك ، ان حياة محمد « كانت من الخامسة والعشرين حتى الرابعة والخمسين مثالا ضربه لاتباعه لتفضيله الاقتصار على زوجة واحدة »

وننتقل الى المرحلة الثالثة ، فنرى ان « عائشة » كانت الزوجة الوحيدة التى بنى بها بكرا ، عذراء ٠٠ ويقول « محمد على » ان اباها هو الذى عرضها عليه ، حين شهد حزنه واساه على خديجة وعلى عمه ابى طالب ٠ وكانت الفتاة ذات مواهب فذة وذكاء خارق ، مما جعل ابا بكر ومحمدا يتوسمان فيها ان تصبح خير امرأة تضطلع بمهام زوجة صاحب رسالة تدفعه الى أن يكون معلما للجنس البشرى بأسره ٠ ومن ثم قبلها النبى ، ولكنها لم تكن قد وصلت الى سن البلوغ ـ وتجمع الروايات على أنها كانت اذ ذاك فى التاسعة من عمرها ـ فلم يبن بها الا فى الحادية عشرة ٠٠ وان كان « محمد على »قد ساق من الادلة ومن مقارنة تواريخ نزول بعض الآيات القرآنية ، مادلل به على أن محمدا قد خطب عائشة وهى فى التاسعة أو العاشرة ، وانه بنى بها وهى فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة٠٠

وسواء كان هذا أو ذاك ، فالمهم ان عائشة كانت صغيرة ٠ ويستنتج الدكتور محمد حسين هيكل من ذلك ان : « ليس مما يرضاه المنطق أن يكون قد أحبها وهى فى هذه السن الصغيرة » وانما نشأ الحب بعد الزواج ٠٠ ومن ثم فقد كان زواجه منها ، كما كان زواجه من « حفصة » ابنة عمر بن الخطاب ، رغبة فى توثيق الاواصر بينه وبين الصديقين اللذين كانا بمثابة وزيرين له ٠٠

تعدد زوجاته كان دافعه العطف عليهن

◆ ويمضى « محمد على » فيذكر ان سلسلة المعارك التى بدأت فى ثانى أعوام الهجرة ، خفضت عدد الرجال وعائل الاسرات ٠٠ وفى خلال سنى الحرب الست، عقد محمد كل زيجاته الاخرى ٠٠ وكان فى تلك الاثناء زوجا لشابة صغيرة ، جميلة ، فلم تكن الرغبة فى الجمال هى التى حدت به الى تلك الزيجات ـ سيما وقد رأينا كيف انه كان فى شبابه مسيطرا على نزواته وشهواته ، فلا يعقل أن ينقلب فجأة ، وقد تجاوز الخمسين ! ـ وانما كان دافعه الى تلك الزيجات هو العطف على نساء فقدن الرجال الذين كانوا يعولونهن ، اذ كانت معظمهن أرامل ٠٠ ويؤيد « بوسويرث سميث » هذا الرأى ٠٠ وتؤيده أيضا الوقائع ، فان الحياة فى (المدينة) لم تكن سهلة رغدة ، بل كانت ـ لا سيما بالنسبة لمحمد ـ محفوفة بالاخطار ، وكانت شبه الجزيرة العربية بأسرها ضده ٠٠ فهل من الممكن فى حياة كهذه ان يسعى الى متعة مترفة ؟ ٠٠ ثم ان النبى كان يقضى نهاره فى جو وكد، لتدبير أحوال المجتمع الذى كان زعيما له ، ولتدبير الحرب التى كانت متوالية ٠٠

فاذا كان الليل ، لم يعمد الى لهو ومتعة - رغم تعدد زوجاته - وانما هناك أدلة قاطعة بأنه كان يقضى من الليل نصفه أو ثلثيه فى التهجد والعبادة ‥ فلقد ظل محمد فى جميع ظروف حياته ، مذ كان يتيما فقيرا حتى صار زعيما وحاكما يناجز « كسرى » و « هرقل » ، هو هو الزاهد ، المتقشف ‥ ولم يكن أثاث بيته يزيد على حصير خشن من سعف النخل ، وجرة ماء من الطين ‥ فهل هذا متاع الرجل الذى يفكر فى اشباع شهوات جنسية ؟

حكمة الزواج من الارامل

◆ ويمضى « محمد على » فى تبيان الاسباب التى حدت بمحمد الى الزواج من أكثر من واحدة ، فيقول ان الحروب التى قامت خلال أعوام ستة أفقدت كثيرا من المسلمات رجالهن . والى جانب القوت ، نجد ان الغريزة الجنسية كان لها حكمها ، وكان خليقا بأى حاكم عاقل ومصلح اخلاقى أن يفكر فى الارامل على ضوء مطالب هذه الغريزة ، والا دب الفساد فى مجتمعه ‥ ومن ثم اتخذ له منهن زوجات ، أولا ، لتكريم ذكرى أزواجهن المستشهدين ، تشجيعا للمسلمين على الجهاد ‥ وثانيا ، لتشجيع المسلمين على الاقتداء به واتخاذ زوجات من المترملات يعولونهن ويعصمونهن ‥

ولقد اتسمت المرحلة الرابعة من حياة محمد الخاصة ، بفتح مكة ، واستتباب الامر للاسلام ‥ ولو كان محمد قد اتخذ تعدد الزوجات وسيلة الى اشباع عواطف حسية ، أو شهـوات ، لكانت هذه الفترة انسب الفترات ‥ ولكنه فى هذه الفترة لم يعقد زيجة واحدة لنفسه !

ويضيف الدكتور هيكل الى هذا ان من العجيب ان نرى محمدا تلد له خديجة ماولدت من بنيه وبناته الى ماقبل الخمسين ، وأن نرى مارية (القبطية) تلد له ابراهيم وهو فى الستين ، ثم لا تلد من نسائه غير هاتين ، مع عدم وجود مانع من ناحيتهن ولا من ناحية قابليتهن للحمل والولادة ‥ ويتخذ الدكتور هيكل من هذه الظاهرة دليلا على أن زيجات محمد لم تكن زيجات هوى ومتعة ‥

الظروف الاستثنائية التى تبرر تعدد الزوجات

◆ ويخرج الدكتور هيكل من بحثه بتأكيد ان محمدا نصح بالزوجة الواحدة فى الظروف العادية ‥ على أنه رأى فى ظروف حياة الجماعة الاستثنائية ، امكان الحاجة للتعدد الى أربع على شرط العدل ‥ وكانت هذه الظروف الاستثنائية هى الحرب ‥ ثم يعقب قائلا : « وهل يستطيع أهل أوربا فى هذا العصر الذى عقب الحرب الكبرى ، أن يقولوا بأن نظام الزوجة الواحدة نافذ بالفعل ، ان استطاعوا أن يقولوا أنه نافذ بالقانون ؟ أو لا يعود سبب الاضطراب الاقتصادى والاجتماعى الذى عقب الحرب الى عدم التعاون المشروع بين الجنسين بالزواج تعاونا قد كان من شأنه أن يعيد الى الحال الاقتصادية شيئا غير قليل من التوازن ؟ »

ويضيف الاستاذ « العقاد » بدوره : « ان اختيار محمد لزوجاته كان على حسب حاجتهن الى الايواء الشريف ، أو على حسب المصلحة الكبرى ، التى تقضى باتصال الرحم بينه وبين سادات العرب وأساطين الجزيرة من أصدقائه وأعدائه ٠ ولا استثناء فى هذه الخصلة لزوجة واحدة بين جميع زوجاته ، حتى التى بنى بها فتاة بكرا موسومة بالجمال ، وهى السيدة عائشة »

بقى أمر : لماذا قيد محمد التعدد لاتباعه بأربع زوجات ، ولم يرع هذا القيد ؟ ٠٠ والجواب عن هذا سهل ، وهو ان القرآن لم ينزل بالتقييد الا بعد ان كان محمد قد بنى بزوجاته جميعا !

٠٠ واذا كنا قد أسهبنا كل هذا الاسهاب فى الحديث عن زيجات محمد ، فلأن هذه الناحية من حياته الخاصة كانت دائما تبدو للشانئين كثغرة ينفذون خلالها للنيل منه

محمـــــد رب الاسرة

◆ كان محمد رب أسرة مثالى ـ وقد أشرنا من قبل الى شىء من معاملته لزوجاته ـ ولم يكن مع الخدم أقل رفقا ولا تسامحا ٠٠ وقد روى « انس بن مالك » انه خدم النبى عشر سنوات فما نهره ولا لامه ٠ وذكر ان محمدا أرسله يوما فى حاجة ، فالتقى فى طريقه بصبية يلعبون ، فشغل بهم ٠٠ واذا محمد يقبل فيقبض ثيابه من ورائه ويضحك قائلا : « اذهب حيث امرتك ٠٠ » وان فى المكانة التى تبوأها ، « انس بن مالك » بين علماء الاسلام ـ كامام أحد المذاهب الاربعة ـ لدليل على أن الاسلام لم يفرق بين أفراد المجتمع ، بل أفسح المجال للخادم كى يكون عالما واماما ٠٠

وكان محمد يقدر ما لحياة البيت الرتيبة من سآمة تبعثها فى نفوس النساء ، ومن ثم كان يبيح لنسائه شيئا من المرح واللهو فى الدار ٠٠ وكان يلاطفهن بالدعابة الحلوة ٠٠ ويروى فى هذا الصدد انه قال يوما لعمة له تدعى «صفية»: « لا تدخل الجنة عجوز » ، فبكت ٠٠ واذ ذاك سارع يشرح لها كيف ان الله وعد الذين يدخلون الجنة بأن يردوا الى شبابهم ٠٠

وروت « عائشة » انها خرجت يوما مع النبى فى بعض اسفاره ، وكانت صغيرة ، خفيفة ، فتأخر معها عن الركب ، ثم قال : « تعالى اسابقك » ، فسبقته ٠٠ فسكت ٠٠ حتى اذا خرجا فى سفر آخر ، وكانت قد اكتسبت بعض السمنة، دعاها الى السباق ، فسبقها ٠٠ فجعل يقول وهو يضحك : « هذه لتلك ! » ٠٠ أى مرة لها ومرة عليها ٠٠

نسله ٠٠ وبره بالبشر والحيوان

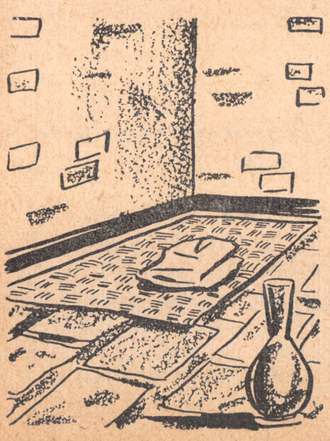
◆ وكان محمد أبا بارا ، رحيما ٠ رزق من السيدة خديجة بولدين وأربع

بنات ، فمات الولدان فى حداثتهما ، وترك موتهما فى نفسه أثرا عميقا ٠٠ وأما البنات فعنى بهن ، وزوجهن من رجال أكفاء لهن ٠٠ وتوفيت ثلاث منهن قبل موته ، فلم تبق بعده سوى فاطمة ، زوج على بن ابى طالب ، وأم الحسن والحسين٠

وعندما أوشك على الستين ، رزق من السيدة « مارية القبطية » بولد فرح به ، وأطلق عليه اسم النبى « ابراهيم » ٠٠ وتعلق به ، حتى ان نفسه كانت تطمئن لرؤيته ٠٠ ولكن العمر لم يمتد بالابن حتى يبلغ العامين ، فحزن محمد عليهحزنا شديدا ، وبكاه فى صمت وصبر ٠ فلما حاول بعض المسلمين أن يخففوا عنه ، ذكروه بأنه نهى عن الحزن ، فقال : « ما عن الحزن نهيت ، وانما نهيت عن رفع الصوت بالبكاء ٠ وان ما ترون بى أثر مافى القلب من محبة ورحمة ٠ ومن لم يبد الرحمة ، لم يبد غيره عليه الرحمة »

وكان من مظاهر بره ، ان حفيده الحسن - ابن فاطمة وعلى - دخل عليه وهو ساجد فى صلاته فتبوأ ظهره ٠ وتعمد محمد ان يطيل السجود ، فلما سأله بعض الصحاب فى ذلك ، قال : « ان ابنى ارتحلنى ، فكرهت أن أعجله » ! وكان اذا سمع بكاء طفل قصر فى صلاته ، وهرع اليه حتى يرضيه

على أن بره لم يقتصر على الآدميين ، بل تعداهم الى الحيوان ٠٠ فكان يمسك الاناء للهرة لتشرب ٠٠ وكان يوصى المسلمين بقوله : « اذا ركبتم هذه الدواب فأعطوها حظها من المنازل ٠٠ » ، و « اتقوا الله فى البهائم المعجمة ، فأركبوها صالحة وكلوها صالحة » ٠٠ ومن الامثال التى ضربها أن الله غفر لمومس مرت بكلب يكاد يقتله العطش ، فنزعت خفها واجتلبت له ماء ٠٠وان «دخلتامرأةالنار فى هرة ربطتها ، فلا هى أطعمتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الارض »٠٠ وقد مرض له ديك مرة ، فعالجه كمايعالج طفلا من أطفاله !



زهده وتقشفه

◆ وأخيرا فان هذه الصفحات - على كثرتها - ليست سوى « لمحات » من حياة « محمد » ٠٠ الرجل الذى ارتفع الى أعلى مكانة ، فلم يتغير ، لانه لم يكن يبغى من عرض الدنيا شيئا ٠٠ وكان لا يفتأ يقول لاصحابه : « لست

ملكا ولست جبارا ، وانما انا ابن امرأة تأكل القديد فى مكة » ٠٠ ولم يكن له سوى ثوب واحد من قطن ، وجبة ضيقة الكمين ، ورداء من نسيج (عمان) ٠٠ وكانت له بردة يمانية يلبسها فى المناسبات ٠٠ وكان ينام على فراش من قماش محشو بالليف ، وربما نام على حصير ، أو على عباءة كان يثنيها طاقين ٠٠ (أى يطويها فتصبح طبقتين) ، وقد طوتها « عائشة » يوما فأصبحت أربع طبقات ، اشفاقا عليه ، فلما نام ، قال لها : « ما لفراشى الليلة ليس كما يكون ؟» ٠٠ واذ أنبأته بما فعلت ، قال : « فأعيديه كما يشاء » ٠٠ وكان يمر هلال الى هــــلال - أى شهر - لا يوقد فى بيت من بيوت محمد نار لخبز أو طهو ، وقيل انه وأهله كانوا يعيشون على الاسودين : الماء والتمر ٠٠ وقيل أيضا : « ما شبع رسول الله يومين من خبز الشعير » !

وعندما كان فى غشية الموت ، أفاق فسأل زوجه عن سبعة دنانير من الذهب كانت عنده ، وأمرها بأن تنفقها على الفقراء ٠ ثم عاد الى اغمائه ، فلما صحا للمرة الثانية ، اعاد السؤال عن الدنانير ، فلما علم انها لم تنفقها بعد ، أعاد الامر أكثر قوة وأشد اصرارا وقال : « ما ظن محمد بربه انه يلقى الله وهذه عنده ٠ انفقيها كلها صدقة ٠ ان النبى لايورث » ٠٠ وصمت قليلا ، ثم تمتم « اللهم توفنى فقيرا ، ولا توفنى غنيا ، واحشرنى فى زمرة المساكين »



الامبراطورة جوزفين فى حديقة قصر (مالميزون)

لوحة للرسام الفرنسي « برودون » (١٧٥٨ - ١٨٢٣)



« كيوبيد » ومحبوبته « سايك »

لوحة للرسام « جيرار » (١٧٧٠ - ١٨٣٧) بمتحف اللوفر بباريس



جى دى موپاسان

فرانشسكا..

فى سوق الهوى!

ترجمة : سعد مكاوى

« قصة صيف » !

◆ فى العدد الماضى ، قدمت لك من روائع القصص العالمى تحفة « جيته » الخالدة « أشجان فرتر » ، وهى المأساة التى استلهمها اديب المانيا العظيم من غرام واقعى صادفه فى شبابه الباكر ، فلما نشرها فى هذا القالب الرائع الذى صاغها فيه ، بلغ من صدق تصويرها لعواطف الشباب الفجة انها أثارت بين شباب أوربا الفاشلين فى الحب ، « موجة » من حوادث الانتحار !

أما اليوم ، فى هذا الحر الخانق ، وقد بدأت موجة الفرار من المدن القائظة الى الشواطىء والمصايف السياحية ـ فى الداخل والخارج ـ فقد أردت أن أقدم لك هذه القصة « الخفيفة » التى صور فيها مؤلفها « جى دى موباسان » مغامرة طريفة من « مغامرات الصيف » !

- ١ -

◆ بين كل عشر نساء يلقاهن الرجل ، واحدة لا تبرح ذكراها خياله ، لأنها تكون قد أدخلت فى حياته لونا جديدا من ألوان الانوثة ، ونشرت فى جوه عطرا محببا لا عهد له به ، عطر البهجة وروح الطرافة ..

وانى لأذكر «فرنشسكا» ولا أنساها . أذكرها فأذكر تلك الرحلة القديمة الى ايطاليا ، فى الربيع ، فى تلك الايام التى يبعث عبيرها فى القلب رغبة ملحة فى الرحيل ، والصبابة ، والمغامرة ! .. ولما كنت أكره السفر وحدى فقد زينت لصديقى «بول» أن يكون رفيقى ، وهو رجل لا يرى الدنيا الا أنها الحب والمرأة ، ويرى أن الارض لا تحلو لأهلها ولا يطيب العيش فيها الا لأن النساء يملأن أرجاءها .. والشمس لا تطلع الا لتلقى على فتنتهن حرارتها ودفئها .. والنسيم يرق ويهفو لأنه يعبث بشعورهن الطويلة المرسلة ويمر على بشرتهن العطرة الناعمة .. والقمر يشرف على الكون لا لشىء الا ليملأ أرواحهن اللطيفة بالاحلام ويضفى على ليالى الحب غلائل سحره .. وهكذا كانت المرأة هدفه الدائم وخبزه اليومى ، واليها تتجه كل جهوده وآماله وأفكاره !

وكان صديقى قد رفض فى بادىء الامر أن يغادر باريس ، حيث كانت له غزوات ونزوات ، لكنى جعلت أصور له مغامرة الرحلة ، وأصف له ظرف الايطاليات ، وأبث فى نفسه الامل فى ملذات ناعمة مترفة سنلقاها فى ايطاليا بفضل سيد يدعى السنيور « أموروزو » قيل لى انه ذو نفع عظيم للسياح الشبان !

وجلس «بول» امامى فى صالون قطار المساء السريع ، بادى الاسف على فراق باريس ، وجعل يرمينى بالغفلة وتنبأ للرحلة بالفشل ، ولبثت هذه حاله حتى

وقف بنا القطار فى محطة (مرسيليا) دون ان يعكر احد صفو وحدتنا . وهبطنا لتناول الافطار فى مقصف المحطة ، فلما عدنا الى عربتنا كانت امرأة تحتل مقعدا منها الى جوار النافذة !

عندها رمانى صاحبى بنظرة المستبشر ، وجلس من فوره مواجها للمجهولة

كانت امرأة شابة تحمل طابع بنات الجنوب ، عيناها رائعتان ، وشعرها اسود فاحم بديع يبدو لغزارته وطوله كأنما هو حمل ثقيل يرهقها حمله ! ولكن ثيابها ، على أناقة فيها ، كانت تنم عن ذوق عامى ، وفى مظهرها شعبية صارخة ، والاحجار الشفيفة فى أذنيها أكبر من أن تكون من كريم الجوهر ، وأساورها أضخم من أن تكون من ذهب !

وتحرك القطار والمجهولة ساكنة فى مكانها ، وعيناها الملتمعتان ببريق غريب من النقمة والغضب لا تجودان علينا بنظرة واحدة .. بل انها بدت كأنها لا تسمع حين جعل صاحبى هاوى النساء يعرض - على فى ظاهر الامر - مجموعة من موضوعات الحديث معدة من قبل لاحداث التأثير واثارة الاهتمام ، كما يضع التجار احسن بضاعتهم فى أبرز مكان لايقاظ الرغبة عند « الزبونة » !

وعندما وقف القطار فى محطة (طولون) أشار الى صديقى أن أتبعه ، وما كدت ألحق به على الرصيف حتى أخذ يتحدث عنها ويتغنى بجمالها ويفترض ان هناك ما يضايقها ، ما دامت لا تبدى أقل اهتمام بشابين لا عيب فيهما فيما يرى ! فقلت له انى أميل الى الاعتقاد بأنها ممثلة من الطراز الوضيع تلحق بفرقتها بعد مغامرة غرامية سوقية ! .. وأضفت ، تأييدا لوجهة نظرى : « أنظر الى أساورها ، وأقراطها ، وزينتها ! ان عينى لا تخطىء طابع المسرح الرخيص ! »

قال : « احسبك لا تعنى ما تقول ، فانها شابة لا يكاد يتجاوز سنهـــا العشرين ! »

قلت : « يا عزيزى ، ما أكثر الاشياء التى يمكن أن تزاولها المرأة قبل العشرين، وقد ذكرت لك منها الرقص ، ولم أشر الى غيره مما يحتمل أنها تزاوله، بل أن تكون متخصصة فيه ! »

ودق الجرس ، فعدنا الى العربة .. وعاد صديقى يتأمل البنت الصامتـــة المعرضة فى شغف ، وهو يبحث عن طريقة لاثارة اهتمامها وتحريك فضولها .. وكان لا يفتأ يهمس فى أذنى وهو يأخذ بذراعى : « ألا تستطيع أن تكلمها أنت ؟ انى لا أجد ما أقوله لها ! »

فلجأت الى الحيلة القديمة وسألتها اذا كانت رائحة التبغ تضايقها ، واذا بها تجيبنى : « نون كابيسكو » ! .. فلم أكد أسمع هذه الكلمة الايطالية التى تعنى « لست فاهمة » حتى تملكتنى رغبة شديدة فى الضحك ، فقد تبينت ان

« بول » - الذى لا يعرف كلمة واحدة من اللغة الايطالية - سيضطر الى ان يتخذنى مترجما !

وبدأت دور المترجم بأن أعدت عليها السؤال - بالايطالية هذه المرة - فصرخت فى وجهى بنفس لهجتها الغاضبة ، ودون أن تلتفت الى : « شى مى فا » ! .. ولم يكن صديقى يعرف أن « شى مى فا » تعنى « وماذا يهمنى ؟! » ، ولم أكن انا ممن يهزمون من الجولة الاولى ، فعدت الح عليها فى السؤال : « يا سيدتى، اذا كانت رائحة التبغ تضايقك ولو اقل مضايقة .. ؟ » فأجابت : « ميكا » .. وكانت كمن يقول : « اغرب عن وجهى ! » .. ومع ذلك فقد كان هذا تصريحا واذنا ، فقلت لصاحبى : « تستطيع أن تدخن يا عزيزى ! »

فرمانى بتلك النظرة المندهشة التى تكون فى العيون عندما نحاول فهم قوم يتحدثون أمامنا بلغة لا نفهمها ، وسألنى : « ماذا قلت لها ! » .. قلت : « سألتها ان كانت تسمح لنا بالتدخين .. »

قال : « هى اذن لا تعرف الفرنسية ؟ »

قلت : « ولا كلمة ! »

وسألتنى هى فجأة بنفس لهجة السخط التى يبدو أنها لهجتها الطبيعية : « هل تعرف متى نصل الى (جنوا) ؟ » .. فأجبتها أننا نصل اليها فى الساعة الحادية عشرة من المساء ، وأردفت متشجعا : « ونحن أيضا ذاهبان الى (جنوا) ، انا وصديقى ، واذا كان بوسعنا أثناء الرحلة ان نؤدى لك أية خدمة فان ذلك يا سيدتى يكون من دواعى سرورنا .. »

فلما لم ترد على أهبت بها : « أنت وحيدة ، فاذا كانت بك حاجة الى خدماتنا .. »

فقاطعتنى ب « ميكا » جديدة بلغ من حدتها وجفوتها أنى قررت الصمت ! .. وعاد «بول» يسألنى : ماذا قالت ؟!

- قالت .. انها تجدك جذابا !

لكن مزاجه لم يكن رائقا للدعابة ، فترجمت له سؤالها واقتراحى الذى رفض بهذه الشدة ، فسألنى أن أحاول على الاقل أن أعرف منها اسم الفندق الذى ستنزل فيه حتى نقصده بدورنا ، وما كان ذلك بالامر الهين الميسور مع تلك الحسناء الغضوب ، ولكن رغبتى كانت قد اشتعلت حقا للتعرف الى تلك المخلوقة الصعبة !

وكان القطار قد وقف آخر الأمر على الحدود لفحص الجوازات والامتعة ، فنزلت واشتريت كومة ضخمة من الطعام وأنا أرمى بذلك الى أن أشن هجوما اخيرا على شهية المجهولة النافرة ! .. كنت أحس أن هذه البنت النفور قد يكفى أمر بسيط - كايقاظ رغبة ، أو كلمة رقيقة ، أو عرض موفق - لازالة نفورها وترويضها !



وعرضت ذخيرتى على المقعد ، تحت بصرها : الدجاجة ، وشرائح اللحم ، والكريز ، والفراولة والمسكرات ، والشطائر ، والفطائر ! •• ولكنها حين رأتنا نتهيأ لتناول الطعام ، أخرجت بدورها قطعة من الشيكولاتة وزوجا من الاهلة (الكرواسان) وجعلت تقضمها بأسنانها الحادة الجميلة •• ولحظت أنها تسترق النظر الى طعامنا ، وخمنت ان وجبتها الضئيلة لن تشبعها ، فانتظرت عليها حتى فرغت منها ، ثم سألتها : « كم تكونين لطيفة يا سيدتى لو سمحت بتقبل شىء من هذه الفاكهة ؟ »

ـ ميكا !

ولكن « ميكا » فى هذه المرة كانت أقل جفوة وأبين ضعفا فألححت عليها : « اسمحى لى اذن أن أقدم لك بعض هذا النبيذ ، فانى ارى أنك لم تشربى شيئا ، ثم انه من نبيذ بلادك ، وما دمنا قد صرنا الآن فى وطنك هذا الجميل ، فكم يسرنا يا سيدتى أن نرى ثغرا ايطاليا جميلا يتقبل هدية جيرانه الفرنسيين ! »

•• وفى هذه المرة هزت رأسها رافضة ـ بارادة الرفض ورغبة القبول ـ وكانت الـ «الميكا» التقليدية فى هذه المرة هادئة خافتة ، تكاد تكون مؤدبة ، فملأت لها كوبا ورفعته اليها ضارعا : « اشربى •• تحية قدومنا الى وطنك ! »

فتناولت الكوب من يدى بحركة تأفف غير راضية وأفرغته بجرعة واحدة ، ثم ردته الى دون أن تنطق بكلمة شكر !

وعرضت عليها الكريز ، فاستعرضت من ركنها كل الفواكه المكدسة الى جانبها وزعمت أنها لا تحب الكريز وانما تحب الفراولة ، فوضعت فوق ركبتيها الصحيفة بما عليها من الفراولة ، فانطلقت تأكل منها بسرعة ، فكانت تتناول الواحدة بأطراف الانامل وتقذفها من بعيد الى فمها الذى كان يتلقفها بدلال ظريف •• فلما فرغت من التهام الكومة الحمراء الضخمة فى سرعة مذهلة سألتها عما أستطيع بعد ذلك انأقدم لها ، واذا بها تجيبنى : « لا بأس فى قطعة من الدجاجة ! »

والحق انها التهمت نصف الدجاجة •• ثم لم تجد مانعا من تناول الكريز الذى لم تكن تحبه ! ثم شطائر •• ثم فطائر •• ثم أعلنت : « هذا يكفى » ، وانطوت فى ركنها على نفسها !

عند هذا الحد بدأت أجد الامر مسليا ، واردت ان احملها على ان تطعم المزيد ، ولكنها انقلبت غاضبة وقذفتنى ب « ميكا » مكررة بلغ من عنفها أنى كففت عن ازعاج هضمها !

- ٢ -

◆ ونامت حتى اقترب القطار من (جنوا) ٠٠ فلما استيقظت قلت لها : « نحن على أبواب (جنوا) » ٠٠ واذا بردها ، دون أن تلتفت الى ، همهمة حائرة : « ماذا ترانى صانعة » ٠٠ ثم سألتنى بغتة قبل أن أفتح فمى بكلمة : « هل تريد أن أذهب معكما ؟ » فبلغ من دهشتى أنى لم أفهم : « كيف ، معنا ؟! » ٠٠ فتفاقم غضبها : « هل تريد أن أذهب معكما فى الحال ؟! » ٠٠ قلت : «ياسيدتى، لا أحب الى من ذلك ! ولكن أين تريدين أن أذهب بك ؟! »

فهزت كتفيها بعدم اكتراث «ملكى» وأجابت : « الى حيث شئت ٠٠ فالكل عندى سواء ٠٠ (شى مى فا) ! » ٠٠ قلت : « اننا ذاهبان الى الفندق ! » ٠٠ فأجابتنى باحتقار مر : « اذن نذهب الى الفندق ! »

قلت لزميلى : « انها يا صاح تسأل اذا كنا نريد ان تأتى معنا ! » ٠٠ فاعترته دهشة جنونية : « معنا ؟! الى أين ؟ ٠٠ ولماذا ؟ ٠٠ وكيف ؟! » ٠٠ قلت : « لا أدرى ، ولكن الظاهر أنها مفلسة ! » ٠٠ فصاح : « قل لها مرحبا! قل انا سنأخذها الى حيث تحب ! » ٠٠ ثم عاد يهمس فى أذنى وعلى محياه امارات القلق : « ولكن ، الا ينبغى قبل كل شىء أن نعرف مع اينا هى قادمة ، معك أم معى ؟ »

فقلت لها : « يسعدنا يا سيدتى أن نصحبك ، ولكن صديقى يرغب فى أن يعرف من منا سيكون له شرف السير فى ركابك ؟ » ٠٠ ففتحت عينيها العميقتين السوداوين وقالت : « شى مى فا !! » ٠٠ ولكنى الححت عليهاواعدت السؤال ، فكان أن قالت : « أنت ! » وقلت لصاحبى : « لقد اختارتنى أنا يا عزيزى ! » ٠٠ فأجابنى فى لهجة مرة : « أهنئك ! » ٠٠ ثم أضاف بعد أن فكر لحظة : « هل تصر على أن تصحب هذه المخلوقة ؟! ٠٠ انها كفيلة بافساد رحلتنا ٠٠ ماذا تريد أن تصنع بهذه المراة المريبة ؟ ٠٠ ان أحدا لن يسمح لنا طالما هى معنا بالاقامة فى أى فندق محترم ! »

ولكنى فى تلك اللحظة بالذات كنت قد بدأت استملح الايطالية النافرة وارغب يقينا فى اخذها معى ، بل ان هذه الفكرة سرتنى وجعلتنى احس ولما أكد اعرفها بتلك الرعدة التى ينشرها فى العروق انتظار ليلة من ليالى الحب ! ٠٠ فقلت له : « يا عزيزى ، لقد قبلنا وانتهى الامر فلا سبيل الى التراجع ، وكنت انت من نصحنى بأن أوافق على رغبتها ! » قال : « هذه غفلة منك ! وان لك على كل حال ان تفعل ما يحلو لك ٠٠ »

وهبطنا من المحطة ومشينا فى شوارع المدينة يتبعنا متاعنا . وكان « بول » بادى الانفعال ، فعمدت الى ترويضه : « فى أى فندق ننزل يا عزيزى ؟ لعله قد صار من العسير أن نقصد الفندق الذى حجزنا فيه أماكننا وفى رفقتنا امرأة . فيم تشير علينا حكمتك السديدة ؟ »

قال : « نعم ! مع ايطالية من الطراز الشعبى ! .. ان هذا شأنك ولا يعنينى فافعل ما شئت ! »

فأنشأت أستعطفه أن يسبقنا الى الفندق وينظر أيقبلون معنا « صديقة » ، ثم يحجز لنا جناحا خاصا بنا نحن الثلاثة .. لكنه أجابنى : « أشكرك ! .. ان هذا الدور لا يناسبنى !.. أترانى حضرت لارتب لك مخدعك وملذاتك!!» .. فعدت أتوسل اليه أن يذهب فيطلب الى ادارة الفندق « ثلاث » غرف مستقلة - وأبرزت الرقم ٣ وكلمة « مستقلة » - وكان ذلك فعلا هو ما جعله يقبل رجائى !

وانتظرناه فى الشارع حتى عاد يعلن الينا أنه لم يجد سوى غرفتين ! .. وكان لابد مما ليس منه بد ، فاستقر بنا المقام فى الصالون الفاصل بين غرفتى النوم .. وعندئذ سألتها أن تتخير أى الغرفتين شاءت ، فلما سمعت منها « شى مى فا » الخالدة تناولت صندوقها الخشبى الاسود وحملته الى الغرفة اليمنى التى اخترتها لها .. لنا !

ولحظت بطاقة ملصوقة على الصندوق تحمل اسم « الآنسة فرنشسكا روندولى - جنوا » فسألتها : « اسمك فرنشسكا ؟ » .. فأومأت دون أن تفتح فمها أن نعم !

وبعد العشاء أقبلت الساعة المحرجة الحاسمة ، ساعة اقتسام المخدعين ، فسألتها راغبا أن أضع للمشكلة حلا سريعا : « ما دمنا لا نملك غير غرفتين فهل لك أن تأذنى لى فى أن أذهب معك الى غرفتك ؟ »

واذا بها تجيبنى فى عدم اكتراث مهين حقا : « افعل ما يحلو لك ! شى مى فا ! » .. وجرحنى عدم اكتراثها ، فعدت أسألها : « اذن لا يضايقك هذا ؟ »

قالت : شى مى فا ! .. ونهضت متثائبة فمدت يدها الى رفيقى العابس الساخط ، ثم سبقتنى الى « غرفتنا » ..

ونظر الى الرفيق الذى جئت به ليؤنس وحشتى نظرة ساخرة ، وهمس همسة ألقى بها الرعب فى نفسى : « ان هذه الفاكهة الفجة قد تسبب لمن يقربها مغصا يتعبه علاجه ! »

فهمت اشارته ، وتملكنى ذلك الخوف المسيطر الذى يتبعنا بعد كل مغامرة حب مريبة ويفسد علينا لذتها .. ودار فى نفسى صراع قوى بين الخوف والرغبة .. ولكنى قرأت فى عينه لذة انتقامية ساخرة لم أتردد بعدها ، فمددت له يدى

وحييته متمثلا بالحكمة المعروفة : « لا مجد فى انتصار لم تصحبه المخاطرة ! » ودخلت بقدم ثابتة الى مخدع فرنشيسكا ..

ووقفت مذهولا مروعا ! .. كانت فرنشسكا نائمة بكل شبابها وحسنها كأنها احدى عرائس الغاب ـ وما كان أجملها فى نومها ! ـ ولكن الخطيئة أحست بمقدمى فاستيقظت ، فضاع منى شيئان : خوفى وصوابى !

وجاء الصباح ، فطبعت على شفتيها قبلة قابلتها بسأمها الذى لم تبدده ليلة الحب .. فسألتها مغيظا مهانا : « ألا تحبين أن تقبلى ؟ » قالت : «ميكا» .. فصحت : « ميكا ! ميكا ! ميكا ولا شىء غير ميكا .. لن أسميك بعد اليوم الا مدموازيل ميكا ! »

فارتسمت على محيا فرنشسكا أول ابتسامة منذ وقعت عليها عيناى ! .. وسألتها : « هل لك رأى فى برنامج اليوم يا مدموازيل ميكا ؟ »

قالت : شى مى فا !

ومنذ تلك اللحظة قررت ألا أسألها بعد فى شىء ، ووضعت برنامج حياتنا فى (جنوا) كما بدا لى !

وسارت الامور على ما اشتهيت .. حتى كان اليوم الثالث ، حين اقبل «بول» يهددنى بالفراق ، فما عاد يطيق أن يقضى أوقاته ناظرا الى غرامى ! .. فاعترفت له فى اخلاص بما جرى لى ، وانى قد أحببت « فرنشسكا » ، أحببت سخطها ، ومللها ، ونظراتها الساخطة ، وحركاتها الفاترة ، وكل شخصها الغامض الذى ربطنى بها !

وعندما أبت فرنشسكا أن تغادر (جنوا) الى غيرها من مدن ايطاليا ـ دون أن تطلعنى على السبب ـ بقيت الى جانبها ، خمسة عشر يوما ، قضتها هى على سجيتها ، صامتة متذمرة لا تكاد تحدثنى بغير كلماتها الخالدة : « شى مى فا » و « ميكا » وأخواتهما !

لماذا بقيت معها ؟ .. ولماذا بقيت هى معى ، مع أنها لا تبدو راضية عن صحبتنا ! .. ومن تكون ؟ .. ومن أين جاءت ؟ .. وماذا تصنع ؟ .. هل تعيش من المغامرات والمقابلات والصدفة ؟

عبثا حاولت أن أحسر القناع عن شخصيتها الغامضة ، وان كنت قد تبينت على الاقل أنها ليست « محترفة » ، فانها لم تحاول الافادة منى أو التسلط على ، وكانت تلوذ بصمت عنيد كلما حاولت أن أدفعها الى الحديث عن أسرتها وماضيها وحياتها ! .. ثم بغتتنى يوما بقولها انها لن تخرج معنا لأنها ذاهبة لترى بعض ذوى قرابتها !.. وعندما هممت بالخروج قالت لى : « اذا أنا لم أعد هذا المساء ، فهل تأتى لتأخذنى ؟ » .. قلت : « أين يجب أن أذهب يا فرنشسكا ؟» .. فأعطتنى العنوان .

ولم تعد فى المساء ، فهتف «بول» راضيا : « انها هى اذن التى هجرتك هجرا غير جميل يا عزيزى أمير العشاق !! » ٠٠ وظل يوسوس فى نفسى ويغرينى بانتهاز الفرصة والرحيل ٠٠ فلما لم تعد أيضا فى الصباح التالى ، رحلنا أنا وصديقى عائدين الى وطننا ، دون أن أودعها أو أشكرها !

- ٣ -

◆ وحدث فى السنة التالية فى نفس الموسم ، أن تولتنى رغبة جديدة حارة - كأنها الحمى الموسمية ! - فى زيارة ايطاليا والتمتع ببدائع الفن فى روما وفلورنسا والبندقية ٠

وقد كان سفرى فى هذه المرة وحدى ٠٠ فلما بلغت (جنوا) قصدت - كما يحدث للسياح غالبا - نفس الفندق الذى نزلت به فى العام الماضى ، الفندق الذى شهد غرامى بفرنشسكا ! ٠٠ بل وشاءت المصادفة أن أنزل فى نفس الغرفة ، فما كدت أعيش فى جوها حتى دهمتنى ذكرى الفتاة التى منحتنى بين جدرانها جمال أنوثتها ٠٠ والحق أن الذكرى كانت منذ اليوم السابق تراودنى غامضة لا أكاد أدركها ، ولكن صورة فرنشسكا تسلطت على حواسى بمجرد العودة الى المكان الذى أحببتها فيه ونلتها ! ٠٠ خيل الى أنها معى ، حولى ، وأنى لن ألبث أن أراها تدخل على ، وتبتسم لى ، وتفتح ذراعيها ، ويملأ عطرها قلبى ! ٠٠ وشعرت بالوحدة والشوق والحنين ، فما أمر وما أفدح أن يعود المرء الى المدينة أو البيت أو الغرفة أو الحديقة التى نال فيها امرأة محبوبة !

ولم تكد تشرق الشمس حتى كنت أدق الباب فى ذلك المنزل الذى أعطتنى « فرنشسكا » فى العام الماضى عنوانه ، كأنما أسأله أن يرد على الماضى الذى كان لى ! ٠٠ وفتحت لى امرأة بدينة لم تفقد كل ملاحتها ، وفى عنقها عقد مذهب ضخم ، وفى معصميها أساور فاخرة باهرة ! ٠٠ وسألتنى المرأة فى جفوة : « ماذا تريد ؟ »

قلت : « أليس هذا بيت مدموازيل فرنشسكا روندولى ؟ » ٠٠ فسألت بنفس اللهجة العدائية : « وماتبغى منها ؟ » ٠٠ قلت : « لقد كان لى حظ التعارف اليها فى السنة الماضية ، وأحب أن أقابلها مرة أخرى ٠ »

- قل لى أين قابلتها ؟

- هنا فى جنوا

فعادت تسأل : « وما اسمك ؟ » ٠٠ فترددت لحظة ، ثم ذكرت لها اسمى وماكادت تسمعه حتى اشرق وجهها وتغير حالها : « آه !٠٠ أنت « الفرنسى » ! ٠٠ ما أعظم غبطتى !٠٠ لو علمت ياسيدى كم سببت للطفلة المسكينة من ألم ! لقد انتظرتك شهرا ٠٠ نعم ، شهرا ! ٠٠ كانت تمتحن حبك ، وتريد أن تعرف

هل تاتى لتاخذها ، وكم بكت عندما فهمت أنك لن تأتى !٠٠ ثم ذهبت المسكينة ، وقد عيل صبرها ، الى الفندق فعرفت أنك رحلت ، واعتقدت أنك انما تتم رحلتك فى ايطاليا مع صديقك وأنك ستمر مرة أخرى بجنوا فى عودتك ٠٠ وأنك ستبحث عنها ٠٠ أنك باق ياسيدى على حبها !٠٠ وقد انتظرتك ، حزينة هائمة ٠٠ طويلا ٠٠ انى أمها ! »

– وهل هى الآن هنا ياسيدتى ؟

قالت : « كلا ياسيدى ، انها فى باريس ! مع مصور شاب لطيف يحبها حبا عظيما ويهبها مع حبه ماتبغى ٠٠ اليك فانظر ما بعثت به الى من باريس ٠٠ لى أنا ، امها ٠٠ هذه الاساور ٠٠ وهذه الاقراط ٠٠ وهذا العقد ٠٠ ثم ان عندى اساور أخرى ياسيدى ، وأثوابا من حرير ٠٠ ألست أقول لك ان «فرنشسكا» سعيدة جدا ؟٠٠ وكم سيسرها ، عندما أكتب لها ، أن تعلم أنك عدت !٠٠ ولكن لم لا تدخل ياسيدى ؟ ادخل ، وتناول فى بيت فرنشسكا شيئا ٠٠ ادخل ! »

ولم تبال باحجامى وترددى فأدخلتنى قائلة : « ادخل حتى أقول لها فى رسالتى انك دخلت بيتنا !»

وفى البهو اجلستنى مضيفتى ومضت فى حديثها : « عندما قابلتك فرنشسكا فى القطار كانت حزينة تعسة تمر بمحنة ٠٠ كان حبيبها قد هجرها فى مرسيليا، وكانت عائدة بدونه ، ووحيدة ٠٠ وقد أحبتك على الفور ، من النظرة الاولى ٠٠ ولكن ذلك زمان مضى ٠٠ أما الآن فلا شىء ينقصها ٠٠ وهى تكتب لى كل ماتصنع فى باريس ٠٠ وحبيبها الجديد ، الرسام ، كان قد لقيها هنا ، فى عرض الطريق، وأحبها من النظرة الاولى ! ٠٠ نعم ، هكذا !٠٠ هل أنت وحيد هذه المرة ؟ »

قلت : « نعم ، وحيد ٠٠ »

فهتفت : « خسارة ! ليت فرنشسكا هنا لتسليك ، فانى لأعلم يابنى ان الوحدة فى الغربة ليست بالامر السار البهيج ، وبخاصة عندما يكون المرء شابا مثلك !٠٠ ولكن لو أنك شئت أن تذهب معك « كارلوتا » ٠٠ انها تعرف جيدا اماكن اللهو هنا ٠٠ هى ابنتى الاخرى ياسيدى ٠٠ الثانية ٠٠ »

وانى لا يخامرنى الشك فى أنها حسبت ذهولى ترحيبا باقتراحها ، فقد اندفعت من فورها الى الباب الداخلى منادية كريمتها الاخرى ٠٠ الثانية : « كارلوتا ! كارلوتا ! انزلى وعجلى ٠٠ تعالى فى الحال يابنيتى العزيزة ! » ٠ ٠ثم عادت الى تقول : « انها ستصحبك ، وهى بنت لطيفة جدا ، وأكثر مرحا من الاخرى !٠٠ ولشد ما احبها ! »

وظهرت فتاة سمراء ذات حسن عذرى مذهل ، فاطلعتها مدام روندولى فى الحال على « حالتى » : « هذا يا بنيتى صديق فرنشسكا الفرنسى٠٠حبيبها فى العام الماضى كما تعرفين ٠٠ قد عاد يبحث عنها ، وهو وحيد ، هذا السيد المسكين !٠٠



وقد ذكرت له أن بوسعك أن تصحبيه وتسرى عنه فى وحدته ..»

فرشقتنى « كارلوتا » بنظرة من عينيها السوداوين وتبسمت وقالت : « اذا شاء لبيت رغبته ! »

كيف كنت أستطيع أن أرفض ؟!

ودفعتها أمها الى الداخل : « هيا ، عجلى بارتداء ثوبك الازرق والقبعة ذات الزهور » .. ثم التفتت الى بعد اختفاء ابنتها الحلوة : « لا يزال عندى اثنتان .. أصغر من هاتين .. ان تربية أربع بنات تكلف كثيرا يا سيدى ، ولحسن الحظ أن الكبرى قد شقت طريقها فى الحياة ! »

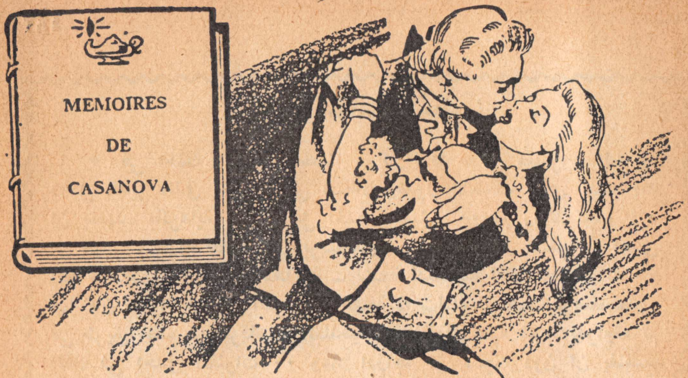
وعندما تجلت علينا « كارلوتا » فحصتها أمها بعين خبيرة مدققة ، من رأسها الى قدميها ، ثم أهابت بنا : «والآن اذهبا على بركة الله ياطفلى !» .. ثم هتفت بفتاتها : « العودة قبل العاشرة ياكارلوتا !»

وتناولت كارلوتاذراعى، وخرجنا الى الحياة ! .. ورأتنى شوارع (جنوا) معها كما رأتنى مع أختها فى العام الماضى .. ولم تعد فى العاشرة رغم تنبيه أمها !

ولم تجعلنى خلال خمسة عشر يوما أشعر بالاسف على عهد فرنشسكا !

وعندما ودعتها بكت، فتركت لها هدية مناسبة ، ولامها أربع أساور من النوع الضخم الذى تعشقه .

.. وانى لأنوى فى أحد الايام أن أعود لزيارة ايطاليا ، ولكم تعترينى رعدة التطلع كلما دار بخاطرى ان مدام روندولى لا يزال عندها بنتان !!!



مغامرات في الحب والسياسة!

مذكرات كازانوفا

الكتاب الكلاسيكي الخالد
في أدب العشق والمغامرة



مذكرات المغامر الاعظم !

◆ فى الحلقة الماضية صحبنا « كازانوفا » فى مغامراته الطريفة داخل الدير الذى ألحق به فى انتظار وصول الاسقف الذى كلفته أمه ان يتعهده بالرعاية والمران على الخدمة الدينية ٠٠ ثم رأينا كيف طرد من الدير ، لتهمة خلقية كان بريئا منها ، فلم يلبث أن اعتقل فى احدى القلاع ـ دون تحقيق أو محاكمة ـ نتيجة لدسيسة لفقها له عدو له ٠٠ فما كان منه الا ان دبر الفرار من القلعة ذا تليلة الى حيث ترصد لعدوه فى طريق مظلم من طرقات « البندقية » ، فانهال عليه ضربا بهراوته ثم ألقاه فى احدى القنوات ٠٠ وعاد ادراجه الى سجنه دون أن يفتضح أمر غيبته !

وفى نهاية الحلقة السابقة ، تركنا « كازانوفا » وقد أفرج عنه من القلعة آخر الامر ، فكان أول مافعله بعد أن تنسم هواء الحرية ، ان توجه لزيارة « معبودة أحلامه » ابنة النبيل الذى زامله فى السجن خلال الاسبوع الاخير ٠٠ وحين لمس مبلغ الفاقة التى تتقلب الاسرة فى احضانها ، منح حسناءه ثمن ستة صناديق من الطباشير الملون كى تمارس بها هواية الرسم التى تعشقها !

٢٨ يوما ٠٠ فى الحجر الصحى

• ووصل الاسقف الذى أرسلته أم « كازانوفا » بعد ثلاثة أيام أو أربعة ، فبارك الفتى وقبله ، ثم قال له ان عليه أن يرحل الى (انكونا) حيث يتصل براهب يدعى « لازارى » يرشده الى ماينبغى عليه عمله ٠٠ فودع كازانوفا أصدقاءه فى (البندقية) ، وأودع أوراقه وكتبه المحرمة لدى صديقته العطوفة « مدام منزونى » ، ثم غادر المدينة على ظهر سفينة كانت تقل سفير البندقية فى (انكونا) ٠٠ وفى احد الموانىء انضم الى الركاب راهب يدعى « ستيفانو البيلونى » ، سرعان ما أولى كازانوفا عطفه ، وعرفه بقس فى المدينة حظى « كازانوفا » فى داره بعشاء شهى ، كما استمتع بين أحضان خادمته بساعة هنية !٠٠ ثم عاد الى المركب ليستأنف الرحلة ومعه الراهب « ستيفانو » الذى أخذ يؤنسه بحديثه ٠٠ حتى اذا وصلت السفينة الى (انكونا) أخيرا ، احتجز الشابان فى الحجر الصحى لثمانية وعشرين يوما

مع الملاك .. القادم من الشرق !

◆ ولم ينقض اسبوعان حتى تحسنت صحتى ، ورحت اقضى نهارى متجولا فى أنحاء المحجر ، الى أن وصلت اليه أسرة تركية ، فاضطررت الى أن احد من تجوالى .. ولم يبق لى من ملهاة سوى أن أقضى وقتى فى الشرفة المطلة على ساحة المحجر .. وسرعان ما اجتذبت انتباهى جارية يونانية باهرة الجمال ، اعتادت أن تقضى يومها جالسة أمام باب الطابق الارضى - الذى شغلته الاسرة التركية - منصرفة الى القراءة أو التطريز .. وكانت اذا رفعت عينيها وفطنت الى وجودى ، غضت بصرها ، أو نهضت فولجت المسكن بخطى وئيدة ، وكأنها تقول : « ما كنت أحسب أن هناك من يتأملنى » .. وكانت طويلة ، هيفاء القوام ، تنم قسماتها عن صغر سنها ، ويخلع عليها زيها اليونانى جوا شديد الاثارة والاغواء .. سيما واننى كنت أعيش فى بطالة أضعفت مقاومتى للعواطف المشبوبة التى كانت تضطرم فى أعماقى ، فكيف كان من المحتمل أن أمتع بصرى بهذا الجمال الفاتن دون أن أتدله فى هواه ؟ .. وكنت قد سمعت الفتاة تتكلم الفرنسية مع رجل مسن من نزلاء المحجر ، فشعرت باغراء شديد يدفعنى الى أن أكتب لها .. حتى اذا رأيتها يوما تجلس وحيدة بمنجاة من أى رقيب ، طويت قطعة بيضاء من الورق - لم أكتب عليها شيئا - وأسقطتها من الشرفة . وما أن رأيتها تنحنى لتلتقطها ، حتى اطمأننت الى استعدادها ، فبادرت بالقاء الرسالة التى كنت أعددتها !.. ورأيتها تدس الاثنتين فى جيبها ، ثم تنصرف بعد دقائق .. وكان ملخص رسالتى : « اعبدك ايها الملاك القادم من الشرق !.. سأظل الليل بطوله فى الشرفة على أمل أن توافينى ولو لربع ساعة ، أتحدث اليك فيها خلال الثغرة التى بأسفل الشرفة . وبوسعك أن تصعدى على كومة الامتعة المودعة تحت الشرفة ليسهل اصغاؤك الى ! »

وعندما أوشكت أن أيأس - بعد منتصف تلك الليلة - اقبلت فاتنتى ، فانكفأت أنا على أرض الشرفة . ورأيتها - خلال الثغرة التى كانت تناهز ١٥ سنتيمترا مربعا - تقفز فوق الامتعة ، ثم تعتمد باحدى يديها على الجدار خشية أن تقع .. وتناجينا ، وتحدثنا عن الرغبات الجامحة ، والصعاب التى تعترضنا ، وفنون الحيل التى فى وسعنا أن نلجأ اليها للتغلب عليها .. ثم وعدتنى بأن توافينى كل ليلة على هذا النمط !

الحواجز لا تقف فى طريقه ..

◆ ورحت بعد ذلك اللقاء اعتصر مخى بحثا عن وسيلة تزيد من ارضاء عواطفى ونزواتى ، فلم أوفق .. لكن حسنائى اليونانية اثبتت بعد ظهر اليوم التالى مكر الانوثة : فقد جاءت ببعض السلال والقطن واضافته الى ركام البضائع التى كانت تحت الشرفة .. ورايت انها وان اصبحت بذلك قادرة على ان



تبلغ أسفل الشرفة ، الا أن الثغرة لم تكن تتسع لرأسـها كى يمر منها ! ومن ثم جالت برأسى فكرة جريئة ، عسيرة : ان أحاول أن أخـلع لوحا من خشب أرض الشرفة ! ٠٠ ووفقت الى خلخلة المسامير فعلا ، فتركت بقية العملية حتى المساء ، والشوق يستنفد صبرى !

وأقبلت الحبيبة فى منتصف الليل تماما ، فتسلقت كومة الامتعة فى عناء ٠٠ واذ ذاك رفعت اللوح ، ومـددت ذراعى حتى التفتا حولها ، ورفعتها ٠٠ وانتشت هى اذ تبينت أن بوسعها أن تنفذ برأسها وذراعيها خلال الفراغ الذى خلفه اللوح ٠٠ وهكذا بقينا معا فى بهجة ممتعةحتى انبثق أول خيوط الفجر، وحين انصرفت الفتاة أعدت اللوح الى مكانه ٠٠ ثم عدت الى سريرى وليس مايعكر هنائى سوى أن عيد الاسرة التركية كان يبدأ فى ذلك الصباح ،ويمتد ثلاثة أيام كاملة ، لم يكن فى وسعى أن أحظى برؤية حبيبتى فيها !

وفى الليلة التى أعقبت العيد ، وافتنى ٠ وقالت انها لن تسعد بدونى ، وان مولاها لن يمانع فى بيعها لى ، لانها مسيحية وهو مسلم ٠٠ فلما صارحتها بأننى لا أملك مايوفى ثمنها ، تنهدت فى أسى ٠٠ ثم عادت فى الليلة التالية تذكر أن مولاها لن يمانع فى بيعها لقاء الفى قرش بندقى ، وانها ستوافينى بالمبلغ ، اذ ستأتينى بعلبة مليئة بماسات ثمينة اذا بعتها أمنت واياها شر الفقر بقية عمرينا !٠٠ وقالت اننى لن أندم على الصفقة ، لانها عذراء ٠٠ وان مولاها لن يفتقد علبة الماسات ، ولن يفكر فى أن يتهمها اذا مافطن الى ضياعها !٠٠ على اننى لم ارتح لخطتها - رغم شدة هيامى بها - فلما أحضرت العلبة أبيت أن آخذها ، وقلت لها اننى لا أجرؤ على أن أمد يدى الى حرام ، فأبدت عميق أساها ، وعميق اعجابها ٠٠ وقالت ان تلك كانت آخر ليلة تستطيع أن توافينى فيها ، فاشتعلت نيران وجدى ، وألفيتنى أجتذبها الى لاشبع منها حسى - فى ليلة الوداع هذه - على أكمل وجه ٠٠ وفجأة أحسست بيدين قويتين تمسكان بكتفى ٠٠ فأفلتها لتهبط وتهرع الى غرفتها ، والتفت الى القادم ، فاذا هوخفير المحجر ! ووددت لو انقض عليه فأخنقه ، لكنى نهضت فى النهاية فأويت الى فراشى صامتا !

وفى الصباح التالى أخلى سبيل « كازانوفا » من المحجر ، فاصطحب الرجل الذى كان مدينا له بأجر غرفته فى المحجر الى الراهب «لازارى» صديق الاسقف ، فدفع اليه الراهب دينه ، ثم أعطى « كازانوفا » مبلغا يواصل به السفر الى روما ٠٠ والتقى هذا بزميله فى المحجر الراهب « ستيفانو » ، الذى أخلى سبيله بدوره ، لكن كازانوفا لم يلبث أن ازداد تأكدا من زيف صاحبه الراهب ، ومن ولعه بالكذب والغش ، فتشاجر معه وتضاربا ٠٠ ثم انفصلا وواصل كازانوفا الرحلة وحده ٠٠ حتى بلغ روما

الغش نوع من المكر الشريف !

◆ وصلت الى المدينة الخالدة فى الساعة التاسعة من صباح أول سبتمبر ٠٠ ولم أضيع وقتى سدى ـ اذ كانت نقودى قد اوشكت على النفاد ، كما لم أحفل بفخامة مدخل المدينة وجمال معالمها ـ فيممت فورا شطر منزل الاسقف ، فاذا بى أفاجأ بأنه قد غادر المدينة قبل عشرة أيام الى « نابولى » ، وترك تعليماته بأن الحق به دون أن أتكبد نفقات ما ٠٠ ولم آبه بروما ولا ببدائعها ، بل بادرت فى الصباح التالى الى الرحيل ، فدخلت (نابولى) فى ٦ سبتمبر ٠٠ وهناك أيضا وجدت أن الاسقف قد رحل الى مقره فى (مارتورانو » ، دون أن يترك أية تعليمات لى ! ٠٠ والفيتنى وحيدا مفلسا فى مدينة كبيرة لا صديق لى فيها ، فعولت على أن أقطع المائتى الميل التى كانت تفصلنى عن (مارتورانو) سيرا على قدمى ، متسولا قوتى ومأواى من أهل الخير !٠٠ وانطلقت فبلغت اخدى القرى بعد ساعة ونصف ساعة ،و كان قد برح بى التعب ، وكلت ساقاى عن حملى ، فلجأت الى فندق صغير ، حيث طلبت حجرة وعشاء ، ثم استسلمت لنوم عميق حتى الصباح ٠٠ وحين أفقت أوصيت صاحب الفندق بأن يعد لى غداء ، وذهبت لاتفرج على القصر الملكى ٠ وهناك التقيت بيونانى بادى الثراء ، تطوع بأنيرينى روائع القصر ٠ وفى أثناء تجوالنا ، علمت انه تاجر نبيذ ، وان لديه فى الفندق بعض عينات من النبيذ ، وبضع قنينات من الزئبق ٠ واذ ذاك تذكرت حيلة لزيادة وزن الزئبق بنسبة كبيرة ، نتيجة لخلطه بالبزموت والرصاص ! وقدرت انالغش جريمة ، لكنى اعتبرت هذا من قبيل المكر الشريف الذى هو نوع من الحكمة والمهارة !

واذ انتهينا من طوافنا ، ذهبنا الى فندق التاجر ، حيث امر بغداء لاثنين ٠ ورأيت عنده عددا من زجاجات النبيذ ، واربع قنينات كبيرة من الزئبق ، وسعت كل منها حوالى عشرة أرطال ، فسألته أن يبيعنى واحدة منها بالسعر العادى ٠٠ حتى اذا انصرف لبعض شئونه ريثما يعد الغداء ، انصرفت أنا الآخر فابتعت رطلين ونصف رطل من الرصاص ، ومثلهما من « البزموت » ، كما ابتعت عددا من الزجاجات الكبيرة الفارغة ، وخلطت المواد معا ٠

وبينما كنا نتناول الغداء ، سألنى اليونانى ضاحكا عن السبب الذى من أجله أردت الزئبق ، فدعوته الى غرفتى ، وأريته العملية ، ثم دعوت الخادم وأرسلته باحدى الزجاجات الى بائع للعقاقير ، فما لبث أن عاد لى بالثمن ـ الذى دفعه البائع دون أن يساوره أقل ارتياب فى جودة الزئبق ! ـ وقنعت بثمن الزجاجة وأهديته الكمية الباقية ، قائلا اننى فى غير حاجة الى المال ، لاننى انما أسعى وراء سر مضاعفة وزن الذهب ، كما فعلت بالزئبق ! ٠٠ ثم فارقته على أن ألتقى به بعد أسبوعين فى « نابولى » ومن المبلغ الذى كسبته دفعت لصاحب الفندق حسابى ، معتزما أن أرحل فى الصباح الباكر الى (ساليرنو) ٠٠

التاجر الغبى يدفع نفقات الرحلة !

◆ وكنت ادرك أن اللهفة تضطرم فى صدر اليونانى ليعرف سر المواد التى خلطتها بالزئبق ٠٠ وصح ماتوقعت ، فما ان انبثق الفجر حتى كان اليونانى فى غرفتى يساومنى على السر ! فقلت له اننى احتاج الى مواد قد توجد فى (تور دى جريك) ـ وهى البلدة التى كنت قد جعلتها قبلتى الثانية ـ فدفع الى بخمسين أوقية من الذهب عربونا ، ثم أقلنى فى عربته الى (تور دى جريك) ٠ وما أن وصلنا اليها حتى كتب تعهدا بأن يدفع لى ألفى أوقية من الذهب بمجرد أن أكشف له سر العملية ! وفعلا أطلعته على الطريقة ، فجربها ، وغاب برهة ثم عاد بادى القلق ، وقال ان الزئبق الناتج لم يكن من نفس نوع الزئبق الاصلى ، فقلت له : « انه من نفس النوع الذى بعته للتاجر فى المرة السابقة »

قال : « ولكننى كنت أحسب أن نوع الزئبق لن يضار أو يتأثر ! »

قلت : « انك تعرف ان الاتفاق كان على انتاج زئبق يعادل فى النوع ذلك الذى بعته للتاجر ٠٠ فان شئت أن تلجأ الى القضاء فستخسر القضية ، وان كان يؤسفنى أن يشيع السر بين الناس ٠٠ ولكن ، لكم سيضحك القوم ـ ويكسب المحامون ـ من وراء النزاع ! ٠٠ على اننى سأكون جد حزين لتطور الامر الى هذا الحد ، فاليك الذهب الذى دفعته عربونا ٠٠ »

وأخرجت الذهب وأنا أخشى أن يأخذه فعلا ، ولكنه غادر الغرفة غاضبا ٠٠ وفى الصباح التالى جاء يسألنى أن أرد اليه التعهد الذى كان قد كتبه ، لقاء خمسين أوقية أخرى من الذهب ٠٠ وتصالحنا ، حتى اذا آن لنا أن نفترق ، أعطانى رسالة اتسلم بها برميل نبيذ من بيته فى (نابولى) ، كما أهدانى صندوقا أنيقا يحتوى على اثنى عشر موسى للحلاقة ذات مقابض فضـــية ٠ وافترقنا كخير صديقين !

بركات الاسقف !

◆ والتقيت أخيرا بأسقف (مارتورانو) الذى سعيت وراءه طويلا ، فاستقبلنى فى ود بالغ واحتضننى فى حنان ٠٠ وسرعان مالمست انه كان فى ضيق ، اذ كان

مضطهدا من الرهبان ، وكان مرتبه ضئيلا ٠٠ وقد أبدى أسفه اذ جشمنى مشقة الحضور ، وأبدى استعداده لان يرسلنى الى البندقية ثانية ٠ وأسلمنى خطاب تقديم الى طبيب وجيه من أهل (نابولى) سأله أن يعطينى ستين « دوكا » ـ وهى عملة ذهبية ايطالية ـ كما زودنى بخطاب الى أسقف (كوسنزا) سأله فيه أن يدبر لى سفرا الى نابولى دون أن أتكبد شيئا ٠٠ فأهديته بدورى الاثنى عشر موسى ٠٠ وودعنى باكيا وهو يضفى على بركاته ، فرحلت الى (كوسنزا) حيث أكرمنى أسقفها ، واستضافنى يومين ٠٠ وفى اليوم الثالث أرسلنى الى«نابولى» بعد أن زودنى برسالة توصية الى « جينو فيزى » ، الباحث الدينى الذائع الصيت ٠٠

ووصلت الى (نابولى) فى ١٦ سبتمبر سنة ١٧٤٣ ، فبادرت بتقديم الرسالة التى زودنى بها أسقف (مارتورانو) الى الطبيب الذى سيعطينى مبلغ الستين « دوكا » ، فأصر على أن أنزل ضيفا عليه ، حيث أعد لى فراشا فى غرفة ابنه ٠٠ وكان فتى مليحا فى الرابعة عشرة من عمره ، يجيد قرض الشعر ٠٠

وعلى مائدة العشاء فى اليوم التالى ، قدمنى مضيفى الى « جينو فيزى » الشهير بأبحاثه الدينية ٠٠ وسمع أحد أهالى نابولى بأن اسمى يشبه اسمه ـ اذ كان يدعى « الدون انتونيو كازانوفا » ـ فسعى الى مقابلتى لدى مضيفى ليسألنى عن نسبى ، فما ان ذكرته له ، حتى احتضننى وهو يدعونى بابن العم ٠٠ وأصر على أن يدعونى وصديقى الصغير « بول جينارو » ـ ابن مضيفى الطبيب ـ الى الغداء على مائدته فى اليوم التالى ٠٠

ثروة من برميل نبيذ !

◆ وسألنى « ابن العم » ـ حين وافيناه فى داره ـ عما دعانى الى زيارة (نابولى) ، فأنبأته بأننى أعد نفسى لاكون من رجال الدين ، واننى فى طريقى الى روما حيث سأجرب حظى ٠٠ واذ ذاك رغب فى أن يقدمنى الى دوقة «بوفينو» ٠٠ وكان «بول جينارو » قد أعد لها قصيدة عرضها على حين التقى بى لاول مرة ، فعدلت من بعض أبياتها ، وكتبت قصيدة من بحر آخر فى نفس المعنى ٠٠ ولكنى اعتذرت لقريبى بأننى لا أحمل معى ثيابا تليق بمقابلة علية القوم ، والا لذهبت لتقديم القصيدة بنفسى الى الدوقة ، فقال : « اننى غنى ٠٠ ويجب ألا تتردد فى أن تصحبنى الى حائك ثيابى ٠٠ »

وفى اليوم التالى كانت لدى الثياب التى تليق بقس شاب ٠٠ فصحبنى ابن العم الى الدوقة ، التى أهدتنى علبة سعوط من الصدف ، وأبدت اعجابها الزائد بقصيدتى ٠٠ وما أن غادرنا قصرها حتى استأذنت من قريبى وسعيت الى دار التاجر اليونانى الذى خدعته ، فقدمت الخطاب الذى أوصى لى فيه ببرميل نبيذ ، وسألت وكيله أن يقسمه على قنينتين كبيرتين ، أرسلت احداهما الى ابن عمى،

والاخرى الى مضيفى ٠٠ فأهدانى ابن العم عصا ثمينة ذات راس ذهبية ، وثوبا للسفر ، ومعطفا أزرق موشى بالقصب ٠٠

ولو ان القدر كتب لى البقاء فى (نابولى) لحظيت برفاهية ونعيم، ولكن حظى كان يدعونى الى روما ،فزودنى مضيفى بخطابى تعريف الى الكاردينال «اكوافيفا» والاب « جيورجى » ، من علية القوم ٠٠ كما أهدانى ساعة ذهبية بديعة ،وأسلمنى رسالة توصية الى صديق حميم له يدعى « دون جاسبار فيفالدى » ٠٠ والى هذه كلها ،ضممت الستين «دوكا» التى تقاضيتها منه عندوصولى ،ثم غادرت نابولى ٠٠

أزيز السرير يضيع عليه الفرصة !

◆ وما أن تحركت العربة ، حتى رأيت الى جوارى سيدا بشوش الوجه فى حوالى الخمسين من عمره ٠٠ أما امامى ، فرأيت وجهين جميلين لسيدتين رشيقتين فى مقتبل العمر ٠٠ وأدركت ان السيد محام ، وان احدى السيدتين زوجته ٠٠ ولكننى لم أدر أيهما الزوجة !٠٠ وفى اليوم التالى ، دار بيننا حديث ، فهمت منه أيهما كانت الزوجة ٠٠ واذ أدركت انها تعجب بالرهبان من اتباع مذهب « الكابوشان » ، فقد زعمت اننى منهم !٠٠ وفى اليوم الثالث ، سألتنى السيدة عما اذا كنت أزمع أن أطيل مقامى فى (روما) ، فقلت اننى سأعجل بالرحيل الى البندقية ، اذ أن عدم وجود معارف لى فى روما كان كفيلا بأن يسئمنى ، وأردفت متسائلا : « هل آمل أن تسمحوا لى بأن أزوركم لأقدم لكم احتراماتى؟»

فأجاب المحامى : « لسوف يشرفنا أن تزورنا »

وكان علينا ان نقضى الليلة الثالثة من رحلتنا فى (مارينو) ، حيث أفردت لنا حجرتان صغيرتان فى فندق بالبلدة ٠٠ وفيما كنا نتناول الحلوى فى نهاية العشاء ، قالت الزوجة الجميلة لزوجها المحامى ، اذ لمحت علبة سعوطى الصدفية ، انها تتوق الى علبة مثلها ٠٠ فقلت للرجل : « تستطيع أن تبتاع علبتى على أن تعطينى الثمن سندا قابل الدفع لحامله، اذ اننى أريد أن أسدبه دينا لسيد انجليزى»

لكنه أصر على أن يدفع الثمن نقدا ٠ وعندما عرضت السيدة أن تكتب لى السند الذى طلبته ، قال المحامى : « أؤكد لك ان لا سيد انجليزى هناك ، وان صديقنا يتحايل ليعطينا العلبة دون مقابل ٠٠ لا تثقى بالقس ياعزيزتى ، فهو مخادع كبير »

فأجابت وهى ترمقنى : « ماكنت أحسب أن فى الدنيا مكارا بهذا الشكل !»

وكانت الحجرتان اللتان افردتا لنا متصلتين ، وليس من باب بينهما ، فلجأت السيدتان الى الغرفة الداخلية منهما ٠٠ وتشاطرت والمحامى السرير الذى كان فى الغرفة الخارجية ، وقد انتويت ان لا أنام الليل ، اذ اضمرت فى نفسى أمرا !

وليتصور القارىء مدى حنقى ، حين هممت بأن أتسلل من السرير ٠٠ فاذا به يحدث أزيزا عاليا يوقظ الموتى ، نتيجة لحركة خفيفة صدرت منى فى نهوضى !

« يتبع »


L'ENFANT
CHAPARDEUR
PAR
Dr. MARIANE ROUDROF
مدرسة الوالدين
كيف تقاوم نزعة
اللصوصية عند الأطفال!
للباحثة الفرنسية الدكتورة ماريان رودروف

هذا البحث الجديد ..

◆ فى الاعداد الماضية قرأت معى من سلسلة هذه المحاضرات النافعة التى نظمتها « مدرسة الوالدين » بجامعة باريس ، ثلاث مجموعات : كانت أولاها محاضرات الدكتورة « فرانسواز دولتو » عن « مشكلات الطفولة الباكرة » .. ثم تلتها محاضرات الاخصائى الفرنسى « اندريه بيرج » عن « الطفل والاسرة » .. فمحاضرات الباحثة الاجتماعية « بوليت كوهن » ، وكان موضوعها : « عندما يتشاجر الاخوةوالاخوات»!

واليوم أقدم لك الحلقة الاولى من المجموعة الرابعة ، وقد عالجت فيها باحثتهـا الدكتورة « ماريان رودروف » موضوعا لعله يطرق اليوم لاول مرة ، رغم أهميته الحيوية فى التربية ، وهو موضوع : « كيف تقاوم نزعة اللصوصية عند الاطفال »!

هل هو لص ؟

◆ « يسرق » ، أو « يخفى » ، أو « يخبىء » ـ وكثير غيرها من الافعال فى اللغة ـ تستعمل كلها للدلالة على أخذ شىء ليس من حق من يأخذه ! .. وكلما لجأ السارق الى التهوين من فعلته ، لجأ صاحب المال المسروق الى التهويل فى وصف هذه الفعلة .. فاللص يقول : أخذت ، أو أخفيت ، بينما الذى سرقت منه أشياؤه يقول له : بل « سرقت » أيها اللص !

ويدل اللفظ الذى نستعمله فى وصف السرقة على مدى تقديرنا للفعلة المرتكبة . فلكل لفظ مدلول يبين شعور النفس ، وما التعبير الا المرآة التى تنعكس عليها الاحاسيس التى تجيش بها الصدور .. فلفظ « السرقة » يترجم عن عمل نراه شائنا ، بينما « الاخفاء » يدل على عمل ينطوى على شىء من « المهارة » .. أما « الخطف » فلا يخلو من معنى من معانى الافصاح عن جهد فيه شىء من «الرياضة» !!

وحين نقول عن طفل انه « يغافل من حوله ويأخذ ماليس من حقه » فان هذه العبارة تحتمل تأويلين : أولهما قاس ، اذا نظرنا الى عمل ذلك الطفل نظرة جدية .. وثانيهما هين اذا نظرنا الى ماأتاه نظرة هينة لا أثر فيها للتهويل أو المبالغة !

وتبدأ المسألة فى العادة بداية تافهة ، كأن يأخذ الطفل قطعة الحلوى التى يراها فى يد أختـه .. ثم يتدرج الى أخـذ عشرة فرنكات خلسة من حافظة نقـود أمه .. ثم ينتهى الامر الى أن يأخـذ مائة فرنك فى غفـلة من أبيه ، أو يغافل البـدال فيأخذ أحد الاشياء المعروضـة

على رف فى دكانه !٠٠ او قد يقطف احدى الثمار من شجرة مزروعة فى حديقة الجيران ، اذا أمن أعين الرقباء ٠٠ وهو فى خلال ذلك يتدرج من فعل الى فعل كلما تقدم فى السن ، حتى لنراه يوما وقد تجرأ على سرقة ألف فرنك مودعة فى درج مكتب رئيسه !٠٠ ثم يقفز فى التدرج ، أو ينحدر بلغة أصح ، حتى يصل الى حد السطو المسلح على الاماكن العامة ٠٠ ثم هو يتدرج فى نوع السطو ، فيبدأ بالسطو المسلح تحت جنح الظلام ٠٠ وينتهى بالسطو المسلح فى وضح النهار ، لينهب ثلاثين ألفا أو ثلاثين مليونا من الفرنكات !

ومع اختلاف هذه الاعمال عن بعضها لبعض اختلافا بينا ، وبعد الشقة بين اخذ قطعة من الحلوى من يد أخت ، والسطو المسلح على الاماكن العامة فى وضح النهار !٠٠ أقول ، مع المسافة الهائلة التى تفصل بين هذين العملين ، الا ان هناك ، مع ذلك ، حقيقة مقررة لا شك فيها ، هى أنه من الصعب أن نحدد بالدقة من أية نقطة ، أو أية فعلة ، يبدأ « جنين الجريمة » فى التكون ٠٠ وهل كانت نطفة هذا الجنين هى قطعة الحلوى المغتصبة من يد الاخت الصغيرة، أو المائة فرنك التى أخذها الصبى فى غفلة من أبيه ؟!٠٠ كما أن الجنين اذا ما تكون من مجرد العمل التافه الصغير ، فان من الصعب علينا أن نحدد المدى الذى سيصل اليه ، أو متى يبدأ العمل فى أخذ صفة الجريمة ٠٠ أو النهاية التى سينتهى اليها المجرم ، أو الحد الذى سيقف عنده !

على أن تقدير الطفل لهذه الافعال ليس له من الاهمية مثل ما للتقدير من يحيطون به ٠٠ فبينما نرى بعض الآباء يقسون قسوة بالغة على الابن الصغير الذى يختلس قطعة من الحلوى من أحد أدراج غرفة المائدة ، حتى ليوجسون خيفة من المستقبل الذى قد يصير اليه ذلك الابن ، اذا بنا نرى آباء آخرين يعدون مثل هذا الامر « مهارة » من الابن الذى عرف كيف يركب الترام ويهرب من دفع ثمن التذكرة ٠٠ ويجدون فى عمله هذا مجالا للتندر والفكاهة !!

لنحاول فهم ما يدور بذهن الصغير ٠٠

◆ ونحن لا نريد هنا أن نتحدث عن الابن المجرم ، الذى يرتكب أعمالا يعاقب عليها القانون ، بل نريد أن نتحدث عن الابن الذى يختلس أشياء تافهة من البيت أو المدرسة ، أى الذى يرتكب هذه الامور التى لاتعتبر فى حد ذاتها خطرة ، ولكننا ننظر اليها بعين القلق أحيانا ٠٠ ومن الآباء من لا يلقون بالهم اليها استهانة منهم بشأنها فى البداية ، ولكن لا يمضى وقت طويل حتى نرى هؤلاء الآباء أنفسهم وقد انتقلوا ازاء عمل من الاعمال ، من النقيض الى النقيض، أى من قلة الاكتراث الى أبعد حد من الانزعاج !٠٠ ومن عدم المبالاة بما سموه فى بادىء الامر توافه وصغائر ، الى قسوة بالغة فى تأديب الطفل الذى أتى تلك « التوافه » و « الصغائر » !٠٠ ولشد مايدهشهم أن يروا فيما بعد أن القسوة

فى العقاب او الزجر لم تات بنتيجة ما .. فاذا عن لهم ان ياخذوا الطفل باللين والحسنى ، رأوا اللين والحسنى قد زادا الحالة سوءا .. ذلك ان الابن اذا انقطع عن السرقة نتيجة لشدة أبويه فى عقابه ، او لمهادنتهم اياه وأخذه بالرفق ، استتبع انقطـاعه عن السرقة انقطاعه عن النشـاط والعمل .. ثم هربه من المدرسة ..

فماذا نحن اذن فاعلون ؟

لنحاول أولا تفهم مايجول بخاطر ابننا الصغير «اللص» !.. وسنضرب أمثلة حية لحالات مرت بنا وعرفنا أصحابها ، وسنروى هذه الامثلة كما وقعت بدون تحريف .. وقد رأينا أن نختار منها أدقها وأعمقها فى الدلالة ، وأكثرها شيوعا .. فليست هناك فائدة توازى تلك التى نحصل عليها من مراقبتنا الاطفال مراقبة دقيقة خاصة ، عن قرب .. وليتنا قبل أن نشرع فى العمل من أجل تربيتهم ، ندع لهم الفرصة ليعملوا هم ، بدورهم ، من أجـل تربيتنا !

بعض من عرفتهم

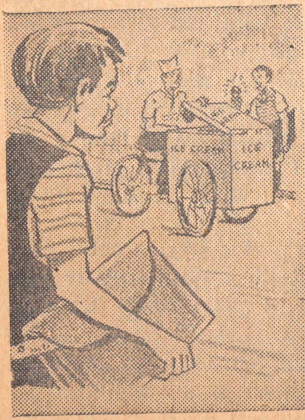
المثل الاول

◆ « روجيه » و « جانين » ، اخ واخت ، يتضاربان ، ويتصايحان ، يعض احدهما الآخر ويعمل أظافره فيه ! واذا بالحجرة وقد انقلب كل مافيها ظهرا لبطن ! وتصل الام وترى مايحدث ، ولكنها تأخذ بناصر الابنة الصغيرة فتوجه الكلام الى ابنها قائلة : « اننى آمرك بأن تدع اختك الصغيرة وشأنها .. ماذا دهاكما ؟! » وهنا تتباكى «جانين» وتقول : «لقد اخذ منى (الملبسة) التى كانت فى يدى » .. ورغبة من الام فى المحافظة على « المبدأ » ، لا ترى بدا من أن تحملق فى ابنها « روجيه » قليلا .. ثم تخرج من الحجرة رافعة كتفها ، وتنسى كل ما حدث بمجرد أن تدير ظهرها للغرفة .. فهو أمر تافه لا يؤبه له ولا يجب اعارته أى التفات !

ولكن لا تكاد تنقضى أيام قليلة حتى تفاجىء الام « روجيه » وقد فتح درجا من الادراج تحفظ هى فيه بعض الحلوى ، وأخذ من قطع « الشكولاته » مامِلأ به فمه عن آخره .. والحق انه من العبث تضييع الوقت فى سؤاله من أين جاء بهذه « الشكولاته » ، فالامر من الوضوح بحيث لا يسـتدعى سؤالا أو استيضاحا .. ولما لم تكن الام تتوقع من ابنها الصغير ماحدث ، فانها لم تأخذ حيطتها للامر بأن تغلق الدرج مثلا .. وهكذا يمر هذا الحادث بدوره مرورا سهلا ، فهو أمر تافه لا يؤبه له ولا يجب اعارته أى التفات !

لكن الموقف لا يلبث أن يتغير تغيرا كليا ، فيصبح الامر جدا لا هزل فيه ، لان فيه من الخطورة مايبعث على مزيد من القلق ٠٠ فبينما الاب والام والطفلة « جانين » حول مائدة الطعام ذات يوم ، وقد ساد الغرفة وجوم شديد - ولم يكن روجيه معهم لانه كان ملازما الفراش - والطفلة الصغيرة تكاد لا تستطيع ازدراد الطعام من القلق الذى يساورها كلما تطلعت الى وجه أبيها ، أو وجه أمها ٠٠ اذا بالاب ينهض فجأة من مقعده بجوار المائدة ، ويقول فى انفعال ظاهر : « أفهم أن يختلس الولد « الملبس » بغير علمنا ٠٠ وأفهم أن يغافلنا ويملأ جيبه أو فمه بالشكولاته الموضوعة فى أحد أدراج غرفة المائدة ٠٠ ولكن النقود ! النقود ! أين تعلم الولد السرقة ؟!»

والذى حدث أن الحر أخذ فى الاشتداد حين ظهرت طلائع الصيف ، والمسافة بين المدرسة والبيت طويلة ، فبينما كان روجيه عائدا من المدرسة مع زميله « جاك » اذا بهما يبصران بائع « الجيلاتى » وقد انتحى مكانا فى احدى زوايا الشارع ، عارضا مالذ وطاب من أنواع المثلجات الشهية اللذيذة ٠٠ واذا« بجاك» صديق « روجيه » يجرى مسرعا الى البائع ويبتاع منه ماحلا له من « الجيلاتى » ثم يأكله ، بينما وقف « روجيه » أمامه يتحلب لعابه شوقا ، وان كان حلقه يكاد ينشق من الظمأ !



ويتكرر هذا المنظر كل يوم : روجيه المحروم وجاك المحظوظ يعودان معا من المدرسة ، فيبتاع « جاك » المثلجات اللذيذة ، بينما يركز « روجيه » عينيه عليها وعلى ألوانها الزاهية من وردية وخضراء وصفراء ٠٠ فى شوق ولهفة وحسرة !

ولسوء الحظ أن « روجيه » لا هو بالمتنسك ولا هو بالفيلسوف ٠٠ كما ان زميله « جاك » لا هو بالمتحفظ ولا هو بالكريم ! ٠٠ واذن فما أسهل أن يمد روجيه يده الى حافظة نقود أمه وينشل منها عشرين فرنكا ؟ ان أحدا لن يكتشف اختفاء مثل هذا المبلغ الضئيل ٠٠ ان « الجيلاتى » اللذيذ يستحق هذا العناء ، ويستحق هذا المجهود !!٠٠

وهكذا اعتاد « روجيه » أن يغافل أمه ويأخذ من حافظة نقودها عشرين فرنكا كل يوم ! .. لكن تلك المبالغ الضئيلة كانت بمثابة القطرات التى تتساقط فى الاناء قطرة قطرة حتى يفعم بها الاناء مع مرور الزمن .. فاذا كان ضياع عشرين فرنكا لا ينكشف فى يومه ، فان ضياع عشرين فرنكا كل يوم ، ولعدة أيام ، لا بد أن ينكشف .. فقد أخذت الام فى آخر الاسبوع تراجع ميزانية البيت وترصد نفقات الاسبوع ، فاذا بها تكتشف ضياع مبلغ مائة فرنك كاملة !

وتحوم الشكوك حول « روجيه » .. وتقوى هذه الشكوك فتتحول الى يقين .. ويتبع اليقين الاعتراف ! .. ومن هنا كان ذلك الصمت العميق والوجوم اللذان خيما على البيت وعلى الابوين وهما فى غرفة الطعام ..

وقد أشرنا فيما مضى الى ان تقدير الولد لما يفعل يختلف كل الاختلاف عن تقدير الذين يحيطون به . فالوالد يرى ازاء هذا الحادث ان « هذا الولد مآله حتما الى السجن ! » ، ويستعرض مع الام فكرة ارساله الى احدى اصلاحيات الاحداث ! .. لماذا كل هذا التعقيد والتهويل ؟ ألا يكون الأمر أسهل والعلاج أنجع لو كنا ننظر الى الأشياء نظرة واقعية ، فنبدأ بأن نخصص « لروجيه » مبلغا زهيدا من المال (كمصروف جيب) ؟! ان هذا المبلغ لازم له حتى لو لم يستشعر تلك الرغبة العارمة فى الحصول على « الجيلاتى » ، فلا شك أن مما يخجل الطفل أن يرى نفسه عاجزا عن الحصول على الاشياء التى تدخل على قلبه السرور أسوة بزملائه .. وقد كان فى مقدور أبويه أن يلحظا هذه الظاهرة عندما اختطف روجيه من أخته ما فى يدها من « ملبس » ! لقد أحس بأنه محروم من نصيبه من الرعاية والحنان ، وانه لا يعامل على قدم المساواة مع أخته بل أنها مفضلة عليه . فكلما اشتط الابوان فى هذا التفضيل أحس الابن بمرارة الحرمان ، فدفعه احساسه هذا الى الاقدام على السرقة !

وفى حادث « روجيه » أحس والداه ، بعد أن وقعا عليه العقوبة الرادعة وعاود أعصابهما الهدوء ، بأنهما ينبغى أن ينظرا الى الأمر فى تبصر ، ويستعرضاه فى أناة ، فكان أول عمل عملاه أن أفهما « روجيه » فى صراحة أن عليه اذا رغب فى الحصول على شىء أن يفصح لهما عن رغبته هذه ، فان هذا هو السبيل الوحيد الذى اذا سلكه اكتسب ثقتهما ورضاهما . وليس معنى ذلك انهما كانا يجيبانه الى كل ما يطلبه ، فقد حدث ان رفضا له بعض مطالبه ، ولكن الرفض كان دائما منصبا على شىء محدد بالذات . اذ

ليس من شك فى ان رفض شىء محدد يختلف بطبيعته عن ذلك الرفض العام لكل ما يرغب فيه من أشياء ٠ والسبب الاساسى فى حادث « الجيلاتى » المذكور هو ان « روجيه » لم يجرؤ على طلبها بالذات ٠٠ فأصبحت الرغبة فى الحصول عليها مكبوتة وجامحة ٠٠ ومن هنا سرق النقود ليفوز بها !٠٠ فان من الامور المعروفة لنا جميعا ان استحالة اشباع الرغبة انما تزيدها اشتعالا وفورانا ٠ فاذا طبقنا هذه القاعدة على الابن ، ونظرنا الى رد الفعل المبالغ فيه من جانب الابوين ، فى تقديرهم لخطأ ابنهما ، وفى العقاب الذى يوقعانه عليه تبعا لذلك ، رأينا أن هذه المبالغة تتمشى مع الظاهرة الاولى تماما !٠٠ فلو اننا عالجنا رغبات الطفل وقدرنا نوازع الطفولة ، لما احتدمت رغباته الى الحد الذى يدفعه دفعا الى السرقة ، لكى يشبعها ٠٠ ولما احتدم أيضا غضب الابوين الى الحد الذى جعلهما يعتقدان ان مآل ابنهما هو السجن حتما ! ٠٠ لقد عرض الابوان أمر « روجيه » على أحد الاطباء المختصين ، لكن الطبيب لم ير فى الولد مريضا يستحق العلاج ٠ فأعاد بذلك اليهما صوابهما وجعلهما ينظران الى الموضوع نظرة واقعية صحيحة ٠٠ فما أن فعلا ذلك حتى أفلحا فى اعادة ابنهما الى الطريق المستقيم ٠٠

المثل الثانى

◆ « هنرى » صبى لا يتمتع بنعمة وجود أمه ! انه يتيم الام ! وقد ترتب على ذلك ان جزءا من اعباء المنزل وقع على كاهله ٠٠ وقد اعتاد أقرانه قضاء عصر كل يوم خميس فى اللعب فى الغابة وازجاء الوقت معا فى مرح وسرور ، فى الوقت الذى كان يتعين عليه فيه أن يستصحب أخته الصغيرة عائدا بها الى المنزل ٠ فاذا حلت أيام الآحاد قضاها على هذا النمط ، وحيدا ، منعزلا ، لا يجد ما يقتل به الوقت سوى تخطيط بعض الرسوم وتلوينها ٠٠ فكانت حياته تجرى على وتيرة مملة حزينة ، الامر الذى جعله – مع الزمن – ينطوى على نفسه ٠٠ فاذا ذهب الى المدرسة لم يلتفت اليه من زملائه أحد ، فهو كم مهمل ، لا يقول شيئا ، ويعيش فى عزلة عن الآخرين ٠٠ وان كان يسمع أقرانه يتكلمون عن المدافع والبنادق ، فلا يملك الا ان يمنى نفسه بها ٠٠ حقا ما أجمل المدافع والبنادق !

وعاد « هنرى » الى المنزل ذات يوم فعكف على اتمام الواجبات المنزلية الملقاة على عاتقه ، والعناية بأخته الصغيرة ٠ وما ان فرغ من ذلك حتى أطلق لخياله العنان ٠٠ ولكن فيم يفكر يا ترى ؟! انه يفكر فى المدفع وفى البندقية

الجميلة التى سمع اقرانه يتحدثون عنها ٠٠ واخذ منظر البندقية يلوح أمام عينيه ويلازمه فى الليل والنهار ، فى صحوه ورقاده ٠٠ وكلما سنحت له فرصة راح يحوم حول دكان بائع الأسلحة يحملق فى البنادق الجميلة البراقة المعروضـة فى واجهة دكانه !٠٠ فمـاذا حدث ؟ حدث أن « هنرى » ، هذا الولد الخجول الصامت ، المنطوى على نفسه ، والذى يحيا فى عزلة عن أصدقائه ، رؤى ذات صباح وفى يده بندقية يلوح بها فى المدرسة أمام التلاميذ وقد تملكه الاعتداد وزهو الانتصار ٠٠ واذا بجميع التلاميذ يتجمعون حوله ويحملقون فى البندقية التى يحملها بين يديه ٠ حتى الكبار منهم لم يتمالكوا أنفسهم من الاعجاب بها والغيرة منه لحصوله عليها !٠٠ ولكن كيف تمكن « هنرى » من الحصول على تلك البندقية ؟ انه يعلم جيدا مكان الصـندوق الذى يضع والده فيه النقود ٠٠ ووالده لم يعد الى المنزل بعد ، وها هى أخته الصغيرة مشغولة بتناول عشائها ٠٠ اذن فالفرصة سانحة أمامه ٠٠ هاهو ذا يدس يده فى صندوق النقود ٠٠ ولكن ما ان يفعل ذلك حتى يسمع صوت الباب يفتح ٠٠ انه أبوه قادم من غير شك ٠٠ ليس ثمة اذن متسع من الوقت ٠٠ وهكذا لم يجد بدا من أن ينتزع من الصندوق ورقتين ماليتين ثم يخفيهما بسرعة فى جيبه ! ٠٠ وهنا يكون أبوه قد وصل الى الحجرة ووقف أمامه وجها لوجه ٠٠ ان « هنرى » يحملق فى وجه أبيه صامتا ٠ ولكن هذه عادته فقد تعود أبوه أن يراه هكذا ساهما ٠٠ غير ان أحدا لم يخطر بباله ان سهومه فى هذه المرة هو نتيجة لفعلة شائنة ارتكبها !٠٠ كما أن أباه لم يكن يكلف نفسه قبـل ذلك عناء معرفة مايكمن وراء هذا الهدوء من انفعالات ومشاعر نفسية مضطرمة مضطربة ، ناتجة عن نوع الحياة التى يحياها ذلك الولد الصغير ٠٠

وهكذا حصل « هنرى » أخيرا على ما كان يحلم بالحصول عليه ٠ انه سيتمكن فى الغد من اعداد رحلات ممتعة للصيد ، وسيصبح من الآن فصاعدا شخصا له قيمة وقدر كالآخرين تماما ، بل ربما أكثر من الآخرين ! ٠٠ غير ان سعادته لم تدم طويلا ، فقد افتضح أمره بعد أن اكتشف أبوه سرقته فى غير عناء ! ٠٠ فهل يمكن القول بأن الزجر والعقوبات الصارمة هى العلاج الناجع لحالة « هنرى » المسكين ؟

وفى العدد القادم ، أقدم لك الجزء الثانى من هذا البحث القيم



ثلاث حضارات .. قبل الميلاد

◆ رويت لك فى العـدد الماضى الحلقـة الرابعة من كتاب « تاريخ العالم فى ٢٤٠ صفحة » .. وهو الكتاب الذى ألفه الباحث الفرنسى « رينيه سيديلو » ، وذهب فيه الى رواية التاريخ فى شكل « قصة » ممتعة ، لا مادة « دراسية » جافة ! .. وقد تناولت تلك الحلقة حضارات نهرى دجلة والفرات ..

واليوم ، انتقل بك الى الحلقة الخامسة ، مقدما اليك ثلاث حضارات قديمة ، ومجيدة ، هى : « حضارة حوض النهر الأصفر » و « حضارة جزيرة كريت » و « حضارة الفينيقيين » ..

حضارة حوض النهر الأصفر

◆ لقد خلق النهر الاصفر من السهل الكبير فى الصين موردا لا ينضب للقمح والذرة وفول الصويا .. وكانت الرواسب من الطمى ترفع قاع النهر ومجراه ، حتى غدا خطرا على الاراضى المنخفضة الممتدة الى جانبيه ، لكن الناس درجوا على أن يفضلوا الاراضى الغنية الخصب ـ ولو كانت خطرة ـ على الارض المجدبة ولو كانت آمنة !.. وتزعم الاساطير الصينية القديمة ان النهر الاصفر انساب من شرايين « بان كو » ـ أو « آدم» ، الانسان الاول ـ الذى غدا راسه جبلا ، وعيناه الشمس والقمر ! .. وهى اسطورة تنم عن شاعرية اصيلة . ويرد بعض الصينيين عهد « بان كو » الى ٢٧٦ر٤٧٩ سنة قبل المسيح ، فى حين يرجعه بعض آخر الى ٩٦ر٩٦٢ر٢١٩ سنة قبل مولد المسيح ! ومهما يكن الامر ، فان أهل الصين يرون ان الانسان أعرق أصلا وأقدم عهدا مما ورد فى التوراة .

اما عن نسب الصينيين ، فان المؤرخين والعلماء الغربيين يرفضون الاخذ بأن الصينيين هم سكان الصين الاصليين ، وانما يميلون الى الاعتقاد بأنهم وفدوا الى الصين مهاجرين من بلاد أخرى ٠٠ وقد رجح « هيرودوت » انهم من أصل مصرى ، وزعم العبريون انهم من سلالة « حام » ، وقال بعض المؤرخين انهم جاءوا من الهند ٠٠ لكن الواقع ان ليس فى الآثار الصينية ماينم عن اية هجرة الى الصين ، فهى فى أقدم العصور التى توصل اليها العلم من تاريخها ـ عصر الامبراطورية الوسطى ـ كانت تعيش فى عزلة عن بقية العالم ٠٠ وكان أهلها يطهرون مجرى النهر الاصفر ، ويعرفون كيف يصرفون الفائض من مياهه بعد رى المحصولات ٠٠ أى أنهم أيضا كانوا يعرفون الرى وبذر المزروعات ، وقد أحالوا السهل الكبير الى جنة كان ينمو فيها البرتقال والليمون والتوت ٠٠ وجلبوا الارز من جنوبى الصين قبل المسيحية بثمانية قرون ٠ وكانوا يربون دودة القز وينسجون من حريرها أقمشة رائعة ، قبل أن تعرف أوربا صناعة الحرير بألف وخمسمائة سنة !٠٠ وكانت لهم حياة زراعية مستقرة ، فى بيوت من الطين والقش ، كما كانوا يستعملون الخيل فى حملاتهم الحربية قبل الميلاد بألفى سنة ، اذ أخذوا ذلك من المغول ٠٠ وفى نفس ذلك العهد تقريبا ، عرفوا صناعة الخزف ، وبرعوا فيها ، كما عرفوا بعد ذلك البرونز ، الذى جاءهم من سيبريا فحذقوا صناعته ٠٠ ومالبثوا ـ حوالى سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد ـ انعرفوا الحديد ومهروا فى استخدامه ٠٠ ولعلهذا العهد أيضا هو الذىأقدموافيهعلىمالم يسبقهم اليه أحد ، وهو استغلال الفحم المتراكم فى باطن الارض ٠٠

حضارة الصين العظيمة

◆ وفى النشاط الفكرى ، يفخر أهل الصين بأنهم ابتكروا الموسيقى منذ ٥٠٠٠ سنة ، وانهم ابتكروا الكتابة بعد ذلك بحوالى ٢٥ قرنا ، وكانت فى البداية تكتب بوساطة حبال معقودة ، ثم أصبحت خطوطا تحفر على العظام والاصداف ، وانتهت الى رسوم رمزية ٠٠ وبفضلها انصرفوا الى الاعمال العلمية والادبية ، وشغفوا بدراسة التاريخ ، فى نطاق بلادهم وحياتهم ، فسجلوا ماضيهم فى أربعة آلاف مجلد ، مبتدئين بـ « فوهى » والاباطرة الخمسة الذين كانوا يحكمون باسم العناصر الرئيسية : الارض ، والخشب ، والمعدن ، والنار ، والماء ٠٠ وهى فى الواقع رموز أسطورية ترجع الى ماقبل التاريخ

ومن العسير الالمام بكل ماورد فى تاريخهم ، لانه سرد لاسماء الاسرات والحكام والمذابح ودسائس البلاط الامبراطورى ! وكل مايعنينا منه ان الامبراطور كان « ابن السماء » ، والرئيس السياسى للدولة التى كانت ذات نظام اقطاعى ٠٠ فكان السادة يقيمون فى قصور ذات أسوار عالية ، وبقية الشعب مقسمين الى

خمس طبقات تبعا لحرفهم وصناعاتهم ٠ وكانت الدولة تتولى تنظيم مشروعات المياه ، وتشجع أو تمنع زراعة بعض نباتات معينة ، وتوزع الاراضى وتشرف عليها ٠

٠ ٠لم يكن يعكر صفو نعيمهم سوى تربص قبائل الرعاة الرحل على حدودهم٠ وهناك بعض شك فى أن الصينيين هم الذين بدأوا بالاغارة على ماوراء السهل الكبير ، ولكن البرابرة مالبثوا فى سنة ٧٧١ قبل الميلاد ان اضطروهم الى اعادة عاصمتهم الى السهل ٠ ٠على ان المعجزة الحقيقية للصين ، هى تلك القدرة العجيبة التى أوتيتها : القدرة على استيعاب الغزاة وصبهم فى قالبها القومى ، وعلى التغلب على من يغلبونها !

حضـــارة جزيرة كريت

◆ على ان الحضارات لم تكن وقفا على الانهار ، بل كان للبحر هو الآخر جاذبية أغرت الانسان بالتقدم والنهوض ٠٠ وكما أن الذين عمروا السهول غدوا مزارعين ، فان سكان السواحل تحولوا الى ملاحين ٠٠ وكانت أولى الحضارات البحرية ، هى حضارة جزيرة « كريت » ، القنطرة بين أوربا وآسيا وأفريقيا!٠٠ ففى حوالى سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد ، حط فى هذه الجزيرة عدد من القبائل الوافدة من حوض البحر الابيض المتوسط ، وبسطوا سلطانهم على مجموعة جزر بحر « ايجه » ، وما لبث أن سرى حب التجارة فى عروقهم مع دماء غزاة وفدوا من الشمال ، من أصل غير معروف ٠٠ كذلك برع الكريتيون فى صوغ الذهب والفضة والنحاس الاحمر وارتبطوا مع مصر بعلاقات ، وتعلموا فن الكتابة ٠٠

ودخل الاقتصاد الكريتى مرحلة جديدة بظهور عصر البرونز ، اذ غدا هذا المعدن احتكارا لهم فى حوض البحر الابيض المتوسط ٠٠ ودفعهم الافتنان فى الصناعة الى ايفاد البعثات الى موانىء اليونان واسبانيا ، بحثا عن القصدير الذى كان يصل الى هذه البلاد من أقاصى الشمال ٠٠ وكانوا يقايضون منتجاتهم الزراعية ـ من زيوت وخمور ـ بالقصدير والعاج والنحاس الاحمر ٠٠ وحصلوا من مصر على الذهب واللآلىء فى مقابل العطور والخشب ٠ وأخذ سلطانهم البحرى يزداد ٠٠ وكانت حضارة كريت مقتصرة فى البداية على الساحل الشرقى، ثم امتدت الى وسط الجزيرة حيث أنشىء قصر « كنوسوس » واتصل بالساحل الجنوبى بطريق ملكية حفت بها البيوت ذات الحدائق ٠٠ ومالبثت أسرة « كنوسوس » ان فرضت سلطانها على كل أمراء كريت ، فتحول هؤلاء الى سادة اقطاعيين ، يخضعون ـ كما تخضع الجزيرة كلها ـ لزعيم واحد مشترك

يجمع فى يده مهام الحاكم والقائد والزعيم الدينى ! وقد عمد احد هؤلاء الزعماء – وكان عاهلا مستبدا يدعى « مينوس » – الى انشاء « امبراطورية » ، ببسط سلطانه على بعض البلاد المحيطة بالجزيرة ..

المرأة تتولى العرش !

◆ وقد امتازت حضارة كريت بأن المرأة كانت تملك الحق فى تولى عرش الحكم . وكانت تسود البلاد آداب السلوك والاخلاق .. وكان بلاط «كنوسوس» معرضا لاحدث الازياء و «المودات » – كما كان قصر « فرساى » فى أوج ترف الملكية الفرنسية – وكانت تقام فى البلاط مباريات الشطرنج ، والمهرجانات ، والحفلات الراقصة .. وكانت جدران البيوت الكريتية تزين بالجبس الملون ، والرسوم .. وكانت الجزيرة تعيش كلها فى غمرة اللهو والرفاهية ..ولكن البرابرة الذين كانوا قد سيطروا على بلاد اليونان زمنا طويلا، أخذوا يرمقون «كريت» بجشع .. ولا نستطيع أن نجزم بأنهم كانوا السبب فى حرق كثير من قصور الجزيرة ، ولكنهم بالتأكيد مسئولون عن تخريب قصر « كنوسوس » ونهبه .. وانهارت الامبراطورية حوالى سنة ١٤٠٠ قبل الميلاد

حضارة الفينيقيين

◆ وفى سنة ١١٠٠ ق . م . قامت حضارة الفينيقيين،وهى الاخرى حضارة بحرية .. وكانت السواحل التى وفدوا منها مقفرة ، فتركوها بحثا عن أرزاقهم .. وكانوا من سلالة « سام » – ابن النبى « نوح » – وقد نقلوا عادات الرعاة الى البحار ، ولم تكن بلادهم سوى قاعدة يقومون منها بمغامراتهم .. فاتخذوا « صور » و « صيدا » مركزى تموين فى رحلاتهم فى البحار .. وكانت المدينتان « غريمتين » لا يوحد بينهما سوى الحرص على احتكار التجارة فى البحر الابيض المتوسط ، وبعض الاتفاقات الاقتصادية ، ووحدة الارباب المعبودة: « عشتاروت » – ربة القمر والبحر – و « ميلكارت » ، البطل الهائم المتجول .. وقد تعاونت المدينتان على انشاء أسطول كبير للتجارة ، اتخذوا من أشجار الارز اللبنانية اخشابه ، ومن نسيج القطن المصرى قلوعه ..

(يتبع)



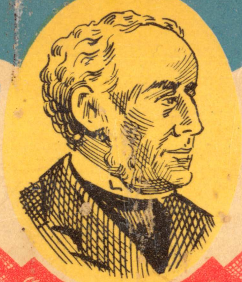
يعدو .. نحو الشمس الغاربة !

لوحة فوتوغرافية فازت باحدى الجوائز العالمية
لسنة ١٩٥٥ ، للمصورة « سابين فايس »



سذاجة .. وأسى

لوحة من معروضات متحف اللوفر للرسام الفرنسي
« چان بابتيست چروز » (١٧٢٥ - ١٨٠٥)



سير "ج. ا. ميليه"

لوحة الغلاف

شغف الرسام الانجليزى سير "ج. ا. ميليه" - (١٨٢٩ - ١٨٩٦) - بتصوير مختلف مظاهر الطفولة فى لوحاته، حتى لقد تخصص فى هذا الباب واشتهر بأنه ثانى رسام للأطفال فى انجلترا بعد "رينولدز".. ولم يكن "ميليه" يقتصر على رسم الأطفال ذوى الطلعة الوسيمة، بل كان يرسم أروع اللوحات لأطفال عرفوا بالقبح والدمامة، حتى لقد قيل عنه انه «كان يرى جمال الطفولة حتى فى أقبح الأطفال!».

واللوحة التى تراها فى صدر هذا العدد هى من أجمل لوحاته واكثرها "عذوبة"، وقد كان نموذجه فيها حفيده «ويللى جيمس»، الذى يرى وهو يتطلع فى براءة وفضول إلى فقاعة صغيرة من فقاقيع الصابون انطلقت فى سماء الحجرة!.. وقد رسم "ميليه" هذه اللوحة فى عام ١٨٨٦، وعرضت فى العام نفسه فى أحد المعارض الفنية، فنالت من النجاح ما أغرى شركات الاعلان باستخدامها فى الدعاية لمختلف المنتجات، بحيث صارت اليوم من أشهر اللوحات المعروفة فى كافة أنحاء العالم.. رغم ان فكرة استغلالها على ذلك النحو التجارى كانت أبعد الأفكار عن ذهن الفنان الذى رسمها!

كتابي

شركة فن الطباعة ٥٨١٤٩